

دكتور عبد الله محمود شحاتة

أستاذ ورئيس قسم الشريعة

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة نهضة الشرق

جامعة القاهرة



علوم القرآن

الطبعة الأولى ١٩٨٠

الطبعة الثانية ١٩٨٣

الطبعة الثالثة ١٩٨٥

دكتور
عبد الله شحاته



علوم القرآن

الناشر
دار الاعتصام



الله
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

امـا بعـد :

فهذه دراسة ميسرة عن القرآن الكريم اقدمها فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى . تحية وأملا .. لقد كان القرآن مشعل النور والضياء ، كان روحا وحياة ، وفكرا وعقيدة ، وأدبا وسلوكا ، وخلقا نظريا وعمليا .

وبفضل القرآن قامت الحضارة العربية الاسـلامية وصـار المسلمون خير امة أخرجت للناس .

ومرت بالمسلمين قرون سـود اتخـذوا القرآن مهجورا ، ويتوثب المسلمون الآن لاحياء مجدهم واسـتعادة عزتهم وجمع كلمتهم . وطريق ذلك هو القرآن الكريم ((فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الجد ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله)) .

* * *

ان علوم القرآن بحر لا ساحل له وصدق الله العظيم : ((قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا)) . وقد القيت بدلوى فى الدلاء وتخيرت باقة نضرة من علوم القرآن تحدثت فيها عن الأمور الآتية :

١ ـ الوحى وكتابة القرآن فى عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى عهد ابى بكر وعثمان والمكى والمدنى ، وفواتح السور ، ونزول القرآن .

٢ ـ اسباب نزول القرآن ، واهمية معرفتها .

٣ ـ اعجاز القرآن ، وفنون هذا الاعجاز .

٤ ـ القصة والمثل والقسم فى القرآن الكريم .

٥ ـ بحوث اخرى عن الاسرائيليات وغيرها من المباحث التى تراها بين يديك .

واسال الله ان ينفعنا بالقرآن الكريم وعلومه وهدايته ونوره ، وان يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا وشفاء صدورنا ... وصدق الله العظيم .

((وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا)) .

(سورة الاسراء ـ ٨٢)

الدكتور عبد الله محمود شحاته
استاذ الشريعة بكلية دار العلوم

الفصل الأول
كتابة القرآن

١ ـ الوحى .

٢ ـ كتابة القرآن فى عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ القرآن فى عهد ابى بكر ـ رضى الله عنه .

٤ ـ القرآن فى عهد عثمان ـ رضى الله عنه .

٥ ـ المكى والمدنى .

٦ ـ القرآن فى مكة .

٧ ـ القرآن فى المدينة .

٨ ـ فواتح السور .

٩ ـ نزول القرآن .

الوحي والقرآن

الوحى :

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت :

((أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه ــ وهو التعبد ــ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء قال : فاخذنى فغطنى ــ اى ضمنى وعصرنى ــ حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم ارسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فاخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى ، زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة واخبرها الخبر : ((لقد خشيت على نفسى)) فقالت خديجة : ((كلا والله لا يخزيك الله ابدا : انك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق)) .

ثم انطلقت به الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخا قد عمى وله اطلاع على كتب الأقدمين ، فقالت له خديجة : يا بن عم ، اسمع من ابن اخيك ، فأخبره النبى ــ صلى الله عليه وسلم خبر ما راى ، فقال له ورقة : قدوس ، هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى أكون

حيا اذ يخرجك قومك ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : **((أو مخرجى هم ؟))** قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودى . وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة ان توفى وفتر الوحى .

١ ـ تعريف الوحى :

الوحى لغة : هو الاعلام فى خفاء .

وشرعا : اعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما اراد اطلاعه عليه من الوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر .

فالوحى بالمعنى اللغوى يتناول الالهام الفطرى للانسان ، كقوله تعالى : **((واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه))** . (سورة القصص : ٧) .

وقوله : **((واذ اوحيت الى الحواريين ان آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد باننا مسلمون))** (سورة المائدة : ١١١) .

كما يتناول الالهام الغريزى للحيوان ومنه قوله تعالى : **((وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون))** (سورة النحل : ٦٨) .

اما الوحى الالهى الى الانبياء فهو خاص بابلاغهم تعاليم السماء ، وهى ظاهرة متماثلة عند الجميع لأن مصدرها واحد وغايتها واحدة (١) ، ومن ثم عرفوه بانه : (التعليم فى السر الصادر من الله تعالى الوارد الى الأنبياء عليهم السلام) قال تعالى : **((انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما))** (سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٤) .

٢ ـ صور الوحى :

اشار القرآن فى آية واحدة الى صور ثلاث من صور الوحى : احداها : القاء المعنى فى قلب النبى او نفثه فى روعه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٦/٢٠ .

وثانيتها : تكليم النبى من وراء حجاب ، كما نادى الله موسى من وراء الشجرة وسمع نداءه .

وثالثتها : ارسال ملك الوحى الى نبى من الأنبياء ليلقى اليه ما كلف ابلاغه به ، وذلك النوع هو اشهر الأنواع واكثرها .

ووحى القرآن كله من هذا القبيل ، وهو المصطلح عليه بالوحى الجلى ، قال تعالى : **((وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه على حكيم)) .**
(سورة الشورى : ٥١)

وقوله سبحانه : **((نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين)) .** (سورة الشعراء : ١٩٢ ، ١٩٣) .

ثم ان ملك الوحى يهبط هو الآخر على اساليب شتى : فتارة يظهر للرسول فى صورته الحقيقية الملكية . وتارة يظهر فى صورة انسان يراه الحاضرون ، ويستمعون اليه . وتارة يهبط على الرسول خفية فلا يرى ، ولكن يظهر أثر التغير والانفعال على صاحب الرسالة ، فيغيب غيبة كأنها غشية أو اغماء ، وما هى فى شىء من الغشية والاغماء ، ان هى الا استغراق فى لقاء الملك الروحانى وانخلاع عن حالته البشرية العادية ، فيؤثر ذلك على الجسم ، فيثقل ثقلا شديدا ، قد يتصبب منه الجبين عرقا فى اليوم الشديد البرد ، وقد يكون وقع الوحى على الرسول كوقع الجرس اذا صلصل فى اذن سامعه ، وذلك اشد أنواعه . وربما سمع الحاضرون صوتا عند وجه الرسول كأنه دوى النحل ، لكنهم لا يفهمون كلاما ، ولا يفقهون حديثا . أما هو — صلوات الله وسلامه عليه — فانه يسمع ويعى ما يوحى اليه ويعلم علما ضروريا أن هذا هو وحى الله دون لبس ولا خفاء ، ومن غير شك ولا ارتياب ، فاذا انجلى عنه الوحى وجد ما أوحى اليه حاضرا فى ذاكرته ، منتقشا فى حافظته كأنما كتب فى قلبه كتابة .

قال الله تعالى : **((وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى)) .**
(سورة النجم : ٣ — ٤) .

وروى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث ابن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس** — وهو أشده على — **فيفصم عنى وقد وعيت منه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول)) .**

قالت عائشة : ولقد رايته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا .

٣ ـ خاصـة الوحى :

الوحى غيب من أمر السماء لا يملك أمره الا الله ، وهو سر من أسرار الله ، يوحى به الى عباده ، فهو معجزة الهية يختص الله بها انبياءه ورسله ، وهو أبعد شىء عن (التنويم المغناطيسى) وتسجيل الأصوات على الأشرطة أو نقلها عن طريق الهاتف واللاسلكى ، كما أنه أمر متميز عن الالهام والرؤيا الصادقة التى تقع لغير الأنبياء وكل امر فى طاقة البشر ، قال المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز :

« اعلم ان الوحى الشرعى بكل انواعه يصاحبه علم من الموحىٰ اليه بأن ما القى اليه حق من عند الله ليس من خطرات الأوهام ، ولا من نزعات الشيطان ، ولا يتولد من مقدمات ، بل هو من قبيل ادراك الأمور الوجدانية كالجوع والشبع ، والحب والبغض ، فاذا عرفت أن هذه خاصة الوحى بالمعنى الشرعى عرفت وجه اختصاصه بالأنبياء عليهم السلام ولم يشكل عليك الفرق بينه وبين بعض أنواعه من الالهام والرؤيا الصادقة اللذين يقعان لغير الأنبياء ، كما ورد أن المؤمن ينظر بنور الله ، وأن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة ، ذلك ان ما يقع للصالحين من الالهامات ليس من العلوم اليقينية فى شىء وانما هى سوانح مظنونة ، وقد تلتبس فيها لمة الملك بلمة الشيطان ، فيحتاج الملهم الى قرائن خارجية يعرف بها أى النوعين هى ، وكذلك الرؤيا الصادقة التى تتفق لكثير من البشر حتى الفساق والكفار ، ليست لها هذه الخاصية ، وانما يقع ظن بصدقها لمن جرت عادته بذلك » (١) .

ومن يتل آيات القرآن يتضح أمامه ان الوحى من أمر السماء وهو فضل من الله لعباده يختص به من يشاء ، قال تعالى : **« وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك »** (سورة القصص : ٨٦) .

وفى منظومة فنية يقول صاحب الجوهرة :

ولم تكن نبـوة مكتسـبة ... ولو رقى فى الخير اعلىٰ عقبـة
بل ذاك فضل الله يؤتيه من ... يشـاء جـل الله واهب المنن

---

(١) عبد الرحيم فودة : الوحى والقرآن : ٩ .

وقد يتاخر الوحى عن النبى وهو اشد ما يكون شوقا اليه فلا يملك من امر تعجيله شيئا .

توجه اهل مكة للنبى بعدة اسئلة عن الروح وعن أهل الكهف وعن ذى القرنين فقال لهم : غدا اجيبكم ، ونسى أن يقول ان شاء الله ، فتأخر الوحى خمسة عشر يوما حتى قال كفار مكة ان اله محمد ودعه وقلاه . ولما نزل جبريل قال له النبى : « **يا جبريل ما جئت حتى اشتقت اليك** » ، فقال جبريل : لأنا أشد شوقا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « **وما منعك من النزول ؟** » فقرأ جبريل هذه الآية :

« **وما نتنزل الا بامر ربك له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا** » . (سورة مريم : ٦٤) .

وعلم الوحى النبى تقديم المشيئة ليكون ذلك تعليما لأمته ، قال تعالى : **ولا تقولن لشيء انى فاعل ذلك غدا . الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا** » (سورة الكهف : ٢٣ ، ٢٤).

ثم تولى الوحى الاجابة عن الأسئلة فقال : « **ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما اوتيتم من العلم الا قليلا** » .

(سورة الاسراء : ٨٥) .

كما تحدث الوحى عن قصة أهل الكهف وقصة ذى القرنين .

وقد فترالوحى عن رسول الله ، بعد نزول الآيات الأولى من سورة العلق ، وتأخر نزول الوحى بعدها ثلاث سنوات كان النبى يتحرق أثناءها شوقا للقاء جبريل ، وكان يتألم أشد الألم خشية ان يكون تأخر الوحى عقابا من السماء على ذنب ارتكبه .

وبينما النبى صلى الله عليه وسلم يسير فوق رءوس الجبال اذ سمع صوتا من السماء ، فرفع بصره ، فاذا الملك الذى جاءه بحراء ، فرعب منه ورجع الى زوجه خديجة فقال : « **زملونى** » فانزل الله تعالى : « **يايها المدثر . قم فانذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر** » ثم حمى الوحى وتتـابع (١) .

---

(١) البخـارى .

فنزول الوحى وانقطاعه أمران تملكهما السماء ، ولا يملك النبى تعجيل نزوله ولا تأخيره .

فان الوحى لينزل على النبى فى الليل الدامس ، وفى البرد القارس ، وفى لظى الهجير ، وفى استجمام الحضر ، أو أثناء السفر ، وفى هداة السلم او وطيس الحرب ، وحتى فى الاسراء الى المسجد الأقصى ، والعروج الى السموات العلا (١) .

٤ ـ مدة الوحى :

بدأ نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة النبوية ، وهو موافق لشهر يوليو (تموز) سنة ٦١٠م ، وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة . واستمر نزول الوحى عليه ٢٣ عاما حتى لقى ربه فى ١٣ من ربيع الأول سنة ١١هـ ، الموافق ٨ من يونيو (حزيران) سنة ٦٣٣م ، وكان عمره اذ ذاك ٦٣ عاما .

فالمدة التى نزل فيها الوحى على النبى الكريم كانت ٢٣ عاما ، وهى تنقسم الى قسمين متمايزين :

القسم الأول : فترة نزول الوحى بمكة ومدتها ثلاث عشرة سنة نزلت خلالها السور المكية وهى تمثل ٣٠/١٩ من القرآن أو ثلثى القرآن تقريبا .

القسم الثانى : فترة نزول الوحى بالمدينة ومدتها عشر سنوات نزلت خلالها السور المدنية وهى تمثل ٣٠/١١ من القرآن أو ثلث القرآن تقريبا .

واول آية نزلت من القرآن هى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق** » . (سورة العلق : ١) .

وآخر آية نزلت منه هى قوله تعالى : « **اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » (سورة المائدة : ٣) .

---

(١) البرهان : ١٩٨/١ .

٥ ـ العنــاية بالوحى :

تتابع نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال بعثته المباركة ، وحظى بعنايته وحفظه ، وروايته وقراءته ليلا ونهارا ، حتى كان يحرك لسانه بالقرآن وراء جبريل خشية أن ينسى منه شيئا ، فأمره الله الا يعجل بقراءة القرآن حتى يتم نزول الوحى عليه ، وطمأنه بان الحق سبحانه وتعالى تكفل بحفظ كتابه كما تكفل بأن يحفظه فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم وأن يلهمه قراءته وفهم معناه ، قال تعالى : **((لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه))** (سورة القيامة : ١٦ ــ ١٩) .

وكان أصحاب النبى من حوله يتسابقون الى حفظ القرآن واستظهاره وقراءته فى غدوهم ورواحهم ، وكان يسمع لهم دوى بالقرآن فى غسق الدجى كدوى النحل ، روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **((انى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون ، واعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وان كنت لم ار منازلهم حين نزلوا بالنهار))** (١).

كما حظى القرآن بعناية المسلمين ودراستهم ليتمكنوا من قراءته فى الصلاة المكتوبة ليلا ونهارا ، سرا وجهرا ، وفى النوافل التى يتطوعون بها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يساعدهم على هذه العناية ويرغبهم فيها ، بل كان عليه السلام يختار أعلمهم بكتاب الله ليفقه اخوانه .

((فكان الرجل اذا هاجر دفعه النبى صلى الله عليه وسلم الى رجل من الصحابة يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضجة بتلاوة القرآن حتى امرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((ان يخفضوا اصواتهم لئلا يتغالطوا))** (٢) .

ومن ذلك نرى ان القرآن كان محفوظا فى الصدور ، متلوا على الالسنة ، متعبدا به فى المساجد والمنازل ، وكان مسجلا فى قلوب جموع عديدة تهدر به اثناء الليل واطراف النهار وتقرؤه فى الحرب والسلم ، وترى قراءته قربة الى الله ومعرفة بدينه .

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى : ٣١٣/١ .
(٢) مناهل العرفان : ٢٣٤/١ .

وقد ساعدهم على استيعاب القرآن نقاء فطرتهم ، وسرعة حفظهم ، وصفاء أذهانهم ، وكانت الأمية منتشرة ، فاستعاضوا عن ذلك بالحفظ والتلاوة .

ويرى ابن الجزرى « أن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب ، أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » . ويستدل على ذلك بالحديث الصحيح الذى رواه مسلم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : **((ان ربى قال لى : قم فى قريش فانذرهم ، فقلت : اى رب اذن يثلغوا** (١) **رأسى حتى يدعوه خبزة . فقال : انى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق ينفق عليك))** فأخبر الله أن القرآن لا يحتاج فى حفظه الى صحيفة تغسل بالماء بل يقرأ فى كل حال. كما جاء فى صفة أمته : **((أناجيلهم صدورهم ، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظون الا فى الكتب ولا يقرءونه كله الا نظرا لا عن ظهر قلب))** (٢) .

* * *

ولعل من أسرار حفظ القرآن ان تتناقله المئات والألوف والملايين خلفا عن سلف ليكون وديعة الله الخالدة ، وصدق الله العظيم اذ يقول :

((انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)) (سوره الحجر : ٩) .

٦ ـ فضل القرآن :

حظى القرآن بعناية الأمة خلفا عن سلف ، فانه روح الشريعة وكتابها الخالد . فالعناية به والمحافظة عليه سياج لهذا الدين وحفاظ عليه .

وذلك سر توجيه النبى لأصحابه بقراءة القرآن وترديده والعمل به .

واليك ما ورد من الآثار فى فضل القرآن المجيد والمحافظة على قراءته والعمل بما فيه .

---

(١) تلغ رأسه ، وثلغه : شدخه .
(٢) مناهل العرفان الزرقانى : ١/٢٣٥

روى الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن ابى طالب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **انه ستكون فتن كقطع الليل المظلم** ، فقلت : ما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : **كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو فصل ليس بالهزل ، من تركه تجبرا قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى الى صراط مستقيم** » (١) .

* * *

وقال انس بن مالك فى تفسير قوله تعالى : « **فقد استمسك بالعروة الوثقى** » (سورة لقمان : ٢٢) ، قال : هى القرآن .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **اتلوا هذا القرآن فان الله عز وجل ياجركم بالحرف منه عشر حسنات اما انى لا اقول الم حرف ولكن الألف حرف ، واللام حرف ، والميم حرف** » (٢) .

وقال : « **ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده** » مسلم .

وقال : « **الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له اجران** » البخارى ومسلم .

وروى عثمان بن عفان رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه** » البخارى .

---

(١) مقدمتان فى علوم الحديث : تحقيق ارثر جفرى . ص ٢٥٦ مع اضافة سند الحديث ومعظم النصوص التالية فيه وفى كتب السنن .

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٢٥٦ ، وقد ورد فى صحيح مسلم « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر امثالها » . الحديث .

وقال عبد الله بن مسعود : « ان كل مؤدب يحب أن يؤتى بأدبه ، وان أدب الله القرآن » .

وقال بعض العلماء فى تفسير قوله تعالى : ((**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**)) (سورة يونس : ٥٨) قال : الاسلام والقرآن .

وقيل لعبد الله بن مسعود : انك لتقل الصوم . فقال : انه يسغلنى عن قراءة القرآن ، وقراءة القرآن أحب الى منه .

ويروى أن أهل اليمن لما قدموا أيام أبى بكر الصديق سمعوا القرآن فجعلوا يبكون فقال أبو بكر : هكذا كنا ثم قست القلوب .

من هذه الآثار ينضح مدى حب المؤمنين لكتاب الله وسابقهم لحفظه ، وبكائهم عند سماعه وتقربهم الى الله بقراءته ، ولذلك ظل كتاب الله وحيا يتلى ، ونورا يهتدى به وهديا يطبق ، وخلقا عمليا يتحلى به ، فليس المراد بقراءة القرآن ترتيل الفاظه فحسب ، بل امتثال معانيه والتزام أوامره واجتناب نواهيه .

وفى تفسير قوله تعالى : ((**انا سنلقى عليك قولا ثقيلا**)) قال أحد الفقهاء : أى علم معانيه ، والعمل به ، والقيام بحقوقه .

وقد وردت الأحاديث النبوية توضح قيمة العمل وتبين آداب حملة القرآن والسمت الذى يجب أن يلتزموه .

روى الحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((**من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى اليه ، لا ينبغى لحامل القرآن أن يجد** (١) **مع من وجد ، ولا أن يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله**)) .

وعن أبى ذر قال : يا رسول الله أوصنى ، قال : ((**عليك بتقوى الله ، فانه رأس الأمر كله** ، قلت : يا رسول الله ، زدنى ، قال : **عليك بتلاوة القرآن فانه نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء**)) ابن حبان .

لقد كان القرآن مدرسة خرجت هؤلاء الرجال فقادوا الدنيا وسادوا العالمين ، أرسوا معالم حضارة خالدة ، وصبغوا الدنيا بصبغة القرآن ، وتوجيه الرحمن ، وهدى محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) يجد : يغضب ، ووجدت عليه موجدة : غضبت .

كتابة القرآن
فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١ – العنـاية بالقرآن :

كانت همة الرسول وأصحابه متجهة أول الأمر الى حفظ القرآن وجمعه فى القلوب والصدور ؛ وقد شغل المسلمون انفسهم بقراءته فى صلاتهم وتهجدهم وسفرهم وحضرهم وليلهم ونهارهم . وكان هناك جيش من القراء وجموع من المسلمين تقرأ القرآن آناء الليل وأطراف النهار .

ومع ذلك فان عناية الرسول وصحابته بالقرآن فاقت كل عناية ، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه . ولكن بمقدار ما سمحت لهم وسائل الكتابة وأدواتها فى عصرهم .

فها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كتابا للوحى ، منهم من كان يكتب فى بعض الأحيان ومنهم من كان منقطعا للكتابة متخصصا لها ؛ وكلما نزل شيء من القرآن امرهم بكتابته مبالغة فى تسجيله وتقييده ، وزيادة فى التوثيق والضبط والاحتياط فى كتاب الله تعالى حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويعاضد النقش اللفظ .

وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة . فيهم : ابو بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وابان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم . وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبونه فيما يسهل عليهم من العسب « جريد النخل » واللخاف (الحجارة الرقيقة) وقطع الأديم (الجلد) والرقاع (من الورق والكاغد) وعظام الأكتاف والأضلاع ، ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا انقضى العهد النبوى المبارك والقرآن مجموع على هذا النمط ، بيد انه لم يكتب فى صحف ولا فى مصاحف ، بل كان منثورا بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا .

روى عن ابن عباس انه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال : « **ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا** » .

وعن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع » .

ومعنى تأليف القرآن من الرقاع ، وضع كل آية فى سورتها حسب ارشاد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول : « ضعوا آية كذا فى موضع كذا » .

ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر فى ذلك الا عن أمر الله عز وجل ، فهو امين على وحى السماء . قال تعالى : « **نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين** » . (سورة الشعراء : ١٩٣ ــ ١٩٤) .

٢ ــ ترتيب الآيات توفيقى :

وترتيب الآيات فى سورها توقيفى من غير خلاف بين المسلمين (١) . فقد كان جبريل يراجع النبى بالقرآن ويدارسه اياه فى رمضان ويرشده الى مكان كل آية ، وترتيب آيات كل سورة حتى لقى النبى صلى الله علىه وسلم ربه والقرآن محفوظ فى صدور المسلمين متــواتر ، بطريقــة ادائه وترتيب آياته .

وقال تعالى : « **ورتل القرآن ترتيلا** » ، وقد فسر بعضهم الترتيل بانه قراءة القرآن حسب ترتيبه الوارد من غير تقديم ولا تأخير (٢) .

---

(١) الاتقان : ١/٩٩ ، البرهان : ١/٢٣٧ .
(٢) البرهان : ١/٢٥٩ .

واخرج البخارى فى صحيحه عن ابن الزبير قال : « قلت لعثمان : « **والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا** » (١) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ » .

(المعنى : لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وانت تعلم بانها منسوخة ؟) قال : « يا بن أخى لا اغير شيئا من مكانه » (٢) .

فعثمان لا يجرؤ على تغيير آية من مكانها ولو ثبت له انها منسوخة لانه يعلم أن ليس له ولا لغيره دخل فى ترتيب آيات القرآن فان هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على نبيه بهذا النسق البديع « **لا تبديل لكلمات الله** » .
(سورة يونس : ٦٤) .

اخرج الامام أحمد باسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : **أتانى جبريل فامرنى ان اضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة :**

« **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى** » (٣) الى آخرها (٤) .

وقد ورد فى الصحاح ما يثبت انه صلى الله عليه وسلم كان معنيا باملاء القرآن على كتبة الوحى وغيرهم من الصحابة ومهتما باعلامهم بطريقة الأداء وترتيب الآيات (٥) .

وثبت انه صلى الله عليه وسلم قرا سورا عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة وفى خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة فكان ذلك دليلا صريحا على « ان ترتيب الآيات توقيفى وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم يقرا على خلافه ، فبلغ ذلك مبلغ التواتر » (٦) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣٤ .
(٢) صحيح البخارى : ٢٩/٦ ، الاتقان : ١٠٥/١ .
(٣) سورة النحل : ٩٠ .
(٤) الاتقان : ١٠٤/١ .
(٥) انظر مسند الامام احمد : ١٢٠/٣ ، ٣٨١/٤ ، والبخارى : كتاب تفسير القرآن الباب الثامن عشر .
(٦) الاتقان : ١٠٥/١ .

٣ ـ ترتيب السور :

اختلف العلماء فى ترتيب السور على ثلاثة أقوال :

القول الأول : ان ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة ، بدليل انه كان هناك مصاحف لأعلام الصحابة تختلف فى ترتيبها عن المصحف العثمانى . مثل مصحف أبى بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب .

فمصحف أبى بن كعب كان مبدوءا بالفاتحة ثم البقره ثم النساء ثم آل عمران ثم الانعام .

ومصحف على كان على ترتيب النزول فاوله : اقرأ . ثم المدثر ، ثم ق ، ثم المزمل ، ثم تبت ، ثم التكوير ، وهكذا الى آخر المكى والمدنى .

القول الثانى : ان ترتيب السور توقيفى تلقاه الصحابة عن رسول الله ، وتلقاه النبى عن جبريل ثم أثبته أبو بكر فى مصحفه وأثبته عثمان فى المصحف الامام وتلقته الأمة بالقبول خلفا عن سلف .

القول الثالث : أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وترتيب بعضها الآخر كان باجتهاد الصحابة .

وقد ذهب الى هذا الرأى فطاحل العلماء ، قال القاضى ابو محمد ابن عطية « ان كثيرا من السور قد علم ترتيبها فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال والحواميم والمفصل ، وما سوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه الى الأمة بعده » .

* * *

وانا استبعد الرأى الأول ، وارى ان ترتيب المصحف لم يكن باجتهاد الصحابة ، وما حدث من اختلاف بعض المصاحف كان سببه اجتهادا فرديا من أصحابها ، فلما راوا ترتيب مصحف عثمان ، وما توافر له من الجهود والضبط ، تابعوه والتزموه وأجمعت الأمة على قبوله . قال على : « انما فعله عثمان باجماع منا ولو لم يفعله لفعلته » .

ويبقى الرأى الثانى وهو أن ترتيب السور توقيفى .

والرأى الثالث وهو ان الترتيب كان توقيفيا فى بعض السور واجتهاديا فى البعض الآخر .

وانا ارجح أن ترتيب معظم السور كان توقيفيا ، وترتيب بعضها كان اجتهاديا ، رمز اليهم به لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ، فالخلاف بين الفريقين لفظى كما يقول الزركشى .

والامام مالك من القائلين بأن « ترتيب السور كان باجتهاد الصحابة » ، ولكنه اجتهاد مستند الى قراءة الرسول وتعليمه أصحابه ، وما اثر عنه من احاديث فى ترتيب بعض السور أو شوهد من قراءته للقرآن أمامهم .

قال مالك : « انما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى صلى الله عليه وسلم » .

فهو اجتهاد مقيد بالمأثور ، عاضد فيه الرأى النقل ، وبذل فيه الاجتهاد والتثبيت وأمانة التلقى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ أحيانا نحو ربع القرآن دفعة واحدة فى احدى الركعات من صلاة الليل .

فقراءة النبى صلى الله عليه وسلم أمام الصحابة أعلمتهم بترتيب معظم السور ، وكانت هاديا لهم فى ترتيب الباقى ، خصوصا أن عدد السور كان متفقا عليه ، وكل سورة كانت مرتبة الآيات مدونة فى المصاحف متلوة آناء الليل وأطراف النهار . فلم يبق الا ترنيب السور اثر بعضها وهو أمر ميسور ، وقد تم ترتيب السور فى مصحف عثمان ، وتلقته الأمة بالقبول خلفا عن سلف .

* * *

احترام هذا الترتيب :

وسواء اكان ترتيب السور توقيفيا أم اجتهاديا فانه ينبغى احترامه خصوصا فى كتابة المصاحف ، لأنه عن اجماع الصحابة ، والاجماع حجة ؛ ولأن خلافه يجر الى الفتنة ، ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب .

أما ترتيب السور فى التلاوة فليس بواجب ، انما هو مندوب قال العلماء : « الاختيار ان يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب سواء اقرأ فى الصلاة أم فى غيرها » (١) .

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى : ٣٥١/١ نقلا عن كتاب التبيان للامام النووى .

واما قراءة السورة من آخرها الى أولها فممنوع منعا باتا لأنه يذهب بعض ضروب الاعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات .

اما تعليم الصبيان من آخر المصحف الى أوله فحسن وليس من هذا الباب بل هو حفظ سورة كاملة ثم التى تليها لما فيه من تسهيل الحفظ على الصبيان حتى يكون أول ما يحفظ من قصار السور ثم يتدرج منها الى ما فوقها حتى يتم القرآن .

٤ ـ حفاظ القرآن :

حفظ القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم جموع غفيرة تجاوز عددهم العشرات والمئات ، قال القرطبى : قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ، وقتل فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ببئر معونة مثل هـذا العـدد .

وكانت عناية الصحابة بحفظ القرآن اكثر من عنايتهم بكتابته ، ولذا كان منهم من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه سواء فى ذلك المهاجرون والأنصـار .

وممن حفظه من المهاجرين : ابو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، وسعد بن ابى وقاص الزهرى ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى ابى حذيفة ، وابو هريرة ، وعمرو بن العاص ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وابن عمرو ، ومعاوية ، وعائشة ، وحفصة ، وام سلمة .

وممن حفظه من الأنصار : ابى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ ابن جبل ، وأبو الدرداء ، وانس بن مالك ، وأبو زيد ، وتميم الدارى (١) .

وممن نوه الرسول صلوات الله عليه بحفظهم وجودة قراءتهم اربعة ، قال صلى الله عليه وسلم : « **استقرئوا القرآن من اربعة : من عبد الله ابن مسعود وسالم مولى ابى حذيفة ، وابى بن كعب ، ومعاذ بن جبل** » (٢) . فاختص هؤلاء الأربعة بالذكر لأنهم كانوا فيما يظهر أكثر حفظا وأجود قراءة ، وهذا لا يمنع أن يكون غيرهم حافظا مثلهم .

---

(١) الاتقان : ١/٩٠ ، وانظر فضائل القرآن لابن كثير : ٩٩ ـ ١٠٢ .
(٢) البخارى : ٧/[illegible] ، ومسلم : ١٨/٦

دفع اشــكال :

لا نستطيع أن نحدد الصحابة الذين كانوا يحفظون القرآن على عهد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فان كل مسلم كان حريصا على العناية بالقرآن وحفظ آياته وتلاوته ، غير أن هناك آثارا تفيد أن أربعة من الصحابة فقط كانوا يحفظون القرآن ، روى البخارى عن قتادة أنه سأل أنس ابن مالك : من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : « أربعة من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قال قتادة : من أبو زيد ؟ قال أنس : أحد عمومتى » (١) .

وهذا الحصر الذى ذكره أنس حصر نسبى وليس حصرا حقيقيا ، فقد روى عن أنس من طرق أخرى انه قال : « مات النبى صلى الله عليه وسلم ــ ولم يجمع القرآن غير اربعة : أبو الدرداء ومعاذ بن جبل ، وزيد ابن ثابت ، وأبو زيد » (٢) فذكر أبا الدرداء بدلا من أبى بن كعب .

وانس كان يذكر فى كل مرة أسماء من جاء على ذهنه من الصحابة لا حصر العدد الذى يحفظ منهم ، كما أن قوله صلى الله عليه وسلم : خذوا القرآن من أربعة ، لا يعنى انهم وحدهم حفاظ القرآن بل المقصود التنبيه الى فضلهم واختصاصهم بجودة الحفظ وحسن الأداء .

ولعل مقصد أنس من قوله : « أربعة جمعوا القرآن » ، من جمعوه كله حفظا ، أو حفظا وكتابة من قبيلة الخزرج فقط . وقد يشير الى هذا ما روى عنه أنه كانت مفــاخرة بين الأوس والخزرج فقــالت الخزرج : « منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : ابى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » (٣) .

وقد حاول جماعة من الملاحدة أن يتمسكوا بهذا الأثر عن أنس ليشككوا فى تواتر القرآن وقطعية ثبوته .

قال المازرى : « ولا متمسك لهم فيه فانا لا نسلم حمله على ظاهره : سلمناه ولكن من أين لهم أن الواقع فى نفس الأمر كذلك ؟ سلمناه لكن

---

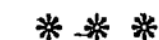
(١) البخــارى ١٠٠/٧ .

(٢) البخــارى : ٤٣/٩ .

(٣) فضائل القرآن لابن كثير أ ٩٧ . مطبعة المنار .

لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله الا يكون حفظ مجموعه الجم الغفير ، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل اذا حفظ الكل ولو على التوزيع كفى » أ. هـ.

ثم أن ما ذكرناه فى هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله فى حياة رسول الله . وقد كانوا عشرات ومئات . أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد اتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة ، واشتهر باقراء القرآن من بينهم سبعة : عثمان ، وعلى ، وأبى بن كعب ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعرى ، كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم واقرءوه لكثير غيرهم ، وتلى القرآن فى المحاريب والميادين ، وتردد فى المجالس والمدارس واستفاض حفظه بين الألوف المؤلفة ، وصدق الله العظيم اذ يقول :
« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . (سورة الحجر : ٩) .



القرآن فى عهد أبى بكر

١ — التفكير فى جمع القرآن :

لم يجمع القرآن فى كتاب واحد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، بل كان مجزءا فى العسب واللخاف والعظام وما تيسر من الرقاع وغيرهما مما يكتب عليه .

وانما لم يجمع القرآن فى حياة الرسول لاستمرار نزول الوحى واحتمال نزول ناسخ لبعض الآيات . ولعدم الحاجة الى جمع المصحف طالما رسول الله بين المسلمين . وهو المرجع الأوفى للقرآن الكريم . فلما تولى ابو بكر خلافة المسلمين ، نشط لحرب المرتدين عن الاسلام . واستشهد جمع من المسلمين فى هذه الحروب خصوصا فى معركة اليمامة التى قتل فيها مسيلمة الكذاب واستشهد فيها من المسلمين مائتان والف بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة وسبعون من حفاظ القرآن (١) .

وحزن المسلمون لموت قراء القرآن وخافوا أن يضيع شىء من القرآن بموت حملته فاقترحوا على ابى بكر — رضى الله عنه — جمع القرآن فى مصحف واحد موثقا بلجنة من كبار القراء الذين تلقوه عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وكان من اشهر القراء : زيد بن ثابت . وعبد الله بن مسعود ، وأبى ابن كعب . وعلى بن ابى طالب . وابو موسى الأشعرى . وسالم مولى ابى حذيفة ، وقد استشهد سالم مولى ابى حذيفة فى معركة اليمامة .

---

(١) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ص ٣٠٩ .

وقد اختير زيد بن ثابت من بين الصحابة ليشرف على جمع القرآن ، لأنه حضر العروضة الأخيرة للقرآن ، ولأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم . وهو لشبابه أقل تعصبا لرايه واعتزازا بعمله وذلك يدعوه الى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ ، والتدقيق فى الجمع دون ايثار لما حفظه (١) .

٢ ـ حديث البخارى :

روى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت رضى الله عنــه قال : « ارسل الى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال ابو بكر رضى الله عنه : ان عمر اتانى فقال : ان القتل قد استحر (اى اشتد) يوم اليمامة بالناس ، وانى اخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه ، وانى لأرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر قلت لعمر : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ فقال : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ورايت الذى راى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال ابو بكر : انك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان اثقل على مما امرنى به من جمع القرآن . قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال ابو بكر : هو والله خير . فلم ازل اراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر ابى بكر وعمر . فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الانصارى لم اجدهما مع غيره : « **لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** » (٢) . فلما نسخنا الصحف فى المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب ، كنت أسمع رسول الله صلى الله عليــه وسلم يقرؤها لم اجدها مع أحد الا مع أبى خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين . « **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** » (٣) . فالحقتها فى سورتها فكانت

---

(١) هيكل : المرجع السابق : ٣٤١ .
(٢) سورة التوبة : ١٢٨ ـ ١٢٩ .
(٣) سورة الأحزاب : ٢٣ .

الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله . ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

٣ ــ توضيح وبيــان :

ذكرنا حديث زيد بن ثابت برواية البخارى ، وقد أجمعت الروايات على صحته ، بيد انه يحتاج الى بيان وتوضيح اسجله فيما يلى :

١ ــ أصل القرآن كان محفوظا فى الصدور متلوا فى المحاريب .

٢ ــ أصل القرآن كان مكتوبا فى جذاذات ورقاع متفرقة .

٣ ــ عمل زيد ومن معه كان ترتيب هذه الجذاذات والرقاع وجمعها ومقابلتها بالمحفوظ والمتواتر .

٤ ــ لم يعتمد زيد على حفظه وذاكرته ولا على ما كتبه لرسول الله ؛ وهو من أوثق كتاب الوحى ، وانما جمع كل ما كتب من القرآن ، وجلس هو وعمر بن الخطاب على باب المسجد وقال : « من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فليأتنا به » (١) .

٥ ــ استوثق زيد ومن معه فى جمع القرآن زيادة فى الحيطة والعناية والتثبت « كان لا يقبل من احد شيئا حتى يشهد شاهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) .

٦ ــ كان زيد قد سمع القرآن جميعه من رسول الله ووعاه معه جموع المسلمين وكتبوه أيضا . وكان الحفظ مستفيضا والكتابة معروفة لجميع نصوص القرآن غير أن آيتين من آخر سورة « براءة » لم تكونا مكتوبتين الا عند ابى خزيمة الأنصارى وهو الرجل الذى اختصه النبى بشهادة رجلين ، فكتبهما زيد فى مكانهما من المصحف .

٧ ــ المصحف المجموع احتفظ به كوثائق العقود التى تودع للحاجة والمستقبل ، اما حقيقتها الخارجية فليست محل جدل ، لأنها أشبه بالمحسوسات المادية الراسخة .

---

(١) الاتقــان : ١/١٠٠ .
(٢) الاتقــان : ١/١٠٠ .

٨ ـ ثبت نص القرآن بالتواتر المستفيض ، ورونه جموع غفيرة يؤمن تواطؤها على الكذب وتكفل الله بحفظه ، وتمت كتابته على أوثق وجه بمشورة عمر واقناع ابى بكر وهمة زيد بن ثابت وصدق عزيمته . فهو أصدق وثيقة عرفها التاريخ لم يدخله تبديل ولا تغيير : **« لا تبديل لكلمات الله »** .

٩ ـ شهد المنصفون بالدقة البالغة فى جمع القرآن والصدق والتثبت فى روايته . قال المستشرق الانجليزى سيروليم موير : « ان القرآن بمحتوياته ونظامه ينطق فى قوة بدقة جمعه ، فقد ضمت الأجزاء المختلفة بعضها ببساطة تامة ، لا تعمل فيها ولا تكلف ، وهذا الجمع لا اثر فيه ليد تحاول المهارة أو التنسيق ، وهو يشهد بايمان الجامع واخلاصه لما يجمع ، فهو لم يجرؤ على أكثر من تناول هذه الآيات المقدسة ووضع بعضها الى جانب بعض » (١) فعمل زيد كان مقتصرا على جمع الرقاع من القرآن وربطها بخيط وحفظها عند الخليفة ، لتكون نصا خالدا باقيا على مدى الحياة . ويقول سيروليم موير ايضا : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ظل اثنى عشر قرنا كاملا بنص هذا مبلغ صفائه ودقته » (٢) .

٤ ـ روايات حول جمع القرآن :

(أ) تذهب رواية الى ان عمر بن الخطاب اول من جمع القرآن فى المصحف (٣) ذلك انه سأل يوما عن آية من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة . فقال انا لله ، وأمر بالقرآن فجمع ، ويمكن ان نجمع بين هذه الرواية وبين المتواتر ، بان عمر كان اول من راى جمع القرآن ، واشار على ابى بكر به وظل يناقشه حتى اقنعه . اما الجمع نفسه فقد تم فى عهد أبى بكر ، ويؤيد ذلك ما روى عن على بن ابى طالب انه قال : « رحمة الله على ابى بكر كان اعظم الناس اجرا فى جمع المصاحف وهو أول من جمع ما بين اللوحين » . وقد تواترت بذلك شهادة عدد كبير من أصحاب رسول الله .

---

(١) محمد حسين هيكل : الصديق ابو بكر : ٣٣٢ .
(٢) المرجع السابق : ٣٥١ .
(٣) الاتقان : ١/٥٩ ، المصاحف لابن ابى داود : ٢٠ .

(ب) ويذهب بعض الرواة الى ان جمع القرآن بدأ فى عهد ابى بكر وتم فى عهد عمر ، ورواية البخارى اوثق فهى تفيد ان جمع المصحف تم فى عهد ابى بكر ، واودعت عنده الصحف ثم عند عمر بعد وفاة ابى بكر ، ثم عند حفصة بنت عمر ، ثم انتقلت الى عثمان ، ليعتمد عليها فى جمع الناس على مصحف واحد .

(جـ) وتذهب بعض الروايات الى ان على بن ابى طالب اول من جمع القرآن بعد وفاة الرسول .

ونرى ان عمل على كان عملا فرديا ليحتفظ لنفسه بمصحف ، وهو جهد خاص شجعه ابو بكر ، كما شجع غيره من الصحابة على جمع المصحف . اما مصحف ابى بكر فقد كان مصحفا توفرت له جهود جمهور المسلمين وجموع الصحابة .

روى اشعث عن محمد بن سيرين : « لما توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، اقسم على الا يرتدى برداء الا لجمعه حتى يجمع القرآن فى مصحف ، ففعل ، فأرسل اليه ابو بكر بعد ايام : اكرهت امارتى يا أبا الحسن ؟ قال : لا والله ، الا انى اقسمت لا ارتدى برداء الا لجمعه فبايعه ثم رجع » .

قال ابن حجر : هذا الاثر ضعيف لانقطاعه وبتقدير صحته ، فمراده بجمعه حفظه فى صدره (١) ، فانه يقال للذى يحفظ القرآن قد جمع القرآن (٢) .

ونسبة جمع القرآن الى على ذكرت من عدة روايات فى الاتقان وغيره ، كما نسب الى سالم مولى ابى حذيفة انه اول من جمع القرآن فى مصحف (٣) . وهو محمول على انه كان من اول الجامعين بامر ابى بكر .

ومن هذا نرى ان نسبة جمع القرآن الى عمر او على او ابى حذيفة او غيرهم روايات فردية لا تناهض الصحيح المتواتر ، وهى على فرض

---

(١) الاتقان : ١/٥٩ .
(٢) المصاحف : ١/١٠ .
(٣) الاتقان : ١/٥٩ .

صحتها مؤولة . وارى ان ابا بكر لم يعارض فى جمع على او سالم او غيرهما مصحفا لنفسه على أنه مصحف خاص لقراءته . وان جمع أبى بكر للمصحف كان توثيقا تضافرت له أوثق صفات الجمع الصحيح .

ولذلك قال على ــ فيما حدث به سفيان عن السدى عن عبد خير ــ « اعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر هو اول من جمع ما بين اللوحين » (١) .

* * *

(١) المصاحف : ١/٥ ، وفى الاتقان : ١/٥٩ هو اول من جمع كتاب الله .

القرآن في عهد عمر

اتسعت الفتوحات فى عهد عمر ، وامتدت خريطة العالم الاسلامى فشملت بلاد الفرس والروم وغيرها . ولم تمض عشر سنوات على وفاة النبى الكريم حتى كانت دعوة الاسلام تزحف بقوة ذاتية ، فتطوى ممالك ودولا ، وتحتوى شعوبا وامما — والاسلام دعوة عالمية لا تعرف العنصرية ولا العصبية — ودخل الأعاجم فى دين الله افواجا ، واقبلوا على الدين الجديد يستوعبون احكامه ويرتلون قرآنه بلهجات متعددة ، وقراءات متنوعة .

وكان عمر رضى الله عنه يرسل القراء والمعلمين الى الأمصار لياخذ الناس عنهم كتاب الله . كما كانت هناك مدرسة بالمدينة لتعليم الصبية القرآن ، وكان عمر يتعهد هؤلاء الصبية ، حتى اذا سافر الى الشام بعد فتحها استوحش الصبية للقائه فخرجوا لاستقباله عند عودته على مسافة يوم .

وفكر عمر فى كتابة السنن وجمع الأحاديث واخذ يستخير الله فى ذلك ، ثم عدل عنه حتى لا تصرف الناس عن كتاب الله .

روى عن قرظة بن كعب انه قال : لما سيرنا عمر الى العراق مشى معنا عمر ، وقال : اتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم ، مكرمة لنا . قال : ومع ذلك فانكم تأتون اهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جردوا القرآن واقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم ، فلما قدم قرظة قالوا : حدثنا . قال : نهانا عمر (١) .

---

(١) محمد الزفزاف : التعريف بالقرآن والحديث : ٢٠٣ ، نقلا عن تذكرة الحافظ للذهبى .

ولم يضن عمر على البلاد المفتوحة بالقراء والمعلمين للقرآن فكان ينتقى شيوخ القراء من المدينة ويرسلهم الى المدن المفتوحة . وحين طلب منه أهل الشام قراء لبى طلبهم ورسم لهم خطة تجمع الناس على القراءة السليمة ، والأداء السليم .

روى محمد بن سعد فى طبقاته عن محمد بن كعب القرظى باسناده قال : جمع القرآن فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبى بن كعب ، وابو أيوب ، وابو الدرداء . فلما كان زمن عمر بن الخطاب كتب اليه يزيد بن أبى سفيان أن أهل الشام قد كثروا وربلوا (١) وملأوا المدائن ، واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأعنى يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم ، فدعا عمر اولئك الخمسة ، فقال : ان اخوانكم من أهل الشام قد استعانوا بمن يعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين فأعينونى — رحمكم الله — بثلاثة منكم ان اجبتم ، فاستهموا ، وان انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا ، فقالوا : ما كنا لنستهم ، هذا شيخ كبير ، لأبى أيوب ، وأما هذا فسقيم ، لأبى بن كعب ، فخرج معاذ وعبادة وابو الدرداء . فقال عمر : ابدءوا بحمص فانكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة ، منهم من يلقن (٢) ، فاذا رايتم ذلك فوجهوا اليه طائفة من الناس ، فاذا رضيتم منهم فليقم بها واحد ، وليخرج واحد الى دمشق ، والآخر الى فلسطين .

وقدموا حمص فكانوا بها ، حتى اذا رضوا من الناس اقام بها عبادة ، وخرج ابو الدرداء الى دمشق ، ومعاذ الى فلسطين . اما معاذ فمات فى طاعون عمواس ، واما عبادة فصار بعد الى فلسطين فمات بها ، وأما ابو الدرداء فلم يزل بدمشق حتى مات (٣) .

* * *

---

(١) يريد كثر عددهم ونموا .

(٢) يلحن .

(٣) الطبقات الكبرى : ٣٥٦/٢ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن : ١١١ .

وقد كان اتساع الفتوحات وانتشار الاسلام فى ممالك الفرس والروم ومصر ، وتيسير القراءة على الناس حسب ما تساعدهم عليها عضلات أصواتهم ولهجات قبائلهم ، مع ضعف الرقابة على القراءة وسماح الدين ان يقرا القرآن على سبعة أوجه ، كان كل ذلك مما احدث خلافا كبيرا بين الناس فى طريقة القراءة . فلما جاء عهد الخليفة الثالث عثمان ورأى هده الفتنة جمع الناس على مصحف واحد هو المصحف الامام ، واحرق ما عداه من المصاحف وكتب نسخة من المصحف العثمانى الى عدد من الأمصار الاسلامية ، وقد تلقته الأمة بالقبول خلفا عن سلف .



القرآن فى عهد عثمان

١ - امتداد الفتوحات :

امتدت الفتوحات فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وسمح عثمان للقرشيين انينتشروا فى الامصار ، وكان عمر قد منعهم من ذلك وابقاهم فى المدينة ، واخذ اهل كل مصر عن رجل من القراء .

فاهل دمشق وحمص اخذوا عن المقداد بن الأسود واهل الكوفة عن ابن مسعود .

واهل البصرة عن ابى موسى الأشعرى - وكانوا يسمون مصحفه « لباب القلوب » .

وقرا كثير من اهل الشام بقراءة ابى بن كعب (١) .

وكانت وجوه القراءة التى يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التى نزل عليها ، فاختلف الناس فى القراء ، وعظم اختلافهم وتشتتهم حتى ان الرجل ليقول لصاحبه : ان قراءتى خير من قراءتك ، وافضل من قراءتك . وبلغ الأمر من ذلك حتى كاد يكون فتنة : اختلفوا وتنازعوا واظهر بعضهم تكفير بعض والبراءة منه وتلاعنوا .

ذكر الحافظ : « ان اناسا من اهل العراق كان احدهم اذا سمع آية تقرا بغير قراءته قال : انى اكفر بهذه ، وفشا ذلك فى الناس فكلم عثمان فى ذلك » .

---

(١) يعلم ذلك من الروايات التى ذكرها الحافظ ابن حجر فى فتح البارى : ٩/٤ وانظر اعجاز القرآن للرافعى : ٣٨ .

٢ ـ اسباب جمع عثمان للمصحف :

وردت عدة روايات ذكرت فيها الأسباب التى حملت عثمان على جمع المصحف :

١ ـ فمنها ما يفيد أن السبب هو أن عثمان راى اختلاف معلمى القرآن بعضهم مع بعض وتعصبهم لقراءة تعلموها ، وانكارهم لما عداها .

روى ابن ابى داود فى المصاحف انه لما كانت خلافة عثمان جعل الرجل يعلم قراءة الرجل ، والرجل يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع الأمر الى المسلمين وكفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال : انتم عندى تختلفون فمن نأى عنى من الأمصار اشـد اختلافا .

٢ ـ ومنها ما يفيد أن القرآن جمع بمشورة حذيفـة بن اليمان لمـا راى اختلاف الناس فى العراق .

وفى رواية ان حذيفة رأى هذا التعصب فى مسجد الكوفة ـ والكوفة جزء من العراق .

وروى ابن ابى داود ان حذيفة كان فى مسجد من مساجد الكوفة زمن ولاية الوليد بن عقبـة بن ابى معيط فسمع رجـلا يقـول : قراءة ابن مسعود وسمع آخر يقول قراءة ابى موسى . فقام فخطب فى الناس فقال : « هكذا اختلف من كان قبلكم والله لأركبن الى امير المؤمنين » .

وذكر الحافظ رواية جاء فيها : أن عثمان قال تمترون فى القرآن ، تقـولون : قراءة ابى ، قراءة عبد الله ، ويقول الآخرون : والله ما تقيم قراءتك .

٣ ـ ومنها ما يفيد أن سبب الجمع هو التقاء جموع من الامصار المختلفة فى مواطن الغزو والجهاد ، واستماعهم للقراءات المختلفة ، وتعجبهم ، وانكارهم الاختلاف طرق اداء القرآن ، وانتقالهم من التعجب الى الشك والمداجاة ، ثم الى التائم والملاحاة ، وبلغ ذلك عثمان فامر بجمع القرآن .

* * *

وانت ترى أن تعدد الروايات فى اسباب الجمع لا تضارب بينهـا ، فكل الروايات تلتقى على أن هناك اسبابا جدت فى المجتمع الاسلامى حدت بعثمان الى جمع القرآن .

ويمكن ان يكون هذا الخلاف حدث فى المدينة أمام عثمان ، وحدث فى العراق وفى الكوفة أمام حذيفة ، وراى حذيفة اختلاف المجاهدين فى القراءة حين كان يغازى اهل ارمينية فرفع ذلك الى عثمان .

ولعل اسبابا اخرى للجمع لم تذكرها الروايات وان عرفت من بين القرائن ، هى جهل الجمهور الجديد بنزول القرآن على سبعة احرف ، وهم حتى ان عرفوا الحديث الذى ينص على نزول القرآن على هذه الأحرف ، فانهم يجهلون القراءات الصحيحة التى يحتكمون اليها عند الاختلاف .

لذلك راى عثمان جمع الناس على مصحف واحد بلغة قريش وهى التى نزل بها القرآن ، توحيدا للكلمة ودرءا للفتنة ورعاية للمصلحة العامة ، وجمعا للناس على كتاب واحد ، هو اســاس دينهم ومحـور حيـاتهم ، فالتقاؤهم عليه التقاء على حبل متين وركن ركين .

واذا علمنا ان جزءا من هذا الاختلاف كان فى أماكن الغزو ومواطن الجهاد حيث السيوف مشرعة ، والأسنة مستعدة ، ادركنا ما يصيب الأمة من التفرق ، وما يفيدها من الاجتماع على مصحف واحد .



٣ ـ حديث البخـارى :

روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب ان انس بن مالك حدثه ان حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ــ وكان يغازى اهل الشام فى فتح ارمينية واذربيجان مع اهل العراق ــ فافزع حذيفة اختـلافهم فى القراءة . فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، ادرك هذه الأمة قبل ان يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فارسل عثمـان الى حفصة ان ارسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، فارسلت بها حفصة الى عثمان ، فامر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير

وسعد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان لرهط القرشيين الثلاثة اذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف الى حفصة وارسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق (١) .

٤ ـ تعليق على الحديث :

والمتامل فى هذا الحديث والنصوص الواردة فى موضوعه ، يخرج بالنتائج الآتية :

١ ـ ان جمع عثمان المصحف كان بمشورة حذيفة بن اليمان والروايات الأخرى تفيد ان عثمان جمعه لما راى اختلاف القراء بالمدينة ، وكان عثمان توقع أن يكون قراء الأمصار أشد اختلافا ، فلما جاء حذيفة تأكد لديه ما توقعه فأمر بجمع القرآن .

٢ ـ أن الجمع فى عهد عثمان اعتمد أساسا على الجمع الذى كتب فى عهد أبى بكر ، وقد حظى الجمع الأول بعناية الصحابة وموافقتهم وتضافرت له جهود متعددة واشرف عليه زيد بن ثابت كاتب الوحى ، وقد تم الجمع الأول بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بمدة وجيزة والقرآن غض طرى والوحى يتلى فى كل مكان . وذكر القرطبى أن زيدا جمع القرآن فى عهد أبى بكر غير مرتب السور بعد تعب شديد وأن الصحف حفظت بعد جمعها عند أبى بكر ثم عند عمر ، ثم عند حفصة .

٣ ـ أحرق عثمان عددا من المصاحف الفردية التى كتبها بعض الصحابة لنفسه وهى مصاحف خاصة ، اختلفت عن بعضها فى ترتيب السور ، وفى بعض القراءات وكان من اشهرها مصحف على ، ومصحف ابى بن كعب ، ومصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف ابى موسى الأشعرى ، وقد ادى انتشار هذه المصاحف الفردية الى الفرقة والاختلاف .

---

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن ، الاتقان : ١/١٠٢ ، المصاحف لابن أبى داود : ١٨ ، تفسير الطبرى : ١/٢٠ ـ ١٢ .

٤ ـ حاول بعض المستشرقين أن ينفى الجدية والتواتر عن مصحف عثمان ، وذكر أن عثمان جمعه بحافز شخصى حتى يكون لديه مصحف خاص كغيره من أفراد الصحابة (١) ، وهى فرية تريد أن تجرد المصحف الامام من كونه عملا تضافرت عليه جهود وتوفرت له صفة التواتر وقطعية الثبوت .

٥ ـ كانت كتابة المصحف فى عهد عثمان بلغة قريش فهى اللغة الأولى التى نزل بها القرآن ، وهى لغة جمهور المسلمين ، ولغة الشعر والأدب ، ولسان الدولة الرسمى ، وقد ابيحت قراءة القرآن باللهجات المختلفة تيسيرا على الناس فى صدر الاسلام ، « فلما تذللت السنتهم بالقراءة وكان اقتصارهم على حرف واحد يسيرا عليهم وهو أوفق لهم اجمعوا على الحرف الذى كان فى العرضة الأخيرة » (٢) .

٦ ـ تلقى الناس عمل عثمان بالقبول ووافقوا عليه مقتنعين بما بذل فيه من جهد ، وبما يحقق من وحدة الأمة وتماسكها . قال الامام على رضى الله عنه : « لا تقولوا فى عثمان الا خيرا فوالله ما فعل الذى فعل الا على ملأ منا » (٣) . وقال ايضا : « لو وليت لفعلت فى المصحف ما فعل عثمان »(٤) .

وقال عبد الرحمن بن مهدى : خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لابى بكر ولا لعمر : صبره نفسه حتى قتل مظلوما ، وجمعه الناس على المصحف » (٥) وقد كانت هناك معارضة من عبد الله بن مسعود ثم رجع عنها لما راى مصحف عثمان (٦) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة حفصة . الدكتور عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ١٠٨ ، الدكتور صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ص ٧٩ .

(٢) النشر : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) المصاحف لابن أبى داود .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق .

لجنـة المصحف :

تختلف الروايات فى عدد الحفاظ الذين عهد اليهم عثمان رضى الله عنه بكتابة المصحف ، فمنها ما يفيد انه عهد الى زيد بن ثابت بكتابته .

ورواية البخارى تفيد ان اللجنة كانت مكونة من اربعة .

وجاء فى رواية ابن ابى داود أن اللجنة كانت مكونة من اثنى عشر رجلا .

ويتضح من جملة الروايات ان زيد بن ثابت كان رئيس اللجنة وان عثمان ندب معه اربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ .

ولعل عثمان امد اللجنة بعدد آخر من الصحابة لمساعدتها فى نسخ المصاحف التى ارسلها الى الأمصار .

فمن نسب كتابة المصحف الى زيد بن ثابت ، راعى انه رئيس اللجنة فينسب العمل اليه ، ومن جعل اللجنة رباعية راعى انها اللجنة الأصلية المكلفة بكتابة المصحف الامام ، ومن زاد فى عددها الى ١٢ ضم اليها أسماء من استعان بهم عثمان للمساعدة فى نسخ المصاحف التى ارسلت الى البلدان الاسلامية .

أسماء كتبة المصحف العثمانى :

ذكر البخارى أن عددهم اربعة وهم :

١ ــ زيد بن ثابت .
٢ ــ عبد الله بن الزبير .
٣ ــ سعيد بن العاص .
٤ ــ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

ورئيس اللجنة وحده من الأنصار ، اما الثلاثة الباقون فهم من قريش .

وقد مر بك أن عثمان قال للرهط القرشيين الثلاثة : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم » .

والمراد باللسان هنا طريقة الكتابة .

وزاد غير البخاري عليهم ستة هم :

١ - عبد الله بن عمرو بن العاص .

٢ - عبد الله بن العباس .

٣ - ابى بن كعب .

٤ - مالك بن ابى عامر (جد مالك بن انس) .

٥ - كثير بن افلح .

٦ - انس بن مالك .

وابن ابى داود يذكر ان عدد اللجنة اثنى عشر ، ولكن الحافظ ابن حجر لم يذكر الا اسماء تسعة منهم ، وقد إسقط فى عده عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وذكره السيوطى فى الاتقان .

فنحن لم نعرف من كتبة المصحف سوى عشرة ، اما الاثنان الباقيان فلم نعرف اسمهما ، ولم يطلع على اسمهما الحافظ ابن حجر . واذا لم يطلع ابن حجر وهو المحقق البارع على اسم شخص ، فمن العسير العثور عليه ، ولذلك سنعتبر لجنة المصحف لجنة عشرية .

وواضح من تكوين هذه اللجنة ان نصفها من قريش .

عبد الله بن الزبير ، سعيد بن العاص ، عبد الله بن الحارث بن هشام ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن العباس .

ونصفها من غير قريش ، اربعة من الانصار ، هم :

زيد بن ثابت ، ابى بن كعب ، انس بن مالك ، كثير بن افلح مولى ابى ايوب الانصارى ، ومولى القوم منهم .

والخامس مالك بن ابى عامر - جد مالك بن انس - وهو حميرى يمنى .

فيكون التكوين قد روعى فيه ان يكون النصف من قريش والنصف تقريبا من الانصار ، وواحد من اليمن .

وواضح من تكوين هذه اللجنة انها من العرب الخلص ، ما عدا كثير بن افلح فهو مولى ابى ايوب الانصارى ـ والموالى كثيرون فى الصحابة ـ فلعل عثمان رضى الله عنه راعى فى تكوين اللجنة أن تمثل المهاجرين والانصار واليمن من جهة ، وان تمثل الموالى من جهة اخرى .

وكما روعى حسن الاختيار ودقة تمثيل اللجنة للجماعة الاسلامية روعى فيها ان يجمع اعضاؤها بين الشباب والكهول . فالشباب يمثلون القوة والصحة والنشاط ، والكهول يختارون للتجارب والخبرة ونضوج الفكرة وحسن المقدرة .

فمن أعضاء اللجنة الشباب :

زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وانس بن مالك (١) .

ومن الأعضاء الكهول :

عبد الله بن عمرو بن العاص ، ابى بن كعب ، مالك بن أبى عامر (٢) .

والخلاصة أن الاختيار كان موفقا كل التوفيق ولم يكن سببه هوى ذاتيا أو تحيزا شخصيا ، وانما كان سببه الكفاءة المطلقة والخبرة والاخلاص ، والتقوى والعلم والمعرفة . وتاريخ اللجنة وسجل حياة افرادها اعظم دليل على حسن هذا الاختيار والتوفيق فيه (٣) .



---

(١) ، (٢) مع المصاحف : يوسف ابراهيم النور : ٢٣ : ٧٤ .

(٣) ما يذهبه المستشرق بلاشير الى أن عثمان بن عفان كان رجلا ارستقراطيا وانه إختار لكتابة المصحف ثلاثة من قريش يمثلون النزعة الارستقراطية ، ويدعى أنه اختارهم لصلات المصاهرة بينه وبينهم ، وهذا تهافت ينقضه ان زيدا المدنى كان رئيس اللجنة ، وأن عملها وافق قبول الامة . وفيما عرضناه ما يكفى لدحض هذه الشبهة (انظر : صبحى الصالح مباحث فى علوم القرآن ص ٧٩) .

المكى والمدنى

القرآن الكريم كتاب الاسلام الخالد : وهو روح الدعوة الاسلامية وباعث فكرتها ، وقاموسها وسجل حركتها . وقد اعطى الله الانبياء معجزات تناسب عصورهم وتؤيد رسالتهم ، اعطى موسى العصا تنقلب حية هائلة تلقف حبال السحرة ، واذا ادخل يده فى جيبه خرجت بيضاء بياضا ناصعا يغلب ضوء الشمس ، لان اهل مصر كانوا قد برعوا فى السحر فجاء موسى بمعجزة تفوق سحرهم .

اذا جـــاء موسى والقى العصـــا
فقـــد بطل السحر والســـاحر

وارسل عيسى فى عصر تقدمت فيه ابحاث الطب والعلاج ، فاعطاه الله معجزات روحية وطبية فى علاج المرضى وابراء الاكمة والأبرص واحياء الموتى باذن الله .

وارسل الله محمدا فى بلاد العرب وسط قوم اميين صناعتهم البيان وبضاعتهم القول الجيد من منثور ومنظوم ، وكان الشعراء والأدباء يلتقون فى سوق عكاظ فى مؤتمرات ثقافية ومنتديات ادبية ، يعرضون فيها انتاجهم الفكرى والأدبى ، واذا استحسنوا قصيدة علقوها حول الكعبة تخليدا لها واعتزازا بجودتها .

الف العرب فى الجاهلية السجع وتشابه الفواصل والكلام الموزون المقفى والعناية بالأدلة الخطابية ، ومخاطبة العاطفة ، واستخدام اساليب البيان وتنويع العبارة استمالة للسامع واستثارة له .

وقد نزل القرآن المكى خطابا لهؤلاء العرب وهو كلام السميع البصير اللطيف الخبير الذى خلق الانسان وهو اعلم بما توسوس به نفسه ، فأنزل الله القرآن فى الدروة العليا من أساليب البيان بل انه سار فى هذا الشوط الى مدى لا يشق غباره ولا يمكن محاكاته .

وحين اتهم العرب محمدا بصنوف الفرى وتقولوا عليه الأقاويل فاتهموه بالسحر وبالشعر وبالكهانة وبكتابة أساطير الأولين تحداهم القرآن ان يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله مفتريات أو بسورة واحدة منه ، ثم وصمهم بالعجز الأبدى عن محاكاته متحديا لهم ولغيرهم مدى الأزمان فقال سبحانه :
« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .
(سورة الاسراء : ٨٨) .

القرآن المكى :

بدأ نزول القرآن على النبى بمكة المكرمة ، واستمر نزوله بمكة ثلاثة عشر عاما يدعو أهلها الى الايمان بالله وتوحيد الخالق . ويحارب عبادة الأوثان والأصنام ويذكر الناس بالبعث والجزاء ويصف مشاهدة القيامة ويعرض صور النفخ فى الصور والقيام من القبور وتوزيع الصحف ووزن الأعمال والمرور على الصراط ودخول المتقين الجنة ، ودخول الكافرين النار .

وكان القرآن يفصل وصف الجنة ونعيمها وما فيها من انهار جارية وثمار دانية وحور عين وولدان مخلدين .

كما يعرض وصف جهنم وما فيها من ألوان العذاب وصنوف الآلام ، فاهلها سود الوجوه ، يسحبون فى النار على وجوههم ، ياكلون الضريع والزقوم ويشربون ماء كالمهل يشوى الوجوه ، لا ينظر الله اليهم ولا يكلمهم ولهم عذاب اليم .

السور المكية والمدنية :

اصطلح العلماء على أن ما نزل من القرآن قبل الهجرة الى المدينة يسمى مكيا ، وما نزل من القرآن بعد الهجرة يسمى مدنيا ، نسبة الى

مكة والمدينة ، ومكى القرآن نحو ٣٠/١٩ منه ، ومدنى القرآن نحو ٣٠/١١ منه ، وعدد سور القرآن ١١٤ سورة .

منها ٨٢ سورة متفق على انها مكية .

ومنها ٢٠ سورة متفق على انها مدنية .

ومنها ١٢ سورة يتردد الترجيح بين مكيتها ومدنيتها .

فالسور العشرون المدنية هى :

سورة البقرة ، آل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقين ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر .

والسور المختلف فى مكيتها ومدنيتها هى :

سورة الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والمطففين ، والقدر ، ولم يكن ، واذا زلزلت ، والاخلاص ، والمعوذتين .

وما بقى من سور القرآن مكى باتفاق ، وعدده إثنتان وثمانون سورة .

سجل لكل سورة :

سور القرآن ١١٤ سورة ، واذا تعرفنا على خصائص هذه السور وتاريخ نزولها وترتيب هذا النزول أدركنا ان جهدا كبيرا قد بذله العلماء الاولون حفاظا على هذا الكتاب العزيز وبيانا لما نزل منه أولا وما نزل منه تاليا ، وما نزل منه ليلا وما نزل منه صيفا وما نزل شتاء ، وما نزل منه مشيعا بالملائكة ، وما نزل مفردا ، وما نزل مجملا وما نزل مفسرا ، وما نزل بالجحفة ، وما نزل ببيت المقدس وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية ، حتى ليكاد أن يكون لكل سورة سجل خاص بآياتها وتاريخ نزولها وسبب نزولها والأحكام التى حفلت بها وما فيها من ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه ، وعام وخاص ، والى جوار ذلك بيان الآيات المدنيات فى السور المكية والآيات المكيات فى السور المدنية وما حمل من مكة الى المدينة وما حمل من المدينة الى مكة ، وما حمل من المدينة الى أرض

الحبشة ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة فى أهل المدينة وما نزل بالمدينة فى أهل مكة ، وما يشبه نزول المكى فى المدنى وما يشبه نزول المدنى فى المكى .. تلك بضعة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له ان يتكلم فى كتاب الله تعالى ، ـ كما قال أئمتنا فى علوم القرآن ـ .

مراحل ثلاث للسور المكية :

ومن خلال معرفتنا بسجل كل سورة وتاريخ نزولها وترتيب هـذا النزول ، يمكننا أن نقسم السور المكية الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

وهى المرحلة المبكرة فى تاريخ الدعوة وتتمثل فى السور الآتيـة :

سورة العلق ، المدثر ، الكوثر ، الأعلى ، الليل ، الشرح ، العاديات ، التكاثر ، النجم .

ومن خصائص السور فى هذه المرحلة شدة الايجاز وقصر الآيات ، وتناسق الفواصل وتنويع الكلام بين أمر ونهى واستفهام وتمن ورجاء ، وانتقاء الألفـاظ وتجسيم المعنـويات وتشخيص الجوامد وخلع الحركة والحياة والحوار على الأشياء الجامدة ، وبذلك تحولت السور الى مشاهد موحية وعرض رائع نابض بالحياة والحركة ، ودعوة هادفة تأخذ سبيلها الى القلوب وتنساب فى حنايا النفوس فتهدهد من كبريائها وتقوم عوجها بما تعرضه عليها من حقائق ساطعة عن الكون ومشاهده ، والخلق والبعث والبدء والاعادة .

كما ساق القرآن الكريم فى هذه الفترة قصصا قصيرة عن الأنبياء السابقين والأمم الخالية ليهدد به المشركين ويثبت به المؤمنين ، ويبين ان الدين واحد فى أصوله وعقائده ، وأن الاسلام دعوة عامة شاملة لجميع البشر .

المرحلة المتوسطة فى مكة :

وتتمثل هذه المرحلة فى السور الآتية :

سورة عبس ، التين ، القارعة ، القيامة ، المرسلات ، البلد ، الحجر .

وقد حافظت السورة فى هذه المرحلة على قصر الآيات وتناسق الفواصل ، الا ان بعض السور بدات تجنح الى الطول وبعض الآيات بدات هى الأخرى تطول أيضا ، ويمكن القول بان هذه المرحلة كانت توضيحا وبسطا لقضايا المرحلة الأولى ، فقد عرض القرآن فى المرحلة الأولى قضية الايمان والبدء والبعث والجزاء والوحى والحساب بدون تفصيل أو اغراق فى الدليل ، وفى المرحلة المتوسطة عرض هذه القضايا مع شرح الفكرة وبسط الدليل والتأييد بالبرهان وسوق الأدلة التاريخية والكونية والنفسية تأييدا للدعوة واستمالة لنفوس الناس بالحكمة والموعظة الحسنة .



المرحلة الختامية فى مكة :

وتتمثل هذه المرحلة فى السور الآتية :

سورة الصافات ، الزخرف ، الدخان ، الذاريات ، الكهف ، ابراهيم ، السجدة .

وفيها تميزت السور والآيات بالطول وافتتاح طائفة منها ببعض الحروف المقطعة ، وتوجيه الخطاب الى الناس جميعا لا الى اهل مكة وحدهم ، وتوضيح شئون الغيب بذات الله ، أو بالملائكة والجن ، أو بالأنبياء والأولياء ، أو بالمعجزات والكرامات ، وتصوير عقيدة التوحيد بأسلوب جديد والتذكير بطاعة الله ورسوله تمهيدا لما سيفصل فى المدينة من الفرائض والواجبات .

دفع شبهة :

يهمنى ان أوضح أن هذا التقسيم اجتهادى فردى مبنى على السمات الغالبة ، لا على الصفات المميزة ، فالقرآن فى مكة أو المدينة من أوله الى آخره كلام الله العلى القدير ، وهو الخبير بما يناسب كل قوم ، والبصير برعاية احوال المخاطبين فناسب اهل مكة قصر الآيات والدعوة الى الايمان ومكارم الأخلاق ، ثم تدرج معهم فى الدليل ، وبسط الفكرة ، كما يراعى

المعلم حال تلاميذه فيبدأ معهم بقصار السور ثم اوسطها ثم بالتى تليها تدرجا فى تعليمهم وتأليفا لقلوبهم .

على انك تلاحظ آيات مكية منبثة بين آيات سور مدنية . وبرغم ذلك لا يكاد يحس احد التفاوت او التفكك والانقطاع ، بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة : وكمال الاتصال ، وجمال التناسق والانسجام ، مما جعل القرآن كله على طول سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، او عقدا رائعا منتظم الحبات ، او قانونا رصينا مترابط المبادىء والغايات .

وان شئت فاعمد الى اى سورة من سور القرآن ، وتنقل بفكرك بين آياتها ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت اوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت اركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطء أولاها لآخرها ؟

ومن وراء ذلك كله يسرى فى جملة السورة اتجاه معين وتؤدى بمجموعها غرضا خاصا ، كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية .

اليس ذلك دليلا على ان هذا النظم القرآنى ليس من وضع بشر ، وانما هو صنع العليم الخبير ، وصدق الله العظيم :

« افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

(سورة النساء : ٨٢) .



القرآن في مكة

صفات القرآن المكي :

فى غار حراء ، وبين شعاب مكة وجبالها ، بدأ القرآن المكى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، داعيا الى توحيد الله ، منددا بعبادة الأوثان ، مخاطبا فطرة الانسان ، محررا ضميره من التقليد الأعمى للآباء والأجداد ، مناديا بالفضائل ناهيا عن الرذائل لافتا أنظار الناس الى الكون وما فيه ، والسماء ومن أبدعها ، والأرض ومن بسطها ، والجبال ومن أرساها ، والبحار ومن أجراها ، والى مظاهر هذا الكون من ليل مظلم ، ونهار مشمس وقمر باهر وكوكب زاهر ، ونبات نام ، ورياح جارية ، وأمطار هاطلة . وفى مثل ذلك نجد هذه الآيات القصار من سورة الغاشية :

« افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت . فذكر انما انت مذكر . لست عليهم بمسيطر » .

(الآيات : ١٧ ــ ٢٢) .

ونجد هذه الآيات من سورة عبس :

« فلينظر الانسان الى طعامه ، انا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فانبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا وفاكهة وابا ، متاعا لكم ولانعامكم » .

(الآيات : ٢٤ ــ ٣٢) .

وقد تميز كل من القرآن المكى والمدنى بخصائص مميزة وعلامات موضحة ، ورغم أن مرجع العلم بالمكى والمدنى هو السماع عن طريق الصحابة والتابعين ، الا أن هناك سمات وضوابط يعرف بها المكى والمدنى ، عرفها علماؤنا السابقون نتيجة الاستقراء والمراجعة لكتاب الله العزيز .

فمن خصائص القرآن المكى ما يأتى :

١ ـ كل سورة فيها لفظ « **كلا** » فهى مكية ، وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة كلها فى النصف الأخير من القرآن (وحكمة ذلك ان نصفه الأخير نزل أكثره بمكة ومعظم أهلها جبابرة فتكررت على وجه التهديد والتعنيف والانكار عليهم) .

٢ ـ كل سورة فيها « **يايها الناس** » وليس فيها « **يايها الذين آمنوا** » فهى مكية .

٣ ـ كل سورة فيها **قصص** الأنبياء والأمم الغابرة فهى مكية ، سوى سورة البقرة .

٤ ـ كل سورة فيها **قصة** آدم وابليس فهى مكية سوى سوره البقرة أيضا .

٥ ـ كل سورة فى أولها حروف التهجى مثل « **الم** ، **طسم** ، **حم** » فهى مكية ، سوى البقرة وآل عمران .

٦ ـ كل سورة فيها سجدة فهى مكية .

وهذه الخصائص الست ـ اذا حفظ ما استثنى منها جانبا ـ امارات قطعية لا تختلف .

صفات اخرى يكثر وجودها فى القرآن المكى :

هناك سمات غالبة ، وصفات شائعة تتعلق فى مجموعها بامور بلاغية ومعنوية تساعد فى ترجيح مكية الآية أو مدنيتها .

فمما كثر فى القسم المكى ما يأتى :

اولا : استشارة العقل والفكر ، ولفت الأنظار الى ما فى الكون من ادلة واضحة ، وعلامات شاهدة على وحدانية الله وقدرته .

ففى سورة (ق) المكية ـ وهى سورة كان النبى يكثر من قراءتها فى خطبة الجمعة حتى قالت النساء ما حفظنا سورة (ق) الا من خطبة النبى صلى الله عليه وسلم بها .

يقول سبحانه : **« افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج »** .

(الآيات : ٦ ــ ١١)

وهذه الآيات نموذج من نماذج الدعوة المتكررة فى القرآن ، التى تستصرخ الانسان الجاحد وتصيح فيه : انك لم تخلق عبثا ولن تترك سدى ، ولابد لهذا الكون من خالق ، ولابد لهذه الدنيا من غاية ، ولابد ان بعد الموت بعثا وحسابا وجزاء وجنة او نارا .

قال تعالى : **« افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم »** .

(سورة المؤمنون : ١١٥ ــ ١١٦)

ثانيا : حمل القرآن حملة شعواء على الشرك والوثنية ، وعلى الشبهات التى تذرع بها اهل مكة للاصرار على عبادة الأوثان ، ودخل عليهم من كل باب وأتاهم بكل دليل وحاكمهم الى الحس وضرب لهم ابلغ الأمثال التى تدل دلالة واضحة على ضياع الأصنام وعدم غنائها ، وأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تملك لنفسها ذلك فضلا عن أن تمنحه لمن يعبدها ، والمعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه .

وفى قصة ابراهيم الخليل ونقاشه مع قومه بشأن الأصنام قصص هادف ونموذج داع الى اقتلاع هذه العادة فقد كسر ابراهيم الأصنام التى

تعبد من دون الله ثم قال لقومه : ((**افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون**)) .

(سورة الأنبياء : ٦٦ ــ ٦٧)

ولما عاند أهل مكة واحتجوا بما كان عليه آباؤهم ، نعى عليهم ان يمتهنوا كرامة الانسان الى هذا الحضيض من الذلة للأحجار والأصنام ، وسفه أحلامهم وأحلام آبائهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله في الآفاق ، وقبح اليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد ((**او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**)) .

(سورة البقرة : ١٧٠)

وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالة التي نجمت عن تلك الوثنية من جحود الالهيات والنبوءات وانكار البعث والمسئولية والجزاء .

ثالثا : تحدث القرآن عن عادات أهل مكة المرذولة ، فنهاهم عنها وبين لهم آثارها السيئة على الفرد والمجتمع ونهاهم عن القتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض واكل مال الأيتام .

وفي الجانب المقابل مدح الاتقياء بأنهم لا يقترفون هذه المنكرات . مثال ذلك ما ورد في سورة الفرقان (الآية ٦٨) : ((**والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما**)) .

رابعا : شرح القرآن لاهل مكة اصول الأخلاق وحقوق الاجتماع شرحا عجبا كره اليهم الكفر والفسوق والعصيان وفوضى الجهل وجفاف الطبع وقسوة القلب وخشونة اللفظ وحبب اليهم الايمان والطاعة والنظام والعلم ، والمحبة والرحمة والاخلاص واحترام الغير ، وبر الوالدين واكرام الجار وطهارة القلب ونظافة اللسان والى غير ذلك .

خامسا : قص القرآن على أهل مكة من أنباء الرسل وانباء الأمم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ ونفع العبر من تقرير سننه تعالى الكونية في اهلاك أهل الكفر والطغيان ، وانتصار أهل الايمان والاحسان مهما طالت الأيام وامتد الزمان ما داموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الايمان .

سادسا : سلك القرآن مع اهل مكة سبيل الايجاز فى خطابه ، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات ، لأنهم كانوا أهل فصاحة ولسن ، صناعتهم الكلام وهمتهم البيان فيناسبهم الايجاز دون الاطناب ، كما ان قانون الحكمة العالية ، قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء فى تربية الشعوب والأفراد وان يقدم الأهم على المهم ولا ريب أن العقائد والاخلاق والعادات أهم من ضروب العبادات ودقائق المعاملات ، لأن الأولى كالإصول بالنسبة للثانية .

لذلك كثر فى القسم المكى التحدث عنها والعناية بها تقديما للأهم على المهم وسيرا مع المبادىء العامة للرسالات التى استهدفت هداية الانسان وشرفه وتهذيب أخلاقه .

قال تعالى : « **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** » .

(سورة الانبياء : ١٠٧) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « **انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » .

* * *

القرآن فى المدينة

هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة ورحب اهلها بالرسول الأمين وانساب السلام والاسلام بين اهلها وسمى مسلمو المدينة بالانصار . وسمى من هاجر من مكة بالمهاجرين ، وقد آخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار وأرسى دعائم الدولة الجديدة وعقد صلحا مع اليهود نص فيه على حرية العقيدة وعلى الدفاع المشترك عن المدينة ، وكان يهدف من ذلك الى تامين جانب المسلمين فى المدينة حتى يتمكن من نشر الاسلام خارجها . وبث عليه السلام السرايا وقاد الغزوات وواكبه النصر فى معظم حروبه وكان الوضع الجديد فى المدينة داعيا الى تميز القرآن المدنى بما يناسب المجتمع الجديد . فكان الوحى ينزل شارحا للمسلمين اصول دينهم داعيا جموع الناس الى العقيدة السليمة ، مواكبا ركب الدعوة الاسلامية مضيئا لها مشعل النور والهداية .

طوائف المدينة :

تطور المجتمع المدنى بعد ظهور الاسلام وانتشاره بالمدينة واصبحت اهم الفئات التى تقطن المدينة ثلاث طوائف ، هم : المسلمون واليهود والمنافقون .

١ ـ أما من جهة المسلمين فقد تنزلت آيات مدنية تناولت دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام وانواع القوانين المدنية والجنائية والحربية والاجتماعية والدولية ، والحقوق الشخصية وسائر ضروب العبادات والمعاملات .

ونجد ذلك ظاهرا فى سورة البقرة والنســاء والأنفــال والحجرات ونحــوها .

٢ ــ واما من جهة اليهود فقد ناقشتهم السور المدنية ، فذكرتهم بماضيهم وتحريفهم كلام الله وعدوانهم فى السبت وقتلهم الأنبياء واتخاذهم العجل وحبهم للمادة وحرصهم على الحياة . قال تعالى : « **ولتجــدنهم احرص الناس على حياة** » .

(سورة البقرة : ٩٦)

كما وصفت الآيات المدنية اليهود أيام موسى وبعد موسى وأيام عيسى ، وأيام محمد صلى الله عليه وسلم ، ووضحت ان طبيعتهم واحدة ، وان صفاتهم المرذولة توارثها الأبناء عن الآباء ولذلك خاطبهم جميعا بخطاب واحد . قال تعالى : « **قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين** » .

(سورة البقرة : ٩١) .

٣ ــ وأما من جهة المنافقين فقد تصدى لهم القرآن يفضح دخائلهم ويكشف سوء نواياهم حتى نزلت سورة باسمهم تصف نفاقهم وتلقى الضوء على خداعهم وسوء طويتهم . قال تعالى : « **اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون** » .

(سورة المنافقون : ١)

وفى ســورة البقرة يصف الله المؤمنين فى آيات ، ثم يتحــدث عن الكافرين فى آيتين ثم يتحدث عن المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، يلقى فيها الضوء على خداعهم ونسترهم فى الدروب والمنعطفات ، وقد بدأ ذلك بقوله سبحانه :

« **ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون** » .

(سورة البقرة : ٨ ــ ٩)

كما نزلت سورة التوبة بالمدينــة وسميت بســورة الفاضحة لأنهــا فضحت المنافقين ووالت حملاتها عليهم فذكرت خلفهم للعهد وتخلفهم عن الجهاد وتربصهم السوء بالمسلمين واعتذارهم الكاذب طمعا فى الاقامــة

بالمدينة وجبنا عن خوض المعارك خصوصا فى وقت العسرة وحرارة الصيف .
قال تعالى : ((**فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون**)) .

(سورة التوبة : ٨١)

ضوابط السور المدنية :

مما تقدم يتضح أن للقسم المدنى ضوابط محكمة لا تتخلف وهى كما يأتى :

١ ــ كل سورة فيها تفاصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية ، فهى مدنية .

٢ ــ كل سورة فيها اذن بالجهاد وبيان لأحكامه فهى مدنية .

٣ ــ كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية .

٤ ــ كل سورة يكثر فيها مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم الى عدم الغلو فى دينهم فهى مدنية .

وأما الأمارات الغالبة التى يرجح امتياز القسم المدنى بها فهى :

١ ــ طول السورة وبعض آياتها واطنابها وأسلوبها التشريعى الهادىء .

٢ ــ تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية .

نماذج من السور المدنية :

يمكن ان نتخير بعض السور المدنية لنرى أهم الموضوعات التى اشتملت عليها والمبادىء والأهداف السامية التى حفلت بها .

ولنضرب مثالا لذلك بما يأتى :

* * *

نظام عقد المعانى فى سورة البقرة

١ ــ المقصد الأول :

بيان اقسام الخلق امـام القرآن . وهم : المؤمنـون والـكافرون والمنافقون .

(من الآية ٢ ــ ٢٠)

٢ ــ المقصد الثـانى :

بيان اصول الدين عند الله وخلق آدم عليه السلام .

(من الآية ٢١ ــ ٤٣)

٣ ــ المقصد الثالث :

من مقاصد سورة البقرة هو دعوة اهل الكتاب دعوة خاصة الى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق . من قوله تعالى : ((**يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليـكم واوفوا بعهـدى أوف بعهـدكم واياى فارهبون**)) .

(الآيات ٤٠ ــ ١٧٦)

٤ ــ المقصد الرابع :

عرض شرائع الاسلام تفصيلا ، من قوله تعالى : ((**ليس البر ان تولوا وجوهكم قبـل المشرق والمغرب** ..)) (الآية : ١٧٧) اى من منتصف السورة تقريبا الى آخرها .

وقد تحدثت السورة فى هذا النصف الأخير عن التشريعات والعبادات والمعاملات والاحكام التى اقتضاها وجود المسلمين كجماعة ناشئة تدين بفكرة الاسلام وتلتزم بنظمه .

فقد تحدثت السورة فى نصفها الثانى عن القصاص واحكام القتـل وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف والحج والعمرة والقتال ، وذكرت الميسر والخمر واليتامى وحكم مصاهرة المشركين وذكرت حيض النساء والتطهر منه والطلاق والخلع والعدة والرضاع ، وذكرت الايمان وكفارة

الحنث ، وذكرت الانفاق فى سبيل الله والربا والبيع وذكرت طرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والاستشهاد . ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى :

((يايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ...)) .

(الآية : ١٧٨) الى ما قبل آخر السورة . وكان يتخلل هذه الأحكام ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمة هذه الأحكام ويعصم عن مخالفتها ، وذكر القصص والوعد والوعيد ، والارشاد والتوجيه ، ثم كانت خاتمة السورة فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يجرى لهم فى آجلهم وعاجلهم .



نموذج آخر

بالمبادىء التى اشتملت عليها سورة النساء

اذا اردنا ايجاز المبادىء والأهداف التى اشتملت عليها سورة النساء المدنية امكن أن نردها الى الأمور الآتية :

١ ــ اعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيدا لاقامة المجتمع على اساسه .

٢ ــ حقوق النساء واليتامى والسفهاء .

٣ ــ احكام المواريث .

٤ ــ احكام الزوجية وما يتصل بها .

٥ ــ التضامن الاجتماعى فى ظل التوحيد والخلق الكريم .

٦ ــ اساس الحكومة الاسلامية .

٧ ــ التحذير من اهل النفاق والكفر ومن الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حروبا مادية ومعنوية .

٨ ــ ارسال الرسل شأن الهى وليس محمد بدعا من الرسل .

٩ ــ اقامة الحجة على من يزعمون التثليث .

١٠ــ الرسالة المحمدية رسالة موجهة الى الناس أجمعين .

ومن ذلك يتضح أن القرآن فى المدينة ربى المسلمين تربيـــة ربانيـــة ووضع الأساس المحكم للأمة الاسلامية ، فى نظامها وسلوكها وعقيدتها وعبادتها وكل أمور حياتها حتى صارت بحق خير أمة أخرجت للناس . وصدق الله العظيم :

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا » .

(سورة الاسراء : ٨٢)



فواتح السور

أنزل القرآن الكريم على النبى الأمين خلال بعثته الشريفة ، وكانت سور القرآن سجلا حافلا لتاريخ الدعوة وهديا ساطعا لشرع الفكرة ، وتشريعا خالدا خلود الرسالة :

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وفى كل سورة من سور القرآن الكريم نجد روحا عامة تسيطر عليها ، وفكرة أساسية هى محور اهتمامها ، وقد تنوعت فواتح السور تبعا لنوع موضوعها ، فمنها ما بدىء بالثناء واثبات الحمد لله .

كما فى سورة الفاتحة : **« الحمد لله رب العالمين »** .

وسورة الأنعام : **« الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور »** .

وسورة الكهف : **« الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب »** .

ومنها ما بدىء بالنداء مثل : **« يايها النبى »** ، **« يايها المزمل »** ، **« يايها المدثر »** .

ومنها ما بدىء بالقسم مثل : **والصافات ، والذاريات ، والطور ، والنجم ، والفجر ، والشمس ، والليل ، والضحى ، والعاديات ، والعصر .**

حروف المعجم :

ومن السور القرآنية ما بدىء ببعض الحروف الهجائية التى لا تكون كلمات مثل : الف ، لام ، ميم .

وفى القرآن صيغ مختلفة من هذه الفواتح ، منها ما هو ذو حرف واحد مثل ((**ص ، والقرآن ذى الذكر**)) ، ((**ق ، والقرآن المجيد**)) ، ((**ن ، والقلم وما يسطرون**)) .

ومنها ما هو ذو حرفين مثل : ((**طه ، ما انزلنا عليك القرآن لتشقى**)) ، ((**يس ، والقرآن الحكيم**)) ، ((**حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم**)) .

وقد تكررت ((**حم**)) فى بداية سورة غافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف .

ومن السور ما بدىء بثلاثة أحرف مثل ((**الر ، الم**)) .

وقد تكررت ((**الم**)) فى بداية سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة .

ومن السور ما بدىء بأربعة أحرف مثل : ((**المص ، المر**)) . ومنها ما بدىء بخمسة أحرف مثل : ((**كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا**)) .

معانى هذه الفواتح :

ليس لهذه الفواتح فى اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها .

بيد انه قد اثرت عن السلف آراء متعددة فى معانى هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع الى رأيين اثنين :

احدهما : أنها جميعا مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناه أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

وثانيهما : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى :

١ — فمنهم من قال انها أسماء للسور التى بدئت بها ، أو ان كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

٢ — ومنهم من قال انها رموز لبعض أسماء الله تعالى وصفاته ، فنسب الى ابن عباس فى ((**كهيعص**)) أن الكاف من الملك والهاء من الله والياء من العزيز والصاد من المصور .

ونسب اليه انها اشارة الى : كاف ، هاد ، امين ، عالم ، صادق .
وروى عن الضحاك فى معنى ((الر)) : انا الله ارفع .

٣ — ومنهم من قال انها قسم اقسم الله به ، لبيان شرف هـذه الحروف وفضلها اذ هى مبانى كتابه المنزل على رسوله .

٤ — ومنهم من قال : ان المقصود منها هو تنبيه السامعين وايقاظهم .

٥ — ومنهم من قال : ان المقصود منها سياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها الى الاستماع اليه والمعروف ان اعداء الاسلام فى صدر الدعوة كانوا يتواصون بعدم الاستماع للقرآن .

ويقولون : ((**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**)) .

(سورة فصلت : ٢٦)

فلما انزلت السور المبدوءة بحروف الهجاء ، وقرع اسماعهم ما لم يألفوه التفتوا ، واذا هم امام آيات بينات استهوت قلوبهم ، واستمالت عقولهم ، فآمن من اراد الله هدايته ، وشارف الايمان من شاء الله تأخيره ، وقامت الحجة فى وجه الطغاة المكابرين .

٦ — ومنهم من ذهب الى ان هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان اعجاز القرآن ، وان الخلق عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن مع انه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها .

فى هذا دلالة على انه ليس من صنع بشر ، بل تنزيل من حكيم حميد ، وقد لاحظ اصحاب هذا الراى ان فواتح السور مكونة فى جملتها من اربعة عشر حرفا هى نصف حروف الهجاء ، كما انها حوت فوق ذلك من كل جنس من الحروف نصفه ، فقد حوت نصف الحروف المهموسة ، ونصف الحروف المجهورة ، ونصف الشديدة ، ونصف الرخوة ، ونصف المطبقة ، ونصف المنفتحة ، وكأنه قيل : « من زعم ان القرآن ليس بآية ، فليأخذ الشطر الباقى ويركب عليه لفظا معارضة للقرآن » .

* * *

رجوع الى القرآن :

واذا رجعنا الى القرآن نفسه وتتبعنا هذه السور الكريمة التى بدئت بحروف الهجاء راينا أنها فى الأعم تحدثت عن نزول القرآن الكريم واعجازه فدل ذلك على أن هذه الحروف قد ذكرت فى بداية هذه السور اشارة الى التحدى والاعجاز وان هذا القرآن ليس من صنع بشر ، بل هو كتاب الله الذى انزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وختم به رسالته الى خلقه ، وبين فيه شريعته وسنته فى كونه ، وكان لنبيه معجزة خالدة ، تنطق بانه رسول رب العالمين .

اقرا ان شئت : « **الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه** » سورة البقرة .

« **الم ، الله لا اله الا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق** » سورة عمران .

« **المص ، كتاب انزل اليك** » سورة الأعراف .

« **الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم** » سورة يونس .

« **الر ، كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** » سورة هـود .

« **الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** » سورة يوسف .

« **الر ، تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك من ربك الحق** » . سورة الرعد .

« **الر ، كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور** » . سورة ابراهيم .

« **الر ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين** » سورة الحجر .

« **طه ، ما انزلنا عليك القرآن لتشقى** » سورة طه .

« **طسم ، تلك آيات الكتاب المبين** » سورة الشعراء .

« طسم ، تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبإِ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون » سورة القصص .

« طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين » سورة النمل .

« الم ، تلك آيات الكتاب الحكيم ، هدى ورحمة للمحسنين » . سورة لقمــان .

« ص ، والقرآن ذى الذكر » سورة ص .

« حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » سورة غافر .

« حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم » سورة فصلت .

« حم ، والكتاب المبين ، انا جعلنــاه قرآنا عربيا لعلــكم تعقلون » سورة الزخرف .

« حم ، والكتاب المبين ، انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين » سورة الدخان .

« ق والقرآن المجيد » سورة ق .

* * *

حـ اسباب النزول :

واذا نظرنا الى الأسباب العامة لنزول هذه الآيات والى الجو الذى نزلت فيه رأينا انها كلها سور مكية ، ما عدا سورة البقرة وآل عمران ، وكلها نزلت تجادل كفار مكة وتصرفهم عن عنادهم وتأخذ بأيديهم والبابهم الى مواطن الاعجاز فى هذا الكتاب الخالد الذى أنزله الله على نبيه هداية لهم ونورا لحياتهم ونظاما لسلوكهم ، ولكنهم صموا آذانهم عن سماعه وقالوا أساطير الأولين ، وادعوا انه حديث مفترى ، وانهم لو شاءوا لقالوا مثله ، الى غير ذلك مما كانوا يحاولون به صرف الناس عن القرآن والصد عنه ، فبدئت هذه السور بهذا الاسلوب تأثيرا فى قلوبهم ولفتا لانظارهم . ولا يخفى أن المفاجاة بالغريب الذى لم يؤلف ، لها فى ارهاف الاسماع وتنبيه الأذهان ما لا يحتاج الى بيان .

سر الاعجــاز :

ولا يبعد ان يكون الاعجاز فى هذه الأحرف هو اشتمالها على جميع الوجوه التى ذكرها العلماء فى معانيها .

فهى بداية للسور ، وهى اشارة الى اسماء الله تعالى أو صفاته ، وهى لون من التنبيه الذى يقرع الأذهان ويلفت الغافلين .

وهى مما أقسم الله به لبيان شرف القرآن وفضله .

وهى مما استأثر الله بحقيقة المراد منه ، فكل ما ذكره العلماء اجتهاد محمود لادراك اسرارها أو حكمة الابتداء بها .

ولا يزال الله يتفضل على عباده صباح مساء بفهم كتابه واستنباط معانيه ، سئل الامام على رضى الله عنه : هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء ؟ فقال لا الا فهما يعطيه الله لرجل فى القرآن .

وصدق الله العظيم : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** » .

« سورة الكهف : ١٠٩ »

نزول القــرآن

تفيد آيات القرآن الكريم انه نزل فى ليلة واحدة هى ليلة القدر المباركة وهى احدى ليالى شهر رمضان المبارك .

قال تعالى : ((**شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن**)) .
(سورة البقرة : ١٨٥)

وقال تعالى : ((**انا انزلناه فى ليلة القدر**)) .
(سورة القدر : ١)

وقال عز شانه : ((**انا انزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين**)) .
(سورة الدخان : ٣)

وهذه الآيات فى جملتها تفيد ان القرآن الكريم انزل على النبى الامين فى شهر رمضان ، وتحدد ليلة بالذات ، هى ليلة القدر التى انزل فيها القرآن الكريم وحظيت هذه الليلة بالتفضيل والتكريم فكانت خيرا من الف شهر .

وقد يسال انسان فيقول : ان الواقع المشاهد هو نزول القرآن الكريم على النبى الأمين فى ثلاث وعشرين سنة من اول البعثة المحمدية الى آخر حيــاته الشريفة .

قال تعالى : ((**وقرآنا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**)) .
(سورة الاسراء : ١٠٦)

فالقرآن لم ينزل فى ليلة واحدة وانما نزل فى ثلاث وعشرين سنة ، فكيف نوفق بين مفهوم الآيات الأولى ، ومفهوم الآية الأخيرة ؟

وللعلماء فى التوفيق بينهما ثلاثة آراء :

الراى الأول :

ان المراد بنزول القرآن فى ليلة القدر ابتداء النزول فى هذه الليلة ، من تسمية الشيء باسم أوله باعتباره حجر الأساس فى هذا البناء العظيم .

فالقرآن بدأ نزوله فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما حسب الوقائع والحوادث ، وهذا هو رأى الشعبى ، فقد فسر قوله تعالى : ((**انا انزلناه فى ليلة القدر**)) بمعنى انه ابتدأ نزول القرآن فى ليلة القدر ، ثم استمر نزول القرآن ثلاثا وعشرين سنة تحقيقا لقوله تعالى : ((**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**)) .

الراى الثانى :

ان القرآن نزل الى سماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر ينزل فى كل ليلة قدر منها ما يقدر الله انزاله فى تلك السنة ثم ينزل بعد ذلك منجما فى جميع السنة على النبى صلى الله عليه وسلم .

الراى الثالث :

ان القرآن نزل الى السماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم نزل بعد ذلك منجما فى ثلاث وعشرين سنة .

والراى الثالث هو راى الجمهور ، وهو أولى الآراء بالصواب ، اذ يجمع بين مدلول الآيات ، ويؤيده ما ورد فى الصحيح وما هو مقطوع به من نزول القرآن طوال مدة الرسالة .

واصحاب هذا الراى يذهبون الى ان للقرآن الكريم تنزلات ثلاثة :

التنزل الأول :

الى اللوح المحفوظ ، قال تعالى : ((**بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ**)) (سورة البروج : ٢٢) ، وقد نزل القرآن اليه جملة واحدة وكتب فى اللوح المحفوظ على نحو نؤمن به ونفوض حقيقة المراد منه اليه سبحانه وتعالى .

التنزل الثــانى :

من اللوح المحفوظ الى بيت العزة فى سماء الدنيا, وهو المعبر عنه بقوله تعالى : ((**انا انزلناه فى ليلة القدر**)) .

التنزل الثالث والأخير :

هو نزول القرآن الكريم على يد جبريل الأمين من بيت العزة فى سماء الدنيا الى الرسول صلى الله عليه وسلم فى مدة رسالته ، وهو المعبر عنه بقوله : ((**نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين**)) .

(سورة الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥)

والحكمة من هذا النزول هى تفخيم أمر القرآن وامر من نزل عليه باعلام سكان السموات السبع أن هـذا آخر الكتب المنزلة على خاتم المرسلين لأشرف الأمم ، وبانزاله مرتين مرة جملة ومرة مفرقا ، بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنزل جملة مرة واحدة .

وذكر بعضهم أن فى النزول الى السماء الدنيا الهابا لشوق النبى صلى الله عليه وسلم اليه ، على حد قول القائل :

واعظم ما يكون الشــوق يومــا
اذا دنت الخيـــام من الخيـــام

الأحاديث الصحيحة :

وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لتنزلات القرآن ، ونقل القرطبى الاجماع على نزول القرآن جمـلة من اللوح المحفوظ الى بيت العزة فى السماء الدنيا ، كما نصت على ذلك الروايات التالية :

١ ـ اخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : « أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه فى أثر بعض » .

٢ ـ واخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال : « فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم » .

٣ ـ واخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس انه سأله عطية بن الأسود فقال اوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : **« شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن »** وقوله : **« انا انزلناه فى ليلة القدر »** .

وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع . فقال ابن عباس : « انه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم انزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام » . وقال ابو شامة « رسلا » اى رفقا « وعلى مواقع النجوم » أى على مثل مساقطها ، يريد انه انزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم انزل على مواقع النجوم منجما يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق .

وهذه الأحاديث صحيحة كما ذكر السيوطى ، وهى وان كانت موقوفة على ابن عباس ، الا ان لها حكم المرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحكمة فى تنجيم القرآن :

قد يسأل سائل عن الحكمة فى تفريق نزول القرآن على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ؟

والحكمة فى هذا أن القرآن من عالم الغيب وله من الشدة والهول ما يناسب جلاله ، قالت عائشة رضى الله عنها : « ولقد رأيت النبى ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وأن جبينه ليتفصد عرقا » .

فكان من لطف الله بالنبى أن فرق نزول القرآن عليه خلال مدة رسالته الشريفة ليكون ذلك آنس لقلبه ، وليثبت به فؤاده ، وليصبح القرآن زادا متصلا يتدرج فى تربية الأمة الناشئة علما وعملا ، ويساير الحوادث والطوارىء فى تجددها وتفرقها ، فكلما جد جديد نزل من القرآن الكريم ما يناسبه واوضح الله من الأحكام ما يوافقه ، قال تعالى : **« وقال**

الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا ياتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا » .

(سورة الفرقان : ٣٢ ، ٣٣)

والأمر بعد ذلك مرده الى الايمان والتسليم بأن القرآن كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم ، والمتعبد بتلاوته ، والمتحدى به العرب ، والمحفوظ بحفظ الله رب العالمين .

« انه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون ، لا يمسه الا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » .

(سورة الواقعة : ٧٧ ــ ٨٠)

* * *

الفصل الثانى
أسباب النزول

١ – اسباب نزول القرآن توضح سمات المجتمع الاسلامى .

٢ – اسباب النزول وشئون الأسرة .

٣ – اسباب النزول وشئون الطلاق والميراث .

٤ – اسباب النزول توضح سماحة الاسلام .

٥ – اسباب النزول تبرز اخلاق الاسلام العالية .

« العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » .

٦ – معانى القرآن عامة وشاملة .

٧ – حركة النفاق فى المدينة مثل لأساليب المنافقين .

التعبير عن سبب النزول .

جهل سبب النزول .

« آيات القرآن واسباب النزول » .

اهمية معرفة اسباب النزول .

تعدد الأسباب والمنزل واحد .

تعدد النازل والسبب واحد .

أسباب نزول القرآن
توضح سمات المجتمع الإسلامي

القرآن الكريم كتاب الحياة يصحح اخطاءها وينير طريقها ويرسم لها الطريق السوى ويبعث البركة والنماء فى نفوس المؤمنين به ودراسة الأسباب التى أدت الى نزول بعض آيات القرآن توضح سمات المجتمع الاسلامى وتميز ملامحه ، وتجعلنا نعيش فى زمن الوحى نستطلع الحياة وأسبابها ونعرف تاريخ الآيات وما نزلت متحدثة عنه أو مبينة لحكمه ايام وقوعه .

١ ــ فقد كانت الحادثة اذا وقعت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم نزل الوحى من السماء يبين الحكم ويشرح للناس ما يرشدهم الى ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت ، كالخلاف الذى شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج ــ بدسيسة من أعداء الله اليهود ــ حتى تنادوا : السلاح السلاح ، ونزلت بسببه تلك الآيات الحكيمة فى سورة آل عمران من أول قوله ــ سبحانه وتعالى : « **يايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين** » الى آيات أخرى بعدها هى من أروع ما ينفر من الانقسام والشقاق ويرغب فى المحبة والوحدة والاتفاق (١) .

أم كانت تلك الحادثة خطأ ارتكب كخطأ ذلك الأنصارى الذى سكر فضرب وجه سعد بن أبى وقاص بلحى بعير فشجه ، فانطلق سعد مستعديا

---

(١) أنظر الآيات ١٠٠ ــ ١٠٥ سورة آل عمران .

رسول الله صلى الله عليه وسلم – فانزل الله تحريم الخمر فى قوله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة : « **يايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** » (١) .

(سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١)

وما اكثر الأخطاء التى تحدث فى المجتمع ، لكن القرآن كان يضع العلاج الحاسم لكل خطأ ، حتى يحفظ المجتمع من استمرار الخطأ او تكرار الجريمة .

هذا عياش بن ابى ربيعة بن المغيرة المخزومى يقتل مؤمنا خطأ ، والقتيل هو الحارث بن يزيد بن ابى انيسة من بنى عامر بن لؤى ، فينزل الوحى علاجا للمشكلة الحادثة ، ونظاما متبعا فى امثالها الى يوم الدين ، يقول الله تعالى : « **وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله الا ان يصدقوا** » .

(سورة النساء : ٩٢) .

وحينما قتل مقيس بن ضبابة الكنانى ثم الليثى رجلا من قريش يقال له عمرو الفهرى عامدا متعمدا ، انزل الله الآية الكريمة : « **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما** » .

(سورة النساء : ٩٣) .

٢ – وقد تكون الحادثة سببا فى بيان حكم فى شأن من شئون الأسرة أو المجتمع .

فمن امثلة ذلك أن اهل الجاهلية كانوا لا يورثون البنات والصغار من الذكور ، ولكن القرآن كرم المراة فجعل لها نصيبا من الميرات ، وكرم انسانية الانسان فجعل نصيب الصغير والكبير سواء .

---

(١) اسباب النزول للواحدى : ٨٢ ، ولباب النقول فى اسباب النزول للسيوطى : وتفسير مقاتل بن سليمان .

وحدث هذا التشريع اثر حادثة معينة ، حتى تتشوف له النفوس وتستجيب له القلوب .

ورد فى أسباب نزول (١) قوله تعالى : « **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدين والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا** » (أن اوس بن ثابت الانصارى توفى وترك امرأة يقال لها أم كحة وثلاث بنات له منها ، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه ، يقال لهما سويد وعرفطة فاخذا ماله ولم يعطيا امراته شيئا ولا بناته فاشتكت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ان أوس بن ثابت مات وترك على بنات وانا امراة وليس عندى ما أنفق عليهن . فانزل الله هذه الآية « **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب** .. » .

(سورة النساء : ٧)

وطبيعى ان تكثر الآيات التى تتحدث عن شئون الأسرة فانها قوام المجتمع ومرتبطة بأحوال الناس فى غدوهم ورواحهم وصباحهم ومسائهم .

٣ ــ وما اكثر المشاكل التى تنشأ فى احوال الزواج والطلاق وما الى ذلك من الظهار والايلاء والخلع واللعان وغيرها .

وقد حفلت كتب التفسير ببيان هذه الأحكام وذكرت أسباب نزولها ، وهى بالطبع تناولت شخصا أو أشخاصا فيجب أن يعرفهم المفسر ليكشف الابهام فى الآية ويحيط بالواقع الذى نزلت فيه الآية أو الآيات ، وسيظل سياق الآيات مع هذا عاما يشمل الأحياء فى كل زمان ومكان ، فان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

لقد قال سبحانه وتعالى : « **وان امراة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير** » .

(سورة النساء : ١٢٨) .

---

(١) أسباب النزول للواحدى : ٨٢ ، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى : ٥٨ . وتفسير مقاتل بن سليمان : ٢١٦/١ .

فلابد للمفسر من معرفة سبب نزول هذه الآية توضيحا لمبهماتها حتى نعرف اسم المرأة واسم البعل .

قال المفسرون : نزلت فى رافع بن خديج الأنصارى وفى امرأته خويلة بنت محمد بن مسلمة الأنصارى ، وكان رافع قد كره منها أمرا اما كبرا او غيره فأراد طلاقها فقالت : لا تطلقنى وأقسم لى ما بدا لك ، فانزل الله : **« وان امرأة خافت من بعلها نشوذا .. »**

(سورة النساء : ١٢٨)

وغنى عن البيان أن هذا الحكم وان نزل بسبب رافع وخويلة هو حكم عام فى كل الأزواج الى يوم القيامة .

كذلك آيات الميراث ، فقد يحدث أن يموت بعض الأشخاص فتنزل الآية تجيب عن أسئلة ورثته حلا لمشكلتهم ، ولتكون دستورا لمن بعدهم مثل قوله تعالى : **« يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة »** .

(سورة النساء : ١٧٦) .

والكلالة : هو الميت الذى يموت وليس له ولد ولا والد .

وذلك أن جابر بن عبد الله الأنصارى مرض بالمدينة فعاده رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال يا رسول الله انى كلالة لا اب لى ولا ولد فكيف اصنع فى مالى ؟ . فانزل الله عز وجل قوله **« ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد .. »** .

٤ — وقد أنزل الله القرآن هدى ونورا لتصحيح الاعتقاد وتهذيب الأخلاق وتشريع الأحكام وتعليم المسلمين ، فمن آياته ما بين سماحة الاسلام ويسر تعاليمه وموافقته للفطرة السمحة كقوله سبحانه وتعالى : **« يايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم .. »** .

(سورة المائدة : ٨٧) .

وذلك أن بعض الصحابة اتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا ينامون على الفراش ولا ياكلون اللحم ويترهبون ويجبون المذاكير ، فانزل الله الآية السابقة ، تنهاهم عما عزموا عليه .

ومن آيات القرآن ما بين احكام العبادات كالصلاة والصيام والطهارة والتيمم مثال ذلك ما روى أن المسلمين كانوا فى سفر وليسوا على ماء وليس معهم ماء وتأخروا ليبحثوا عن قلادة السيدة عائشة فى غزاة بنى انمار وهم حى من قيس عيلان ، فانزل الله تعالى الآية من سورة المائدة وهى قوله تعالى : « **يايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وارجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** » .

٥ ـ وكثيرا ما تنزل آيات لتهذيب النفوس وتأديب المسلمين بادب الاسلام فتكون الحادثة سببا فى ابراز أخلاق الاسلام العالية ودعوة المسلمين اليها بلا محاباة ولا مجاملة فى الحق .

كان لأحد المسلمين شهادة على ابيه فنزل قوله تعالى :

« **يايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والأقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا** » .

(سورة النساء : ١٣٥)

ان الأخلاق السامية التى دعا اليها القرآن كانت نموذجا رائعا للخلق الكريم المتسامى على النفعية والأنانية .

هذا يهودى يسمى زيد بن السمين يستودع طعمة بن ابيرق الأنصارى من الأوس درعا من حديد ، ثم يطلب اليهودى درعه من طعمة فيجحده طعمة ، ويذهب قوم طعمة الى النبى صلى الله عليه وسلم فيبرئوا صاحبهم ويجادلوا عنه بالباطل ، وقد صدقهم النبى صلى الله عليه وسلم وهو يرى انهم صدقوا ، ولكن القرآن نزل يدافع عن اليهودى ويتهم الأنصارى رغم حرب اليهود للمسلمين وحملتهم المضللة على الاسلام وذلك فى قوله تعالى :

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون انفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا اثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا . ها انتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ام من يكون عليهم وكيلا . ومن يعمل سوءا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة او اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم وما يضرونك من شيء وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » .

(سورة النساء : ١٠٥ ــ ١١٣)

* * *

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

٦ ــ بدأ الاسلام دعوته الى الله بالاقناع والحجة ((**ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن**)) .

وكان القرآن ينزل فى العهد المكى يثبت المؤمنين ويوضح أهداف الدين ويشرح العقيدة ويبشر المؤمنين بالجنة ويحذر المشركين من النار ، فلما هاجر المسلمون الى المدينة واضطرت الدعوة الاسلامية الى الحرب تأمينا للدعاة وحماية للحق وتحطيما لطواغيت الكفر ، فان القرآن الكريم كان ينظم هذه الحروب ويدعو المسلمين الى اعداد العدة للقاء اعدائهم والى الجهاد فى سبيل الله نصرا لدينه وطلبا لمرضاته وابتغاء للثواب من عنده ؛ وفى أول معركة حاسمة بين المسلمين والكفار انتصر المسلمون وغنموا وبدا أن كل فئة ترى انها أحق بالغنائم من الاخرى . فينزل الوحى مجيبا على سؤالهم ومؤدبا لهم بقوله تعالى : ((**يسألونك عن الانفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين**)) .

(سورة الأنفال : ١)

وهذا الأدب القرآنى لا يخص قوما دون آخر بل ان القول بتعدية الآيات إلى غير اسبابها جعل جمهور الأصوليين يذهبون الى ان (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) .

فالنص القرآنى العام الذى نزل بسبب خاص معين ، يشمل بنفسه افراد السبب وغير افراد السبب ، لأن عموميات القرآن لا يعقل أن توجه الى شخص معين .

٧ ـ هذه مثلا حركة النفاق التى تفاقم امرها بالمدينة وكان لزاما ان يثير القرآن فى كثير من سوره وآياته حملة عنيفة عليها ، وعلى دسائس المنافقين واراجيفهم ، حتى نزلت فيهم سورة تحمل اسمهم الخاص وترسم لهم اخزى صورة ، ثم ترميهم بالبلادة والجمود ، حتى لتشبههم بالتماثيل الصامتة والخشب المسندة وتصفهم بالتوجس والجبن والفزع كلما هجس صوت او علت صيحة او تحرك شىء ، بالرغم من ظاهرهم الخداع واجسامهم الطوال العراض ، التى تسر الناظرين ، قال تعالى : « **واذا رايتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كانهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون** » .

(سورة المنافقون : ٤)

قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى بن سلول (١) وكان رجلا وسيما جسيما صبيحا ، زلق اللسان ، فاذا قال سمع النبى صلى الله عليه وسلم قوله : (فهل يعقل ان يكون المقصود بهذا الوصف نفرا من منافقى الأوس والخزرج كانوا فى عصر التنزيل ثم لم يلبثوا ان انقرضوا؟) (٢) .

واذا تناول القرآن أولئك النفر تناولا أوليا ووصف اخلاقهم وصفا مطابقا ، فهل من مانع عقلى يحجر هذه الآيات او نظائرها عن أن تكون عبرة عامة شاملة ، ونموذجا خالدا ، شاخصا لمن مضى ولمن يجىء من هذا الصنف الى يوم القيامة ، فى كل طائفة تدعى انها على دين ؟ (٣) .

٨ ـ ولعل أوضح وادل مثال على عموم الآيات النازلة فى المنافقين ما ورد من صفاتهم فى سورة التوبة . فقد وصفتهم السورة أبلغ وصف واظهرت خيانتهم ، وكشفت نفاقهم وكذبهم حتى يتقى المسلمون شرهم

---

(١) اسباب النزول للواحدى : ٢٤٤ ، ولباب النقول للسيوطى : ٢١٩ ، كما ورد ذلك فى صحيح البخارى .

(٢) قارن بتفسير المنار : ١/١٤٨ ـ ١٤٩ .

(٣) قارن بتفسير ابن كثير : ١/٤٧ .

وغدرهم ، وحتى يظلوا عبرة للأجيال القادمة فى كل زمان ومكان ، فنحذرهم اينما وجدوا ونتقى شرهم أينما حلوا .

وهناك هدف آخر من وصف المنافقين وهو تحذير الناس ان يأمنوا جانبهم ، أو يركنوا اليهم ، أو ينخرطوا فى جماعتهم بسبب الغرور او الغفلة .

فمن كذبهم وسوء قصدهم اتخاذ المساجد مكانا للخيانة والغدر ومكر السوء بالمسلمين وقد عناهم الله بقوله : ((**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون**)) .

(سورة التوبة : ١٠٧)

ومن أسلحة المنافقين السخرية والاستهزاء وتوهين العزائم وعيب المجاهدين كما وصفهم الله تعالى بقوله : ((**الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم**)) .

(سورة التوبة : ٧٩)

وقد حاول المنافقون قتل النبى وبيتوا أمرهم على الكيد للاسلام والمسلمين فلما كشف الله امرهم واخبر نبيه بمكرهم أقسموا بالله كذبا كعادتهم قال الله تعالى : ((**يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير**)) .

(سورة التوبة : ٧٤) .

التعبير عن سبب النزول :

تختلف عبارات الرواة فى التعبير عن سبب النزول . فتارة يصرح فيها بلفظ السبب فيقال : « سبب نزول الآية كذا » . وهذه العبارة نص فى السببية لا تحتمل غيرها .

وتارة لا يصرح بلفظ السبب ، ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة ، أو ذكر سؤال طرح على رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل (حدث كذا فنزلت آية كذا — أو سئل عليه السلام عن كذا فنزلت آية كذا) .

وهذا نص واضح فى السببية ايضا . كرواية عبد الله بن مسعود عندما سئل النبى عن الروح فانزل الله تعالى : ((**ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربى ..**)) .

(سورة الاسراء : ٨٥)

ومرة أخرى لا يصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء ولا بذلك الجواب المبنى على السؤال ، بل يقال : نزلت هذه الآية فى كذا (مثلا) وهذه العبارة ليست نصا فى السببية بل تحتملها ، وتحتمل أمرا آخر هو بيان ما تضمنته الآية من الاحكام ، والقرائن وحدها هى التى تعين احد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

قال ابن تيمية (١) قولهم : « نزلت هذه الآية فى كذا » يراد به تارة سبب النزول ، ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية وان لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا .

وقال الزركشى فى « البرهان » قد عرف عن عادة الصحابة والتابعين ان احدهم اذا قال : « نزلت هذه الآية فى كذا » فانه يريد بذلك ان هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا ان هذا كان السبب فى نزولها .

« وكثيرا ما نجد المفسرين وغيرهم يقولون نزلت الآية فى كذا وكذا ، وهم يريدون أن من الأحوال التى تشير اليها تلك الحالة الخاصة ، فكأنهم يريدون التمثيل » (٢) .

واذا وردت عبارتان فى موضوع واحد : أحداهما نص فى السببية لنزول آية أو آيات ، والثانية ليست نصا فى السببية لنزول تلك الآية

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية : ١٣ .

(٢) تفسير القرآن الكريم ، محمد الطاهر بن عاشور : ٤٣ .

او الآيات . هنالك ناخذ فى السببية بما هو نص وتحمل الاخرى على انها بيان لمدلول الآية ، لأن النص اقوى فى الدلالة من المحتمل .

مثال ذلك ما اخرجه مسلم عن جابر قال : كانت اليهود تقول : من اتى امراة من دبرها (فى قبلها) جاء الولد احول ، فانزل الله : ((**نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين**)) .

(سورة البقرة : ٢٢٣)

وما اخرجه البخارى عن ابن عمر قال : انزلت ((**نساؤكم حرث لكم**)) فى اتيان النساء فى أدبارهن . فالمعول عليه فى بيان السبب هى رواية جابر الأولى لأنها صريحة فى الدلالة على السبب ، وأما رواية ابن عمر فتحمل على انها بيان لحكم اتيان النساء فى ادبارهن وهو التحريم استنباطا منه .

كما أن الرواية الأولى اتفق عليها البخارى ومسلم وابو داود والترمذى واحمد والحاكم . والثانية انفرد بها البخارى والطبرانى فى الأوسط (١) .

وقد ذكر علماء الحديث ان أعلى درجات الحديث ما اتفق عليه البخارى ومسلم ثم ما انفرد به البخارى ، ثم ما انفرد به مسلم . فالأولى أولى لاتفاق البخارى ومسلم على روايتها ، بينما الثانية تفرد بها البخارى .

جهل اسباب النزول :

ان جهل الناس بأسباب النزول كثيرا ما يوقعهم فى اللبس والايهام فيفهمون الآيات على غير وجهها ، ولا يصيبون الحكمة الالهية من تنزيلها كما حدث لمروان بن الحكم حين توهم أن قوله تعالى : ((**لا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب**)) (آل عمران : ١٨٨) ينطبق عليه ، فقال لبوابه : اذهب يا رافع الى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرىء فرح بما أوتى ، واحب ان يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن اجمعين ، فقال ابن عباس وما لكم

---

(١) لباب النقول للسيوطى : ٣٦ .

ولهذا انما دعا النبى صلى الله عليه وسلم اليهود فسألهم عن شيء فكتموه اياه ، واخبروه بغيره فاروه قد استحمدوا اليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما اوتوا من كتمانهم . ثم قرأ ابن عباس : « **واذ أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . لا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم** » .

فلم يزل الاشكال الا بمعرفة سبب النزول .

ولولا بيان أسباب النزول لاباح الناس لأنفسهم التوجه فى الصلاة الى الناحية التى يرغبون فيها عملا بالمتبادر من قوله تعالى : « **ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم** » .
(سورة البقرة : ١١٥)

فاذا قرانا سبب نزولها وجدنا انها نزلت فى اناس من المؤمنين كانوا فى سفر فحضرت الصلاة فى يوم غيم فتحيروا ، فمنهم من صلى قبل المشرق ، ومنهم من صلى قبل المغرب ، وذلك قبل ان تحول القبلة الى الكعبة ، فلما طلعت الشمس عرفوا أنهم قد صلوا لغير القبلة ، فقدموا المدينة فاخبروا النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأنزل الله عز وجل : « **ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم** » .

ولولا معرفة سبب النزول لما فهمنا فرضية السعى بين الصفا والمروة من قوله تعالى : « **ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما** » (سورة البقرة : ١٥٨) وذلك أن الآية نفت الجناح ، ونفى الجناح لا يتفق مع الفريضة .

وقد روى أن عروة بن الزبير سأل خالته عائشة ام المؤمنين رضى الله عنها فافهمته أن نفى الجناح هنا ليس نفيا للفريضة ، انما هو نفى لما وقر فى اذهان المسلمين يومئذ من أن السعي بين الصفا والمروة من عمل الجاهلية ، نظرا الى أن الصفا كان عليه صنم يقال له : (اساف) وكان

على المروة صنم يقال له : (نائلة) ، وكان المشركون اذا سعوا بينهما تمسحوا بهما فلما ظهر الاسلام ، وكسر الاصنام تحرج المسلمون ان يطوفوا بينهما ، لذلك نزلت الآية : « **ان الصفا والمروة من شعائر الله ..** » الخ .

وهناك الكثير من الحكم والفوائد التى تعود علينا من معرفة اسباب النزول منها معرفه من برلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البرىء ويبرأ المريب (مثلا) ومنها تيسير الحفظ وتسهيل الفهم وتثبيت الوحى فى ذهن كل من يسمع الآية اذا عرف سببها فتصبح الآيات قصة حياة ، ويتحول الوحى الى قرآن متحرك ينبض بالحياة والاسوة الحسنة . قال تعالى : « **وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا** » . (سورة الشورى : ٥٢) .

* * *

آيات القرآن وأسباب النزول

نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاث وعشرين سنة يرد على اسئلة السائلين ويجيب استفتاء المستفتين ، وكانت حكمة الله من ذلك ان ييسر حفظه لأن الآية اذا نزلت بعد حادثة معينة كان ذلك أدعى الى حفظها ، وتثبيت مفهومها وهذا ما يعرف عند العلماء بأسباب النزول ، وهى الدواعى والملابسات التى حدثت فى المجتمع الاسلامى فتسببت فى نزول الآية .

على أنه ليس لكل آية من القرآن سبب خاص من أسباب النزول ، فان من آيات القرآن ما نزل ابتداء بشرح الدعوة ، ويدعو الى ايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وهذا النوع من الآيات ليس له سبب نزول سوى الأسباب العامة التى تنزلت من أجلها الشرائع وهى هداية البشر وتنظيم حياتهم وارشادهم الى ما فيه خيرهم ، وأغلب هذا القسم يشتمل على آيات العقائد والوقائع الماضية وقصص الأنبياء ومشاهد القيامة .

ومن آيات القرآن آيات تنزلت بأسباب دعت اليها شأن كثير من آيات أحكام العبادات ، والمعاملات والحلال والحرام والغزو والجهاد والأحوال الشخصية والحقوق المدنية والمعاهدات الدولية ، فان الغالب على أمثال هذه الآيات أن تكون لها أسباب دعت الى نزولها ومعرفتها بهذه الأسباب تعين كثيرا على فهم الآيات التى نزلت فيها ، وقد لقى هذا القسم عناية سلف الأمة وخلفها ، وأفرده جماعة بالتأليف منهم على بن المدينى شيخ البخارى ومنهم الواحدى والجعبرى وابن حجر والسيوطى .

واشهر كتب اسباب النزول واسيرها الآن هما :

أسباب النزول للواحدى المتوفى سنة ٤٦٨هـ .

ولباب النقول فى اسباب النزول للسيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ .

وهما مطبوعان ومتداولان فى ايدى الناس .

← اهمية معرفة اسباب النزول :

معرفة اسباب النزول تساعد على حفظ القرآن وتيسير فهمه وتثبيت الوحى فى ذهن كل من يسمع الآية اذا عرف سببهـا ، وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة — كل اولئك من دواعى تقرير الأشياء ورسوخها فى الذهن ، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها فى الفكر ، بسبب تداعى المعانى كما ذكر فى علم النفس .

وقد زعم بعض الناس انه لا فائدة للالمام باسباب النزول ، فانها لا تعدو أن تكون تاريخا او جارية مجرى التاريخ (١) .

واستهان الشيخ محمد عبده باسباب النزول (٢) ولم يعول عليهـا كثيرا بسبب اشتمالها على الصحيح والعليل واختراع بعض الناس اسبابا لنزول الآيات ، والحق انه لا طريق لمعرفة اسباب النزول الا النقل عن الصحابة الذين عاصروا الوحى والنزول ، ووقفوا على الأحوال والملابسات التى احاطت بنزول الآيات ، وسمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يسمعه غيرهم ، فعنهم وحدهم يؤخذ هذا العلم والى هـذا اشـار الواحدى بقوله : « ولا يحل القول فى اسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسـباب وبحثـوا عن علمهـا » (٣) .



(١) نقل ذلك السيوطى فى الاتقان ثم تعقيبه بانه خطأ ،الاتقان : ١/٣٠.

(٢) تفسير المنار : ٢/٥٧ — ٥٨ ، ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣) اسباب النزول للواحدى : ٤ .

أن أسباب النزول آثار واردة واحاديث مأثورة ينطبق عليها ما ذكره علماء الحديث ونقدته ، فلا تقبل جملة ولا ترفض جملة فما كان صحيحا قبلناه ، وما كان مكذوبا رفضناه .

ويقول الواحدى : (لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها) .

« وان التعبير عن سبب النزول بالقصة ليوحى بالحكمة البالغة فى معرفة الأسباب التى دعت الى تنزيل الوحى ، ويجعل آيات القرآن تتلى فى كل زمان ومكان بشغف وولع ، وتطرد السآمة عن جميع القارئين بما توالى عرضه من حكايات أمثالهم واقاصيص اسلافهم ، كأنها حكاياتهم هم اذ يرتلون آيات الله أو اقاصيصهم هم ساعة يطربون لوحى السماء » (١) .

* * *

تعدد الأسباب والمنزل واحد :

قد ترد روايات متعددة فى أسباب نزول الآية ، وتذكر كل رواية سببا صريحا غير ما تذكره الأخرى .

وللمحققين مقاييس دقيقة فى تعدد أسباب النزول تتلخص فيما يأتى :

١ ـ اذا كانت احدى الروايتين صحيحة ، والأخرى غير صحيحة اعتمدنا على الصحيحة وردت غير الصحيحة .

٢ ـ اذا كانت كلتاهما صحيحة ولاحداهما مرجح اعتمدنا فى بيان السبب على الراجح دون المرجوحة .

٣ ـ اذا استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح لأحدهما على الأخرى ، وأمكن الأخذ بهما معا ـ لتقارب زمنيهما ـ أخذنا بهما معا وحكمنا بنزول الآية عقب حصول السببين كليهما .

٤ ـ اذا استوت الروايتان فى الصحة ولا مرجح ، ولا يمكن الأخذ بهما معا حكمنا بنزول الآية عقب كل سبب منهما . أى بتكرار نزولها .

---

(١) صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن : ١٣ .

امثلة :

١ ــ ورد فى الصحيح أن سبب نزول سورة الضحى هو تأخر الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال كفار مكة : ودعه ربه وقلاه . فانزل عز وجل قوله : « **والضحى . والليل اذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى** » . كما ورد ان سبب نزولها أن الوحى قد أبطأ على النبى صلى الله عليه وسلم لأن جروا دخل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السرير فمات فمكث النبى صلى الله عليه وسلم اربعة أيام لا ينزل عليه الوحى .

والرواية الأولى ناخذ بها لصحتها دون الثانية لأن فى اسنادها من لا يعرف . قال ابن حجر : (قصة ابطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفى اسناده من لا يعرف فالمعتمد ما فى الصحيح) .

٢ ــ وقد ورد فى سبب نزول قوله تعالى : « **ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربى** » . ان هذا السؤال توجه من اليهودى للنبى بالمدينة . وهذا فى رواية البخارى . وورد أن هذا السؤال كان من أهل مكة ، وهذا فى رواية الترمذى . ونحن ناخذ برواية البخارى لأنها اولى من رواية الترمذى .

٣ ــ وقد ورد فى سبب نزول قوله تعالى :

« **والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ...** » الآيات

(سورة النور : ٦)

ان سبب نزول الآيات هو أن هلال بن امية قذف امراته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء .

ثم تساءل صحابى يسمى غويمرا عن نفس الحكم فنزلت الآيات جوابا على سؤال الاثنين . فيحمل ذلك على نزول الآية عقب سؤالهما قال النووى : (لعلهما اتفق لهما ذلك فى وقت واحد) .

٤ ـ اخرج البيهقى والبزار أن قوله تعالى : « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** » الى آخر سورة النحل وهن ثلاث آيات . نزلت حين استشهد حمزة بالمدينة . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لامثلهن بسبعين منهم مكانك .

واخرج الترمذى والحاكم انه لما كان فتح مكة انزل الله قوله : « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** » .

فيحمل ذلك على تعدد نزول الآيات . اى انها نزلت مرة فى غزوة احد . ومرة عند فتح مكة .

قال الزركشى فى البرهان : « قد ينزل الشىء مرتين تعظيما لشانه ، وتذكيرا عند حدوث سبب خوف نسيانه ، كما قيل فى الفاتحة نزلت مرتين : مرة بمكة ، ومرة بالمدينة » (١) .

تعدد النازل والسبب واحد :

قد تكون حادثة واحدة سببا فى نازلين او اكثر من القرآن ، مثال ذلك ما اخرجه الحاكم والترمذى عن أم سلمة انها قالت : يا رسول الله لا اسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء فانزل الله تعالى : « **فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب** » .

(سورة آل عمران : ١٩٥)

واخرج الحاكم ايضا عن ام سلمة انها قالت : قلت يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فانزل الله تعالى :

« **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض** » .

(سورة النساء : ٣٢)

---

(١) البرهان : ١/٢٩ (فصل فيما نزل مكررا) .

وانزل : « ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما » .

(سورة الأحزاب : ٣٥)

فظهر ان سؤال ام سلمة عن النساء كان سببا فى نزول ثلاث آيات :

١ ـ « ان المسلمين والمسلمات .. » (سورة الأحزاب : ٣٥) .

٢ ـ « فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى » (سورة آل عمران : ١٩٥) .

٣ ـ « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض .. » سورة النساء : ٣٢) .

وهذا ما يعبرون عنه بقولهم : « تعدد النازل والسبب واحد » .

تلك انماط من مقاييس المفسرين المحققين فى ترجيح الروايات المنبئة عن اسباب النزول ، وقد تفردت هذه المقاييس كما راينا بدقة المصطلح وحصافة النقد ، ولطف التذوق وبراعة التخريج وبذلك كله تيسر لهؤلاء الائمة الثقات ، ان يضعوا ايديهم على مفاتيح اسباب النزول بنجوة من غلو الغلاة وعجلة المتسرعين .

وحظى كتاب الله بامثال هذه الدراسة الجادة التى يسرت للقرآن حفظه وكانت له سياجا مانعا ودليلا كاشفا لاياته البينات . قال الله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

(سورة القمر : ١٧)

* * *

الفصل الثالث
إعجاز القرآن

١ ـ معجزة الرسول الخالدة .

٢ ـ وجـوه الاعجـاز .

٣ ـ التحـدى .

٤ ـ بلاغة القرآن .

٥ ـ العلم فى القرآن .

٦ ـ القرآن والعلم الحديث .

٧ ـ عناصر الجمال الفنى فى القرآن .

٨ ـ تصوير الحالات النفسية والمعنوية .

٩ ـ طريقة القرآن .

معجزة الرسول الخالدة

أرسل الله الرسل وانزل عليهم الكتب وايدهم بالمعجزات ، والمعجزة امر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة تصديقا له فى دعواه ، فهى بمثابة قول الله : صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى .

وقد أيد الله رسله السابقين بمعجزات مادية ظاهرة ، تناسب البشرية فى أطوارها الأولى ، جعل الله النار بردا وسلاما على ابراهيم ، وأيد صالحا بالناقة تسقى قومه جميعا من البانها ، واعطى موسى العصا وفلق له البحر ، واعطى عيسى ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى باذن الله .

وكان العرب يتطلعون الى ان ينزل على محمد عليه السلام معجزات مادية كما حدث للأنبياء السابقين : « **واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون** » .

(سورة الأنعام : ١٠٩)

ان الله اعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أعلم بما يناسب كل نبى من المعجزات ، كان قوم موسى قد برعوا فى السحر وبلغوا فيه مبلغ السبق والاجادة فاعطاه الله اليد تخرج بيضاء من غير سوء ، والعصا تبتلع جميع اعمال السحرة .

اذا جاء موسى والقى العصا

فقد بطل السحر والساحر

وكان قوم عيسى قد برعوا فى الطب ونبغوا فيه فاعطاه الله معجزات خارقة للعادة من جنس ما نبغ فيه قومه .

وكان العرب افصح الناس لسانا ، وابلغهم بيـانا ولهم اسـواق يتقارضون فيها الشعر ، واذا استجادوا قصيدة علقوها فى جوف الكعبة ، فسميت تلك القصائد بالمعلقات فخص الله رسوله بالقرآن الكريم معجزة الدهر وآية الفصاحة والبيان ، واستمع العرب للقرآن فاخذ بالبابهم ، واستولى على اعجابهم ، ثم قاوموا هذا النفوذ وتواصـوا بالا يستمعوا للقرآن حقدا وحسـدا « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** » .

(سورة فصلت : ٢٦)

لقد قاوموا الرسالة والرسول « **وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلمـا وعلوا** » .

(سورة النمل : ١٤)

ولكن القرآن كان ياخذ سبيله الى القلوب ، ويستولى على النفوس فيفك أغلالها ، ويهدهد كبرياءها ويستل اضغانها فلا تلبث ان تنشرح له الصدور وان ترق له القلوب وان تقشعر منه الجلود ، « وكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتـاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات القرآن فلم يلبثوا حين وقعت فى مسـامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وان يركنوا الى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم ايمانا » .

خرج عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله ، فسار الى دار اخته وهى تقرأ سورة طه ، فلما وقع فى سمعه القرآن لم يلبث ان آمن ، ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فى الموسم على النفر الذين حضروه من الانصار آمنوا به وعادوا الى المدينة فاظهروا الدين بها ، فلم يبق ببيت من بيوت الأنصار الا وفيه قرآن ، وقد روى عن بعضهم انه قال : فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن .

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت : « **انا سمعنا قرآنا عجبـا يهدى الى الرشد فآمنـا به** » .

(سورة الجن : ١ ــ ٢)

لقد شاء الله أن يكون القرآن معجزة خالدة أبد الدهر ، فجعلها معجزة عقلية تخاطب الناس جميعا فى كل زمان ومكان يؤيد ذلك قوله تعالى : «واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا» .

(سورة الأنفال : ٢)

وقوله سبحانه : « واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »

(سورة المائدة : ٨٣)

اقوال العرب فى القرآن :

تحدى القرآن العرب فوقفوا حيارى امام بيانه وتصريفه القول ووجدوا نمطا فريدا لم يألفوه . فهو ليس بالشعر وليس بالكهانة ، ولا يستطيع ان يقوله بشر ، فشهدوا بعظمته ونطقوا باعجازه ، « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

روى محمد بن كعب القرظى قال : حدثت ان عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا حليما ـ قال يوما : الا اقوم الى محمد فاكلمه فاعرض عليه امورا لعله ان يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء ؟ ـ وذلك حين اسلم حمزة رضى الله عنه ، وراوا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يكثرون .

قالوا : بلى يا أبا الوليد . فقام اليه ـ وهو صلى الله عليه وسلم جالس وحده فى المسجد ـ فقال : يابن اخى .. انك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب وانك اتيت قومك بامر عظيم ، فرقت بين جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل . قال : ان كنت انما تريد المال بما جئت به من هذا القول جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد شرفا سودناك حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى بك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أو لعل هذا شعور جاش به صدرك ، فانكم لعمرى بنى عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا نقدر عليه ، حتى اذا فرغ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو قد فرغت ؟

قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : افعل . قال : « **بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون** » (سورة فصلت : ١ ـ ٤) ، ثم مضى فيها يقرؤها ، فلما سمعها عتبة انصت له ، والقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها ، يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة منها فسجد ثم قال له : **قد سمعت ما سمعت فانت وذاك** . فقام عتبة الى اصحابه ، فقال بعضهم : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس قالوا : ما وراءك ، قال ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط ، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش اطيعونى ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعته نبأ ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وان يظهر على العرب فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك بلسانه . قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم .

لقد نزل القرآن شفاء للصدور ورحمة للعالمين ، ودليلا للهداية وحصنا للدعوة ومعجزة خالدة ابدية : « **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** » .

(سورة الاسراء : ٨٢)

القرآن معجزة التاريخ :

القرآن اكبر معجزة عرفها التاريخ ، فقد الف العرب على تعاديهم ، وزحف بهم على قلتهم وضعف وسائلهم حتى اكتسحوا دولتى الفرس والروم ، وهما يومئذ الدنيا القديمة ، وهما العينان فى رأس التاريخ .

واذا نظرنا الى معجزات الأنبياء والمرسلين رأينا القرآن الكريم اعظم المعجزات وأوضحها دلالة ، لأن الخوارق فى الغالب مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، وتأتى المعجزة شاهدة فقط ، أما القرآن فهو نفسه الوحى المدعى وهو الخارق المعجز فدلالته فى عينه ، ولا يفتقر الى دليل اجنبى عنه ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « **ما من نبى الا واوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى اوتيته وحيا اوحى الى فانا ارجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة** » . رواه البخارى .

لقد يئس العرب من معارضة القرآن تيقنا أنه لا قبل لهم بها واستبصارا فى حقيقة هذا الكلام وانه مما لا يستشرى الطمع فيه وانه وحى

يوحى ، وهو عينه أيضا بعض ما اجتذبهم اليه وعطفهم عليه حتى كان بلغاؤهم يستمعونه وتصغى اليه أفئدتهم ثم يتلاومون على ذلك .

روى أن ثلاثة من بلغاء قريش ــ الذين لا يعدل بهم فى البلاغة أحد ــ وهم الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس ، وابو جهل بن هشام ، اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى به فى بيته ، الى ان اصبحوا ، فلما انصرفوا ، جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا انه اذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا الى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به ، فلما كان فى الليلة الثانية عادوا واخذ كل منهم موضعه ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا ألا يعودوا ، فلما تعالى النهار جاء الوليد بن المغيرة الى الأخنس بن قيس فقال : ما تقول فيما سمعت من محمد ؟ فقال الأخنس : ماذا أقول ؟ قال بنو عبد المطلب فينا الحجابة قلنا نعم ، يقولون فينا نبى ينزل عليه الوحى والله لا آمنت به أبدا .

فما صدهم عن الايمان الا عصبية الجاهلية ، أنفة من استماع الحق والخضوع له ، وقد حكى القرآن كلامهم فقال : « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** » .

(سورة فصلت : ٢٦)

لكنهم لم يغلبوا القرآن ، فهو نور الله وكلامه المبين « **والله غالب على امره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** » .

(سورة يوسف : ٢١)

* * *

وجوه الإعجاز

تنوعت وجوه الاعجاز فى القرآن الكريم ، فهو معجز كله من ناحية مبناه ومعناه ، ومن الأسرار الدقيقة فى القرآن تأثيره فى القلوب وسلطانه على النفوس وسحره للعقول لما له من طلاوة وحلاوة تخلص الى الألباب فى روعة ومهابة ، قال تعالى : **« الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم »** .

(سورة الزمر : ٢٣)

وانما صار القرآن معجزا لأنه جاء بأفصح الالفاظ فى أحسن نظام وتأليف ، متضمنا أصح المعانى من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ودعاء الى طاعته ، وبيان لطريق عبادته ، من تحليل وتحريم وحظر واباحة ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر وارشاد الى محاسن الاخلاق وزجر عن مساوئها ، متضمنا أخبار القرون الماضية منبئا عن العصور الآتية جامعا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه . ومعلوم ان الاتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق مما يعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قدرتهم . فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله ، ثم صار المعاندون له يقولون مرة انه شعر لما رأوه منظوما ، ومرة أنه سحر لما رأوا أثره فى القلوب ، ولم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعا من الاعتراف ، ولذلك قالوا ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة .

ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام انه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار ، ولا تمل منه الاعادة ، وكلما نظرت فيه رأيته غضا طريا وجديدا مونقا . وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا ، وهذا لعمر الله امر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر بما يرى من اعجاز النظم وبلاغة النغم بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة ونحوها ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا وايجازا وابتداء وردا وافرادا وتكرارا .

ومن خصائص القرآن انه جمع بين صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالبا فى كلام البشر .

حقا ان القرآن آية الله الباقية وحجته البالغة وهو النور الساطع والتراث الخالد : **((انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون))** .

(سورة الحجر : ٩)

آراؤهم فى الاعجاز :

تنوعت آراء العلماء حول بيان اعجاز القرآن فارجعوا اعجازه الى نواح متعددة فى معناه ومبناه .

قال الفخر الرازى : وجه الاعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب .

وقال ابن عطية : الصحيح والذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه اعجازه انه بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة الفاظه وذلك ان الله احاط بكل شىء علما واحاط بالكلام كله فاذا أنزل لفظا من القرآن علم باحاطته اى لفظة تصلح ان تلى الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن الى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك ، فلهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة وبهذا يبطل قول من قال ان العرب كان فى قدرتهم الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك ، والصحيح انه لم يكن فى قدرة أحد قط ، لهذا ترى البليغ ينقح القصيدة او الخطبة حولا ثم ينظر فيها فيغير فيها وهلم جرا . . وكتاب الله لو نزع منه لفظه ثم ادير لسان العرب على لفظة احسن منها لم يوجد ، ونحن نتبين البراعة فى اكثره ويخفى علينا وجهها فى مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق وجودة القريحة . وقد قامت الحجة على العالم بالعرب ، اذ كانوا ارباب الفصاحة ومظنة المعارضة .

وقال بعضهم : وجه الاعجاز فى القرآن استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع انحائها استمرارا لا يوجد له فترة ولا يقدر عليه احد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة فيه الا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الانسانية فينقطع طيب الكلام ورونقه فلا تستمر لذلك الفصاحة فى جميعه بل توجد فى تفاريق واجزاء منه .

تناول الرافعى اعجاز القرآن فى أقصر سورة منه فقال : ((**ان لهذه القصار لامرا وان لها فى القرآن لحكمة هى من اعجب ما ينتهى اليه التامل حتى لا يقع من النفس الا موقع الأدلة الالهية المعجزة**)) .

فقد علم الله أن كتابه سيثبت الدهر كله على هذا الترتيب المتداول فيسره للحفظ باسباب كثيرة اظهرها فى المنفعة ، واولها فى المنزلة هذه السور القصار التى تخرج من الكلمات المعدودة الى الآيات القليلة ، وهى مع ذلك أكثر ما تجىء آياتها على فاصلة واحدة ، أو فواصل قليلة ، مع قصر ما بين الفاصلة والفاصلة ، فكل آية فى وضعها كأنها سورة من كلمات قليلة ، لا يضيق بها نفس الطفل الصغير وهى تتماسك فى ذاكرته بهذه الفواصل التى تأتى على حرف واحد أو حرفين أو حروف قليلة متقاربة فلا يستظهر الطفل بعض هذه السور حتى يلتئم نظم القرآن على لسانه ويثبت أثره فى نفسه فلا يكون بعد الا أن يمر فيه مرا وهو كلما تقدم وجده أسهل ووجد له خصائص تعينه على الحفظ وعلى اثبات ما يحفظ ، فهذا من معانى قوله تعالى : ((**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**)) (سورة الاسراء : ٨٢) ، وهى لعمر الله رحمة واى رحمة .

واذا علمنا أن ترتيب القرآن توقيفى ادركنا فضل الله فى تيسير حفظ كتابه على الناس حيث جعل هذه السور آخر القرآن كتابة وهى اول ما يحفظ الصبى من القرآن ، وكلما تمرن على الحفظ اتسعت السور واتسع معها ذهن الصبى واستعداده .

واذا اردت أن تبلغ عجبا من ذلك فتأمل آخر سورة من القرآن ، وهى اول ما يحفظه الأطفال ، تلك سورة ((**قل اعوذ برب الناس**)) ، وانظر كيف جاءت فى نظمها ، وكيف تكررت الفاصلة ، وهى لفظ ((الناس)) ، وفيها السين اشد الحروف صفيرا واطربها موقعا من سمع الطفل الصغير وابعثها لنشاطه واجتماعه ، وكيف تناسب مقاطع السور عند النطق بها تردد النفس فى أصغر طفل يقوى على الكلام حتى كأنها تجرى معه وكأنها فصلت على مقداره ، وكيف تطابق هذا الأمر كله من جميع جهاته فى احرفها ونظمها ومعانيها (١) .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى .

ويضاف الى ذلك حكمة اخرى وهى تيسير أداء الصلاة على العامة ، فانهم لولا هذه السور لتركوا الصلاة جميعا اذ لا تصح الصلاة الا بآيات مع الفاتحة وقد اغنتهم القصار ويسرت عليهم فكانت على قلتها معجزة اجتماعية كبرى .

وحـدة النظم :

من اعجاز القرآن ، اتساق عبارته واحكام نظمه واتحاد طريقتـه فى الابداع والقوة كانما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائهـا تفـاوت او تبـاين .

« ومرد ذلك الى روح التركيب التى تنعطف عليها جوانب الـكلام الالهى ، وتلمح جمال هذا التركيب فى نظم الكلمة وتأليفها ثم فى تأليف هذا النظم ، فمن هنا تعلق بعضه على بعض وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفة اعجازه فى التركيب وان كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها منْ اغراض الكلام ومناحى العبارة على جملة ما حصل به جهات الخطاب ، كالقصص والحكم والتعليم وضرب الأمثال الى نحو مما يدور عليه » (١) .

فانت مادمت فى القرآن حتى تفرغ منه لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وان اختلفت اجزاؤه فى جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير واغراض الكلام كانها تفضى اليك بجملة واحدة .

وقد ذهب العلماء الى ان الفاظ القرآن متميزة من جنسها بحيث اذا وجدت تركيبا قرآنيا فى نسق الكلام دل على نفسه ، وارشدت محاسنه اليه لما له من صفة الهية : « **انه لقول فصل وما هو بالهزل** » .
(سورة الطارق : ١٣ ـ ١٤)

وحـدة الفكرة :

ومن وجوه الاعجاز فى القرآن أن معانيه تجرى فى مناسبة الوضع، واحكام النظم مجرى الفاظه ، ولا يعدم المفكر وجها صحيحا من القول فى ربط كلّ كلمة باختها وكلّ آية بضريبتها وكل سورة بما اليها وهو علم عجيب اكثر منـه الإمـام فخر الدين الرازى فى تفسيره ، وقد قال ان اكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعى .

ويقال ان اول من اظهر هذا العلم الشيخ ابو بكر النيسابورى ، وكان غزير المادة فى الشريعة والأدب ، فكان يقول فى تفسيره لم جعلت هذه الآية الى جنب هذه ؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة الى جنب هذه السورة ؟ ثم كان يزرى على علماء بغداد لأنهم لا يعلمون هذه المناسبات .

وللامام برهان الدين بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ تفسير مخطوط بدار الكتب المصرية ، اسمه : « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » . وهو تفسير جليل جمع فيه من اسرار القرآن ما تتحير فيه العقول ، واهتم ببيان ارتباط الجمل بعضها ببعض وتناسق الآيات واتساق المعنى وترابطه .

ومن اظهر من كتب فى هذا المعنى من المفسرين فى العصر الحديث الامام الشيخ محمد عبده ، فقد عنى ببيان الوحدة الفكرية للسورة وبيان التناسب بين آياتها وتعلق نظم القرآن بعضه ببعض ، ورأى ان فكرة السورة يجب أن تكون أساسا فى فهم الآيات التى نزلت فيها ، ورفض كل تفسير لا يحقق وحدة الهدف والتناسق بين اجزاء السورة وتأثر بالامام جيل من أساتذة التفسير فى هذا العصر .

ومن هذا الجيل أستاذى المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، فقد كان يفتح عيوننا أثناء الدراسة على الوحدة المعنوية للسورة ، ويفرض موضوعاتها فى سلك واحد كأنها حبات عقد مكتمل ، احكمته يد السميع العليم القائل فى كتابه الكريم : **« كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »** .

(سورة هود : ١) .

ومع أن السورة من القرآن كانت تنزل منجمة مقسطة وفى اوضاع تأليفية عجلى ومشتتة ، وبين اجزائها عناصر معنوية مختلفة ، « ومع هذا سبكتها واحكمت صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها ان تنال شيئا من استقامة النظم فى السورة المؤلفة على هذا النهج ؟ » .

« اما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو انهم وجدوا فى نظم سورة منه مطمعا لطامع ، بله مغمزا لغامز لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم » .

وأما البلغاء من بعدهم فما زلنا نسمعهم يضربون الأمثال فى جودة السبك واحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن الى فن .

واخيرا نرى ان هذه النظرة الى القرآن تجعل السورة وحدة كاملة او كائنا حيا يمد الحياة بالنور والهدى .

واذا نظرنا الى أطول سورة فى القرآن وهى سورة البقرة وجدنا انها تشتمل على موضوعين رئيسيين :

الموضوع الأول : توجيه الدعوة الى بنى اسرائيل وتذكير الله لهم بنعمته ، واغراقه فرعون ، وتذكيرهم بالوان العناد التى عملوها مثل اعتدائهم فى السبت وموقفهم من موسى فى ذبح البقرة وتحريفهم آيات الله وزعمهم ان الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس .

الموضوع الثانى : يبدأ من قوله تعالى : **« ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب .. »** .

(سورة البقرة : ١٧٧)

ويتحدث عن التشريع الاسلامى الذى ينظم حياة المسلمين فى المدينة مثل نظام الأسرة والصيام والحج والقصاص والقتال والعناية باليتامى والتحذير من الربا وكتابة الدين .

وللسورة بداية تمهد لفكرتها وختام يؤكد الفكرة بطريقة مؤثرة تأخذ بالألباب وآخر سورة البقرة بيان موجز للدعوة المحمدية فى قوله تعالى : **« آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير »** .

(سورة البقرة : ٢٨٥)

* * *

التحدى

نزل القرآن فى بضع وعشرين سنة ، وتالف من سبع وسبعين الف كلمة ونيف ، واكتمل القرآن فى هذه المدة على طريقة معجزة ، يستوى أولها نزولا وآخرها ، فى الاطراد والنظم والبلاغة والغرابة ، بحيث لا يستطيع انسان ان يعين فيما بين دفتيه موضع تنقيح ، أو يومىء الى جهة مسها تهذيب ، أو يستخرج ما يدل على ضعف فى نسقه واطراده ، او لفظه ومعناه ، ولم يعهد فى تاريخ الأرض كله أن كلام انسان من الناس يستمر على مثل هذه الطريقة بضعة وعشرين عاما ، ولا يكون اول ذلك الا بعد أن يبلغ الأربعين ، ثم لا ينتقض ولا يضعف ، ولا تختلف طبقاته ولا يتفاوت أمره فى كل هذه المدة . مع اختلاف احوال النفس وامور الزمن ، ومع احصاء كلامه وجمعه لفظة لفظة ، والذهاب به حفظا وتلاوة ، حتى لا يجد السبيل الى تغيير كلمة واحدة بعد أن تفصل عنه .

ومن أسرار الاعجاز فى هذا الكتاب الكريم ، انه نزل بلسان عربى مبين ، بين عرب فصحاء ، طبعوا على الصراحة فى الراى والشجاعة فى القول ، والأنفة من الذل والضيم .

وقد تحداهم القرآن ان يأتوا بمثله : ثم طاولهم فى المعارضة ، وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن الى التحدى بعشر سور مثله ثم الى التحدى بسورة واحدة من مثله ، وهم على رغم المطاولة ، ينتقلون من عجز الى عجز ، ومن هزيمة الى هزيمة ، وهو فى كل مرة من مرات هذا التحدى وهذه المطاولة ، ينتقل من فوز الى فوز ، ويخرج من نصر الى نصر .

تصور انه قال لهم فى سورة الطور أول ما تحداهم : « أم يقولون **تقوله بل لا يؤمنون . فلياتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين** » .

(سورة الطور : ٣٣ ــ ٣٤)

فلما انقطعوا مد لهم فى الحبل وقال فى سورة هود : ((**أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فالم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل انتم مسلمون**)) .

(سورة هود : ١٣ — ١٤) .

فلما عجزوا هذه المرة ايضا ، طاولهم مرة اخرى وارخى لهم الحبل الى آخره ، وقال فى سورة البقرة : ((**وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين**)) .

(سورة البقرة : ٢٣ — ٢٤)

فكان عجزهم بعد ذلك اشنع وابشع ، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر ، فلم يفعلوا ولن يفعلوا ، ودحضت حجتهم وافتضح أمرهم ، وظهر أمر الله وهم كارهون .

التحدى عند الجاحظ :

قال الجاحظ : بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم اكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا ، واحكم ما كانت لغة ، واشد ما كانت عدة ، فدعا اقصاها وادناها الى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر وازل الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا ، وقتل من عليتهم واعلامهم وأعمامهم وبنى اعمامهم وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحا ومساء ، الى ان يعارضوه ان كان كاذبا بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها ، وتقريعا لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستورا ، وظهر ما كان خفيا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة ، قالوا له انت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوا مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من يستجيده ، ويحامى عليه ويكابر فيه ، ويزعم انه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القول مع كثرة كلامهم ، واستجابة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء اصحابه وخطباء امته ، لأن سورة واحدة

او آيات يسيرة ، كانت انقض لقوله وافسد لامره ، وابلغ فى تكذيبه واسرع فى تعريق اتباعه ، من بذل النفوس والخروج من الاوطان وانفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبير ، الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والعقل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور .

ثم تحدى به أقصاهم بعد أن اظهر عجز أدناهم ، فمحال — أكرمك الله — ان يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر ، والخطأ المكشوف البين ، مع التفريع بالنقض والتوقيف على العجز ، وهم اسد الخلق انفة ، واكثرهم مفاخرة . والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا اليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ، وكما انه محال ان يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة (١) على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه ، وهم يبذلون أكثر منه (٢) .

معارضة القرآن :

حاول قوم ان يعارضوا القرآن ، متوهمين انه كسجع الكهان فجاءوا بسجع قلق يعارضون به القرآن — وشتان ما بين الحق والباطل — وقد باءت محاولتهم بالفشل ، واخزتهم امام الجماهير ، وكان مصرعهم هذا كسبا جديدا للحق ، وبرهانا ماديا على أن القرآن كلام الله القادر ، وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن .

يذكر التاريخ ان مسيلمة الكذاب ، زعم انه أوحى اليه بكلام كالقرآن ، ثم طلع على الناس بهذا الهذر : ((**انا اعطيناك الجماهر . فصل لربك وجاهر**)) .

وبهذا السخف : ((**والطاحنات طحنا . والعاجنات عجنا . والخابزات خبزا**)) . وانت خبير بان مثل ذلك الاسفاف ليس من المعارضة فى قليل ولا كثير ، واين محاكاة الببغاء من فصاحة الانسان ؟ واين هذه الكلمات السوقية الركيكة ، من الفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية ، وهل

---

(١) هى مدة رسالته — صلى الله عليه وسلم .
(٢) اعجاز القرآن للرافعى ، فصل : التحدى والمعارضة : ٢٢٥ .

المعارضة الا الاتيان بمثل الاصل فى لغته واسلوبه ومعانيه أو بارقى منه فى ذلك!

يقول الرافعى : ان مسيلمة لم يرد ان يعارض القرآن من ناحية الصناعة البيانية ، وانما اراد ان يتخذ سبيله الى استهواء قومه بهذا السجع القلق وما كان مسيلمة فى قوله السجع حاذقا ، ولا فى دعوى النبوة صادقا ، وانما كان اتباعهم اياه كما قال قائلهم : ((**كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضر**)) .

روعة القرآن :

تميز القرآن بحلاوته وطلاوته ، وجماله وروعته ، تلك الروعة التى تاخذ بقلوب سامعيه عند سماعه ، وتستولى على أفئدة قارئيه عند قراءته ، وقد اسلم جماعة عند سماع آيات منه كما وقع لجبير بن مطعم ، وذلك انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بسورة الطور ، قال فلما بلغ هذه الآية : ((**ام خلقوا من غير شىء ام هم الخالقون**)) الى قوله : ((**المسيطرون**)) (1) كاد قلبى يطير ، قال وذلك أول ما وقر الاسلام فى قلبى .

وقصة اسلام أبى ذر واسلام أخيه كان سببها سماع القرآن ، روى عن أبى ذر انه قال : قال لى اخى انيس : ان لى حاجة الى مكة ، فأنطلق فراث فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلا يقول ان الله تعالى أرسله فقلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون شاعر ساحر كاهن . قال أبو ذر وكان انيس احد الشعراء قال : تالله لقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلم يلتئم على لسان احد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله انه لصادق وانهم لكاذبون .

ومن ذلك ما روى أن الوليد بن عقبة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ ، فقرأ عليه : ((**ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون**)) (سورة النحل :

---

(1) سورة الطور : ٣٥ : ٣٧ ، ونصها ما يأتى :
« ام خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون ، ام عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون » .

٩٠) . فقال اعد فأعاد . فقال : والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر ، وما يقول هذا بشر .

الكلمات وحروفهـا :

ومن الروعة الحقة للقرآن ادراكه لخفـايا النفس البشرية وتلمس السبيل لبعث عوامل الايمان فى هذه النفس بالرغبة والرهبة والتشوق والاثارة ، وصوغ المعانى فى عبارة خلابة ولفظ رشيق تكسوه حلاوة الفواصل المتقاربة فى الوزن التى تغنى عن التفاعيل ، والتقفيه التى تغنى عن القوافى . ونرى الحرف يكون رقيقا فى موضع الرقة ، شديدا فى موضع الشدة ، فترى هذه الألف اللينة ، التى تختم بها آيات سورة النجم ، تصور جلال التكريم الالهى ، والفضل الربانى على النبى الأمين فى قوله تعالى : **« والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالافق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين او ادنى . فاوحى الى عبده ما اوحى . ما كذب الفؤاد ما راى . افتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة اخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى »** .

(سورة النجم : ١ ــ ١٥)

فالموقف موقف تكريم واسعاد والمشهد مشهد النبى الكريم يتخطى الحجب الى فضل هو ذروة المنتهى وجنة المأوى ، فناسب ذلك سهولة الفاصلة وليونة حرف الختام .

واذا عرض القرآن الوان العذاب او الوعيد تخير الكلمات الموحية ، والالفاظ المعبرة ، التى تسلك سبيلها الى النفس فتجسم الفكرة وتصور المعنى .

اقرأ قوله تعالى : **« ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد »** .

(سورة ق : ١٦ ــ ٢٠)

فهذه الدال من حروف القلقلة مسبوقة بالياء المشبعة تحدد صوت الانذار ، وتوائم أسلوب الوعيد ، وتلمس ذلك فى قوله تعالى : **« تكاد تميز**

من الغيظ » (سورة الملك : ٨) . فلفظ تميز يوحى بالقلق والغضب حتى كأن جهنم سبع مفترس يتحرق شوقا لالتهام فريسته .

واذا قرأت قوله تعالى : « **فكبكبوا فيها هم والغاوون** » (سورة الشعراء : ٩٤) ، استشعرت من لفظ الكبكبة عنف العذاب الذى يصيب المجرمين حتى أنهم يدفعون دفعا ويدعون دعاء ، فيتهاوون جماعة فوق أخرى .

الحروف واصواتها :

« الحرف الواحد من القرآن الكريم معجز فى موضعه لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة وهذا هو السر فى اعجاز جملته اعجازا أبديا فهذا أمر فوق الطبيعة الانسانية وفوق ما يتسبب اليه الانسان اذ هو يشبه الخلق الحى تمام المشابهة وما أنزله الا الذى يعلم السر فى السموات والأرض » .

وربما حذف القرآن حرفا فى سياق معين وأثبت الحرف نفسه فى سياق مشابه ليشير الى معان جمة تلحظها النفس بين السطور وتراها فى ثنايا التعبير .

فى الآيات الأخيرة من سورة الزمر ، يقول القرآن الكريم : « **وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها** » (سورة الزمر : ٧١) فأشارت الآية الى مشهد من مشاهد الاذلال لهؤلاء الكفار ، فهم وقوف لا يفتح الباب لهم الا بعد احضارهم .

وقال سبحانه بعد ذلك : « **وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها** » (الزمر : ٧٣) . فأشارت الآية الى أن التكريم قد سبقهم بتفتيح أبواب الجنة وانتظار قدومهم .

لقد تحدث القرآن عن النار فقال : « **فتحت** » .

وتحدث عن الجنة فقال : « **وفتحت** » .

فأظهر الاذلال الذى ينال الكافرين بالانتظار على الأبواب ، والاكرام الذى ينال المؤمنين بالاعداد والاستقبال الذى يسبق قدومهم احتفاء بهم .

ولما كان الأصل فى نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها ، من الدلالة المعنوية ، استحال أن يقع فى تركيبه ما يسوغ الحكم فى كلمـة زائدة ، أو حرف مضطرب ، أو مـا يجرى مجـرى الحشـو والاعتراض .

ونجد القرآن اذا تحدث بلسان النملة كانت كلماته كأنها تحكى صوت النملة ، واذا تكلم بلسان الهدهد كان جرس الكلمات وموسيقاها يحكى صـوت الهدهد .

فقد قال القرآن على لسان الهدهد : **« وجئتك من سبأ بنبأ يقين »** (النمل : ٢٢) وهى على وزن صوت الهدهد : كوكو ، كوكو ، كوكوك .

فالصوت فى القرآن يؤدى غرضـه كاملا غير منقوص . ان الابداع الصوتى فى القرآن وانتقاء الكلمات بجرسها ونغمها له أكبر الأثر فى هدايته البالغة ، ونظمه العجيب ، واعجازه الرائع ، وتأثيره فى قلوب سامعيه من العرب والعجم .

وما من أعجمى يسمع ترتيل القرآن فهمه أو لم يفهمه الا اعترته رقة للشجى والنظم ، وأحس ان هذه الآيات تتموج فى نفسه وتجيش نفسه بها مع أنه لا يعتريه من ذلك شيء اذا هو سمع الألحان العربية فى الغناء والشعر وقد لا يجد فى الموسيقى ضربا أسخف منها لمكان اختلاف الأذواق ، وما نجد ملحدا لا يؤمن بالله الا وهو مؤمن بهذا الاعجاز فى كتابه ، حين يسمعه مرتلا من صوت جميل كأن النبوة حينئذ تلامسه .

بلاغة القرآن

الحد الصحيح للبلاغة فى الكلام هو ان يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع باصابة موضع الاقناع من العقل ، والوجدان من النفس ، ولم يعرف فى تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن فى قوة تأثيره فى العقول والقلوب ، فهو الذى قلب طباع الأمة العربية ، وحولها عن عقائدها وتقاليدها ، وصرفها عن عاداتها وعدواتها ، وصدف بها عن اثرتها وثاراتها ، وبدلها بأميتها حكمة وعلما ، وبجاهليتها ادبا رائعا وحلما . والف من قبائلها المتفرقة امة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها ، وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها .

ولم تكن هذه البلاغة خفية على اهل مكـة ، فهم خبراء الفصـاحة وفرسان البيان ، وكان بعضهم يسجد عند سماع القرآن ويقول سجدت لبلاغة هذا الكلام .

ولكن غلبت عليهم العصبية ، واعمتهم حمية الجاهلية ، عن اتباع الحق رغم وضوحه ، وعن السير فى ركب الايمان رغم اعترافهم بصدقه .

ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس وأبو جهل بن هشام ، وامية بن ابى الصلت وغيرهم ممن أدركوا عظمة القرآن ثم أعرضوا عن الايمـان .

روى الحاكم وصححه البيهقى فى الدلائل ان الوليد بن المغيرة أتى قريشا فقال : ان الناس يجتمعون غدا بالموسم وقد فشا أمر هذا الرجل فى الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا : مجنون يخنق ، فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحا فصيحا عادلا فيكذبونكم . قالوا : نقول هو شاعر ، قال : هم العرب وقد رووا الشعر وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم . قالوا : انهم لقوا الكهان فاذا سمعوا قوله

لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم . ثم انصرف الوليد الى منزله فقالوا : صبأ الوليد ــ يعنون اسلم ــ ولئن صبأ لا يبقى احد الا صبأ . فقال لهم ابن اخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة : انا اكفيكموه ، قال فاتاه محزونا فقال : مالك يا بن اخى ؟ قال : هذه قريش تجمع لك صدقة يصدقون بها عليك ، تستعين بها على كبرك وحاجتك ، قال : او لست اكثر قريش مالا ؟ قال : بلى ، ولكنهم يزعمون انك صبأت لتصيب من فضل طعام محمد واصحابه . قال : ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضل ؟

ثم اتى قريشا فقال : اتزعمون انى صبأت ولعمرى ما صبأت ، انكم قلتم : محمد مجنون ، وقد ولد بين اظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوما ، فهل رأيتموه يخنق قط . فكيف يكون مجنونا ولم يخنق قط ؟

وقلتم شاعر ، وانتم شعراء فهل احد منكم يقول ما يقول ؟

وقلتم كاهن ، فهل حدثكم محمد فى شىء يكون فى غد الا ان يقول ان شاء الله ؟ قالوا : فكيف تقول يا أبا المغيرة ؟

قال : اقول هو ساحر : فقالوا واى شىء السحر ؟ قال : شىء يكون ببابل ، من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل واخيه ، الا ترون ان محمدا فرق بين فلان وفلانه زوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان واخيه ، وبين فلان ومواليه ، فلا ينفعهم ولا يلتفت اليهم ولا يأتيهم ؟ قالوا : بلى ، فاجتمع رايهم على أن يقولوا : انه ساحر ، وأن يردوا الناس عنه بهذا القول .

وانصرف ، فمر بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم منطلقا الى رحله ، وهم جلوس فى المسجد فقالوا : هل لك يا أبا المغيرة الى خير ؟ فرجع اليهم فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا : التوحيد ، قال : ما يقول صاحبكم الا سحرا وما هو الا قول البشر يرويه عن غيره وعبس فى وجوههم وبسر ثم أدبر الى أهله مكذبا ، واستكبر عن حديثهم الذى قالوا له وعن الايمان ، فأنزل الله تعالى فيه : « **انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر** » .

(المدثر : ١٨ ــ ٢٥) (١) .

---

(١) أنظر ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ص ١٢٣ ط ، دار المعارف بمصر .

حسن البيـــان :

حسن البيان هو اخراج المعنى فى أحسن الصور الموضحة له ، وايصاله الى فهم المخاطب بأقرب الطرق واسهلها ، فانه عين البلاغة ، وقد تأتى العبارة منه عن طريق الايجـاز ، وقد تأتى عن طريق الاطنـاب بحسب ما يقتضيه الحال . والاطناب بلاغة ، والاسهاب عى .. وقد أتى بيان الكتاب العزيز من الطريقين ، ومن ذلك قوله تعالى : **((كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين))** . (الدخان : ٢٥ ــ ٢٧) . وكقوله تعالى وقد اراد ان يبين عن الوعد : **((ان المتقين فى مقام امين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهـة آمنين))** (ســورة الدخان : ٥١ ــ ٥٥) وكقوله عز وجل ــ وقد اراد ان يبين الوعيـد : **((ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين))** (ســورة الدخان : ٤٠) وكقــوله فى الاحتجاج القاطع للخصم **((وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحيها الذى انشـاها اول مرة وهو بكل خلق عليم))** (سورة يس : ٧٨ ــ ٧٩) وكقوله تبارك وتعالى ــ وقد اراد ان يبين حسرة الكفار ــ : **((ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون))** (سورة الزخرف : ٣٩) ، وكقوله تعالى وقد اراد ان يبين عن العدول : **((ولو ردوا لعادوا لما نهو عنه وانهم لـكاذبون))** (ســورة الأنعام : ٢٨) وامثال هذه المواضع كثيرة (١) .

فن القول :

تناولت كتب البلاغة العربية ألوان البيان فى القرآن الكريم وتعرضت كتب علوم القرآن لفنون القول فى القرآن الكريم ومن اشهر هذه الكتب البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى والاتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى . وهما مطبوعان فى القاهرة بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم .

وقد تعرض الكتابان الى عدد من المباحث القرآنية البلاغية ، مثل تشبيهات القرآن واستعاراته ، وكناياته وتعريضاته ، وحقائقه ومجازاته ، وحصره واختصاصه ، وايجازه واطنابه . وخبره وانشائه ، وجدله وأمثاله واقسامه ... وسنذكر نماذج من هذه الفنون فى القرآن الكريم .

---

(١) انظر ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ط ٢ دار المعـارف بمصر ص ١٩٤ .

التشبيه والاستعارة :

من تشبيه القرآن قوله سبحانه : « **كمثل الحمار يحمل اسفارا** » (سورة الجمعة : ٥) ووجه الشبه حرمان الانتفاع بأبلغ نافع من تحمل التعب فى استصحابه .

وقوله سبحانه : « **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا** » (سورة الكهف : ٤٥) ووجه الشبه هنا هيئة منتزعة من متعدد (١) فقد شبه الدنيا فى سرعة زوالها وانقراض نعيمها واغترار الناس بها بحال ماء نزل من السماء وانبت انواع العشب ثم اخضر النبات ونما وترعرع ، ولم يلبث أن تحول الى حطب جاف تذروه الرياح . وقريب منه قوله سبحانه فى وصف الدنيا : « **كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان** » (سورة الحديد : ٢٠) ، ومن استعارات القرآن قوله تعالى : « **والصبح اذا تنفس** » (سورة التكوير : ١٨) فالحياة تخلع فى هذه الآية على الصبح حتى لقد صار كائنا حيا يتنفس بل انسانا ذا عواطف وخلجات نفسية تشرق الحياة باشراقة من ثغره ، المنفرج عن ابتسامة وديعة وهو يتنفس بهدوء ، ومن استعارات القرآن أيضا قوله سبحانه فى وصف جهنم « **اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ** » (الملك ٧ ، ٨) . فقد استعيرت لجهنم شخصية آدمية ، لها انفعالات وجدانية ، وخلجات عاطفية ، فهى تشهق شهيق الباكين ، وهى تغضب وتثور وهى نفس ذات شعور ، ومن استعارة المحسوس للمعقول قول القرآن « **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق** » (سورة الأنبياء : ١٨) فقد صور الحق بالقذيفة الثقيلة التى تدفع الباطل وتزهقه .

ومن الاستعارات البليغة قوله سبحانه : « **فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فاقامه** » (سورة الكهف : ٧٧) وقوله تعالى : « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** » .

(سورة آل عمران : ١٠٣)

* * *

---

(١) ينقسم التشبيه باعتبار وجهه الى مفرد ومركب ، والمركب هو ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من امور متعددة .

العلم في القرآن

دعا القرآن الى العلم فى اول آيات تنزلت منه ، واقسم الله بالقلم وهو اول اداة فى سبيل تحصيل العلم فقال تعالى : **« ن ، والقلم وما يسطرون »** .

(سورة القلم : ١)

كما اشاد القرآن بمكانة العلم والعلماء فقال سبحانه : **« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم »** .

(سورة العنكبوت : ٤٩)

« شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم » .

(سورة آل عمران : ١٨)

وقد خاطب القرآن الكريم ذوى العقول الراجحة ، ووجه الحديث الى اهل الخبرة والمعرفة فقال سبحانه :

« ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .

(سورة آل عمران : ١٩٠)

وقال عز شأنه : **« ان فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون »** .

(سورة الجاثية : ٣ ــ ٥)

وهكذا يفصل كتاب الله فى مراحل الوحى المختلفة المقصود بالعلم ، وما انقسم اليه فى عصرنا هذا من فروع وتخصصات ، مثل الفلك والفيزياء ،

والكيمياء ، والارصاد ، والنبات ، والحيوان ، وطبقات الأرض ، ونحوها .. تلك العلوم الأساسية التى بازدهارها تزداد الشعوب درجات فى البأس والقوة ، ودرجات فى الايمان والتقرب من الله **« انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور »** .

(سورة فاطر : ٢٨)

لقد تعرض القرآن فى آيات كثيرة منه ــ نحو سبعمائة وخمسين آية ــ الى مسائل هى من صميم العلم . وذكر جانبا من الحقائق العلمية كقضايا عامة ، ودخل فى تفاصيل بعض الحقائق الأخرى وبذلك نبه الأذهان الى أهمية البحث واعمال النظر والفكر وبتلك الدفعة الكبرى ألف العرب الموسوعات الشاملة فى مختلف فروع العلم والمعرفة فكتب ابن سينا نحو ٢٦٦ كتابا فى علوم الطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة والفيزياء والنبات والحيوان .. الخ . وألف ابن الهيثم نحو ٢٠٠ كتاب منها كتابه البصريات الذى لقى رواجا بعد تحقيقه فى عصرنا هذا ، وصنف البيرونى نحو ١٧٦ مخطوطا على مستوى رفيع ، منها ما عالج فيه العديد من المسائل الرياضية والفلكية الحديثة ، وألف الجاحظ ما يربو على ٣٥٠ كتابا ورسالة فى الأدب والشعر مما تفخر به المكتبة العربية .

وفى مجال الرياضيات والحساب وضع العرب أساس الكسر العشرى واستخدموا الصفر على يد جمشيد ، وتعتبر هذه الأعمال اهم خطوة تمت فى سبيل ارتقاء العلوم الرياضية ، والعجيب أن القرآن الكريم يأخذ بالحساب العشرى ، وذلك فى العديد من الآيات التى يستخدم فيها العدد مثل قوله تعالى :

« من جاء بالحسنة فله عشر امثالها » .

(سورة الأنعام : ١٦٠)

« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون » .

(سورة الأنفال : ٦٥)

« أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات » .

(سورة هود : ١٣)

« وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون » .

(سورة الحج : ٤٧)

«**ليلة القدر خير من الف شهر**» .

(سورة القدر : ٣)

• عجز الزمان عن ابطال شيء من القرآن :

اذا تأملت كلمات القرآن ، واجلت بصرك بين سطوره ، وجدت انه يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى ، فى جميع انواع المخلوقات ، من الجماد والنبات والحيوان والانسان ، ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ونجومها ، والأرض والهواء والسحاب والماء ، من بحار وانهار وعيون وينابيع ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم ، وبيان لطريق التشريع السوى الأمثل . وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ثم عجزت هذه القرون التى ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، أن تنقض بناء آية من آياته أو تبطل حكما من أحكامه او تكذب خبرا من أخباره . وهى التى جعلت فلسفة اليونان دكا ، ونسخت شرائع الأمم نسخا ، وتركت سائر علوم الأوائل قاعا صفصفا ، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية ، ورجعت فى تحقيقها الى ما عثر عليه المنقبون من الآثار العادية ، وحكمت فيها أصول العمران وسنن الاجتماع ، بحيث لم يتبق لعلماء الأوائل كتاب غير منقوض .

وظلت اخبار القرآن وتشريعاته وعلومه وفنونه خالدة باقية ، وذلك سر من أسرار الاعجاز فى القرآن فان الله قد تكفل بحفظه وخلوده ، فقال سبحانه : «**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**» .

(سورة الحجر : ٩)

* * *

القرآن والعلم الحديث

من اعجاز القرآن الكريم اشارته الى نشأة علوم حديثة لم يعرفهـا السابقون ، وانما لفت أنظارهم اليها ، كما وجه أبصارهم الى دراسة الكون وتأمل ظواهره والاحاطة بآيات الله فيه ، وقد حملت آيات القرآن بذور هذا التقدم العلمى وارشدت اليه وفكت مغاليقه وتركت للعقل البشرى بعد ذلك استكمال رسالته حتى يتحقق من صواب نظريته او خطئها .

قال تعالى : ((**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد**)) .

(سورة فصلت : ٥٣)

وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن مـا يشير الى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية وبسطوا كل ذلك بسطا فى موضعه ، من ذلك أن الصعود الى أعلى يلزمه حتما ضيق الصدر ، أى الاختناق بسبب نقص الأكسجين ، وهـذا يفسر لنا قوله تعـالى : ((**ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد الى السماء**)) .

(سورة الأنعام : ١٢٥)

ومن الثابت أن للأرض جاذبية ، وللأفلاك الأخرى كالشمس والقمر جاذبية ويحتاج الانسان الى سرعة جبارة ليندفع فى الفضاء متخلصا من جاذبية الأفلاك ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ((**يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان**)) (سورة الرحمن : ٣٣) . وما هذا السلطان الا سلطان العلم وهو أقوى ما حصل عليه الانسان وأعظم ما منح ، وبه ملك زمام الأرض والسـماء .

ويقول الله تعالى فى (سورة الفرقان : ٦١) : ((**تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا**)) .

والبروج مجموعات النجوم المعروفة بالدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء والأسد والسرطان والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدى .

اما السراج فهى الشمس المضيئة ، والاعجاز هنا اشارة القرآن الى ان وظيفة القمر هى مجرد التنوير برد ضوء الشمس الساطعة عليه ، أما الشمس فهى مصدر الطاقة التى ترسلها عبر الفضاء الكونى كما يرسل السراج المتقد الضوء والحرارة .

وقال تعالى فى (سورة نوح : ١٦) « **وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** » .

وقطر الشمس اكبر من قطر الأرض مائة مرة وتبلغ درجة حرارة سطحها من ٦٠٠٠ درجة مطلقة الى ١٠ مليون درجة .

وتمدنا الشمس بكافة انواع الطاقات التى تشرق بها الأرض ، وتزدهر الحياة فى كنفها . ويشير القرآن الى تغير تلك الطاقات بتغير الشهور والمواسم حتى يعم النفع ولا يمل الناس من حر دائم أو برد مستمر .

يقول سبحانه : « **الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** » .

(سورة الفرقان : ٤٥)

كما يشير القرآن الى بعض الظواهر الفلكية فى تحديد مسار الشمس فهى تجرى ومعها سائر أجرام مجموعتها بسرعة تبلغ عدة مئات الأميال فى الثانية .

ورغم سير الشمس المستمر ، فانها لا تتخلف عن وظيفتها ، ولا تظهر فى غير أوانها ، كما ان للقمر مداره ومنزلته وفلكه الذى يسبح فيه ، وقد قدر الله كل ذلك بنظام بديع وتقدير محكم لا يختل ولا يضطرب ، وفى اعجاز رائع واسلوب حكيم ينطق القرآن بهذه الظاهرة ، فيقول سبحانه : « **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** » .

(سورة يس : ٣٨ ــ ٤٠)

القرآن وعلوم الفضـــاء :

اشار القرآن الى أسفار الفضاء ، وذكر أن أجرام السماء تظل تسبح على الدوام الى ما شاء الله ، حيث لا يوجد فى الفضاء الكونى ما يعوق حركتها ، أو يغير من سرعتها مصداقا لقوله تعالى : **« وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون »** .

(سورة الأنبياء : ٣٣)

ومن العجيب ان يذكر القرآن اسفار الفضاء كلها على انهـا تتم فى مسارات منحنية ، والحقيقة أن الفضاء لا يعرف الخط المستقيم ، انظر الى قوله تعالى فى (سورة المعارج : ٤) : **« تعرج الملائكة والروح اليه »** .

وفى (سورة سبأ : ٢) : **« يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منهـا وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور »** .

وفى (سورة الحجر : ١٤) : **« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون »** .

وحين انفتح أمام الانسان باب الوصول الى القمر ورحل اليه مرة بعد اخرى رأى نفسه ينطلق فى مسارات منحنية أو متعرجة ، ولا يسير فى خطوط مستقيمة ، وعندما صعد رواد الفضاء فوق جو الأرض ، نظروا ألى الأرض فرأوها قبة زرقاء معلقة فى الفضاء ، وأصبح فى مقدورهم تمييز الخط الفاصل بين الليل والنهار فى غلاف الأرض ورأوا أن هذا الخط يلف مع دوران الأرض حول محورها ، ولقد اشار القرآن الى هذه الحقائق بأسلوبه المعجز وبيانه الحكيم . قال تعالى فى (سورة الزمر : ٥) **« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل »** .

وفى (سورة النور : ٤٤) : **« يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »** .

وقد اشار القرآن الى اهمية الجبال فى حفظ توازن الأرض ، وذلك فى قوله تعالى : **« والقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم »** .

(سورة النحل : ١٥)

وقوله سبحانه : **« الم نجعل الأرض مهادا والجبال اوتادا »** .

(سورة النبأ : ٦ ــ ٧)

وثبت علميا أن قشرة الأرض ميزان حساس فكل مكان فيه هو كفة متوازنة مع كل مكان آخر ، فاذا تغير الثقل على مكان ما اضطرب هـذا التوازن ونجمت عن ذلك هزات الزلازل ، وتصدعات القشرة اليابسة لاعادة هذا التوازن ، والجبال بمقتضى عوامل التعرية تزول ببطء شديد ، ولعل هذا ما تشير اليه الآية الكريمة : « **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون** » .

(سورة النمل : ٨٨)

ومن الاعجاز العلمى للقرآن ما كشف عنه العلم من تلاقح النبات وأنه ازواج : قال تعالى : « **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** » .

(سورة يس : ٣٦)

وقال سبحانه : « **فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى** » .

(سورة طه : ٥٣)

« **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** » .

(سورة الرعد : ٣)

وقال عز شانه : « **وارسلنا الرياح لواقح فانزلنـا من السماء مـاء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين** » .

(سورة الحجر : ٢٢)

وقد ظن فريق من العلمـاء ان الآية تشـير الى تلقيح الرياح لبعض النباتات كما هو معروف . ولكن هذا المعنى لا يربط الجزء الأول من الآية بجزئها الثانى وهو انزال الماء العذب .

فالآية تشير الى ما تسببه الرياح من تسخير السحاب وانزال المطر ، واثراء الحياة بالخيرات والنبات والمرعى مما يستحق التفكير والتأمل . قال تعالى : « **وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقـوم يعقلون** » .

(سورة البقرة : ١٦٤)

وقد أقسم الله تعالى بالنجوم فى تعبير بلغ ذروة الاعجاز فى وصفه أبعاد النجوم واتساع الكون المادى بصفة عامة ، قال تعالى : « **فلا أقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم** » .

(سورة الواقعة : ٧٥ ـ ٧٦)

ومن آيات القرآن الكريم يتضح لنا أن لله عز وجلّ كتابين ، كتاب مفتوح وهو الكون يقرؤه العالم والجاهل والكبير والصغير والمتعلم والأمى ، وكتاب مقــروء انزله على نبيه ليرشــد النــاس الى آثار قدرة الله بديع السموات والأرض .

ورغم ان المقصود الأسمى من هذا الكتاب هو الهداية والارشـــاد الا انه مع ذلك حوى اصول الاعجاز التشريعى والنفسى والبيانى والعلمى .

وان من ادلة اعجاز هذا الكتاب الكريم ان يخطىء الناس فى تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حبــالهم أن تعلق باطراف السموات أو تحيط بالأرض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها فى كشف معانيه ، فكلما تقدمت العلوم ونازعت الى الكشف والاختراع واستكملت آلات البحث ظهرت حقائقه الطبيعية ، ناصعة حتى كأن القرآن غاية لا يزال عقل الانسان يتطلع اليها .

ولا عجب فى ذلك ، فالعقل أثر من آثار الله ، والوحى اثر من آثار الله وآثار الله لا تناقض بينها ولا اضطراب .

قال تعالى : **« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت »** .
(سورة الملك : ٣)

« والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .
(سورة يوسف : ٢١)

* * *

عناصر الجمال الفنى فى القرآن

من نواحى الاعجاز فى القرآن الكريم انه يعرض امامك الصورة البارعة التى تأخذ بالألباب وتستولى على الافئدة فتتحول الى مشهد رائع او لوحة خـالدة .

وقد نزل القرآن على العرب والأمية فيهـم منتشرة فعرض عليهم كتاب الكون بكل ما فيه ، وقدم لهم لوحات خالدة وصورا مثيرة تستلفت نظر الأعمى والبصير والأمى والمتعلم ، والمرأة والرجل ، والشيخ والشاب ، فهو كتاب العـامة والخاصة على السواء .

وقد كان القرآن المكى يستلفت انظار الناس الى جمال هذا الكون وبديع صنيعته ، ويسترسل فى سوق الأدلة المتتالية حتى يأخذ على النفس كل طريق فلا تجد سبيلا من الاذعان والايمان عن قناعة حقه بان هـذا الكون لم يخلق عبثا ولن يترك سدى .

وفى اول آيات القرآن التى نزلت على النبى بمكة وهو فى غار حراء يتلو الوحى : ((**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم**)) .

(سورة العلق : ١ ــ ٥)

آيات قصيرة موجزة ، واسلوب بسيط اخاذ ، وحقائق عن الكون وخالقه ، والقراءة والعلم .

فالقراءة باسم الله الذى خلق كل شىء ، خلق السماء والأرض والجبال والبحار والليل والنهار والهواء والفضاء ، وسخر الشمس والقمر وأبدع الكون كله فى نسق رائع وجمال خالد .

وكما يعرض القرآن الكون الفسيح امـام الانسـان فانه يستعرض النفس البشرية بكل اسرارها وابداع خلقها ودقة تركيبها .

حتى يفكر الانسان فى أصله ، كيف خلق ؟ كيف تم تكوينه ؟ حتى أصبح خلقا بديعا جميلا فيقول سبحانه : ((**اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق**)) .

ويقول الله فى آية أخرى : ((**فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب**)) .

(سورة الطارق : ٥ ــ ٧)

وهذا الحديث عن البدء والمعاد يعرضه القرآن فى هدوء ويسر بدون اغراب أو ابتذال ، حتى يوشك أن يكون كلام النفس ذاتها ، فهو السهل الممتنع وهو النسق العالى والأدب الرفيع الذى يمتع العقل والفكر ويرضى العاطفة والذوق سواء بسواء .

وفى الحديث الصحيح أن عمر رضى الله عنه لما سمع قول الله تعالى : ((**ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر**)) .

(سورة المؤمنين : ١٢ ــ ١٤)

قال عمر متعجبا : ((**فتبارك الله احسن الخالقين**)) .

وتبسم النبى صلى الله عليه وسلم لنطق عمر ، فلما سأله عمر عن سر تبسمه قال : ((**ان الله ختم الآية بما نطقت به**)) .

وليس ذلك بعجيب على عمر فقد جعل الله الحق على لسانه وقلبه وقال فيه النبى : ((**انه كان فيمن مضى ملهمون ، ولو كان فى امتى ملهمون لكان عمر**)) .

واذا تأملت آيات القرآن ، رأيتها تعرض تطور الجنين وتكوينه فى صورة مشرقة تنبض بالحياة والحركة ، فاذا المعنى الذهنى حركة ومشهد ، واذا النموذج الانسانى شاخص حى ، واذا اللفظ القرآنى يعرض الحياة بكل اطوارها .

فاذا ذكرنا أن الاداة التى تصور هذه الحياة انما هى الفاظ جامدة ، لا الوان تصور ، وشخوص تعبر ، أدركنا موضع الاعجاز فى تعبير القرآن الكريم .

الاعجـاز فى نغم القرآن :

لأسلوب القرآن حلاوة تأخذ بالألباب ، وتستهوى الأفئدة فلا تلبث آياته أن تأخذ سبيلها الى القلوب فى ايقاع ندى وجرس جميل ونغم رائع ، ولقد سمع القرآن احد الكفار فرجع الى قومه قائلا : لقد سمعت من محمد آنفا قولا ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وان فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر .

وتستطيع أن تتبين هذا الاعجاز فى جميع آيات القرآن وكلماته ، فكل كلمة قد وضعت فى مكانها ، وكل حرف قد صادف موقعه ، اقرأ مثلا سورة الرحمن ، واسترسل فى قراءتها على سجيتك ، وأمعن نظرك فى جمال عرضها وتناسق أفكارها وتسلسل معانيها ، ثم ارجع البصر كرتين .. كيف بدئت ؟ وكيف ختمت .. وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت .. وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأ أولاها أخراها ..

ثم تأمل النغم الذى يسرى فى جميع آياتها :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » .

(سورة الرحمن : ١ ــ ٤)

فقرات قصار ، وصوت ندى ، ونشيد الهى ، ومعان ربانية تأخذ سبيلها الى القلوب ، فى أسلوب ايقاعى ، تبهرك موسيقاه وتستولى على الوجدان انغامه وألحانه ، فهو الذى جمع بين مزايا النثر والشعر كلاهما ، فلا تجد فى السورة قيود القافية الموحدة ، أو التفعيلات التامة ، بل تجد حرية التعبير الكاملة ، وجمال التصوير الرائع يعرض مظاهر الكون ، وحقائق الوجود ويسوق القيامة وأهوالها ، والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها فى مشهد حى متحرك ، فاذا الغائب حاضر واذا النفس سائرة مع الآيات تتأمل نعم الرحمن فى خلق الانسان وتسخير الشمس والقمر بحسبان ، ووضع الميزان ــ وبعد كل نعمة من نعم الله يعقب الرحمن بهذه الآية الكريمة :

« فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

فلا يملك الانسان الا أن يسجد عقله وان يزداد يقينه وان ينطلق قلبه ولسانه قائلا : ولا بشيء من نعمتك ربنا نكذب .

وقد تميز القرآن على الشعر والنثر والسجع ، فتحلى بمزاياها وتخلص من قيودها . قال تعالى :

« فلا اقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » .

(سورة الحاقة : ٣٨ ــ ٤٣)

وتصور هذه الآيات موقف العرب من القرآن وذلك انهم اخذوا بحسن بيانه وجدة معانيه ، وروعة قوافيه فاخذوا يكيلون التهم جزافا للنبى فقالوا شاعر ثم قالوا ساحر ، وانبرى أحد الكفار يدافع عن القرآن أمام قومه ، فقال لهم : لقد عرفنا الشعر فما هو برجزه ولا رمله ، وعرفنا الكهانة فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه وعرفنا السحر فما هو بنفثه ولا عقده .

وتعرض الآية الخامسة من سورة الأنبياء مشهدا من مشاهد الكافرين وقد أخذوا يتدافعون فى الصاق التهم بالقرآن فى غير تبصر ولا روية . قال تعالى :

« بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما ارسل الأولون » .

(سورة الأنبياء : ٥)

فكأنك تشهد أمامك منظر هؤلاء الناس ، وقد اجتمعوا فى مجلس ، احدهم يقول : ان القرآن أضغاث احلام لا يعلم صحيحها من سقيمها ولا حقها من باطلها . فيجيب الثانى كلا بل افتراه محمد من عند نفسه . فيرد الثالث بل هو شعر تنزلت به الشياطين ، فهى صورة متحركة لجمع مضطرب يهذى كالمحموم يحاول ان يلصق بخصمه اى تهمة تجرى على لسانه .

وقد افحمهم القرآن والزمهم الحجة وتحداهم بالوعيد الصادق الى يوم الدين فقال سبحانه :

« وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون » .
(سورة الشعراء : ٢١٠ — ٢١١)

وقال سبحانه :

« ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات » .
(سورة هود : ١٣)

وقال عز شــانه :

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .
(سورة الاسراء : ٨٨)

* * *

تصوير الحالات النفسية والمعنوية

من ابداع القرآن انه يرسم الحالات النفسية كأنها نموذج انسانى واضح للعيان .

١ — فاذا اراد أن يبين أن الانسان لا يعرف ربه الا فى ساعة الضيق حتى اذا جاءه الفرج نسى ربه ، لم يقل ذلك فى كلمات وانما فى صورة مشاهدة ملموسة ، قال سبحانه : ((**هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما انجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق**)) .

(سورة يونس ٢٢ — ٢٣)

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك ، وتموج وتضطرب ، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض ، ثم تؤدى فى النهاية ذلك المعنى المراد ابلغ اداء وأوفاه .

واذا اراد القرآن أن يبرز حالة (نموذجا) من الناس ظاهرهم يغرى وباطنهم يؤذى رسم لهم صورة كما يأتى :

((**ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو الد الخصام . واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**)) .

(سورة البقرة ٢٠٤ — ٢٠٥)

فيستعيض من الوصف الحركة والتصرف ، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن فى نسق من الصور المتحركة فى النفس والخيال .

ومن امثلة التصوير المشخص لمشاهد الحوادث الواقعة قوله سبحانه :
« يايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

(سورة الأحزاب ٩ ــ ١١)

فقد رسم فى هذه الآيات مشهدا كاملا برزت فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة والتقت فيه الصور الحسية بالصورة النفسية وكأنما الحادث معروض من جديد دون أن يغفل منه قليل أو كثير .

واذا عرض القرآن لمشاهد القيامة أبرزها فى مشاهد متتابعة أو صورة متحركة فيقول سبحانه :

« يايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » .

(سورة الحج ١ ــ ٢)

فتلحظ فى هـذا المشهد صـور المرضعات الذاهلات عمـا ارضعن والحوامل الملقيات حملهن من الهول ، والسكارى من الذهول والخوف وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

مشاهد الكون :

يوجه القرآن النظر الى مشاهد الكون ، ويلفت الانسان الى دلائل القدرة وآيات الابداع الالهى فيقول : **« الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » .**

(سورة الملك : ٣ ــ ٤)

ومن مشاهد الطبيعة الصامتة يعرض القرآن صـورة للأرض حين تنبت صنوف النباتات التى تسقى بماء واحد ولـكنها تختلف فى الطعم والمذاق فيقول سبحانه : **« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .**

(سورة الرعد : ٤)

ومن مناظر الطبيعة المتحركة يعرض القرآن صورة الطير التى تطير باسطة اجنحتها صافة اقدامها ، ثم تقبض أجنحتها كذلك عند الهبوط فيقول سبحانه : « **او لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير** » .

(سورة الملك : ٩)

وهى صورة حية متحركة يراها الناس كل لحظة ، فيمرون عليهـا غافلين ، فهو يلفت اليها انظارهم ، ليروها بالحس الشاعر المتأثر ، دليلا على قدرته ورحمته وفى الأرض مشاهد عدة للجمال الطبيعى منهـا ذلك المنظر المألوف منظر الظل الذى تلقيه الأجرام فيبدو ساكنا وهو يتحرك ببطء لطيف : « **الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا** » .

(سورة الفرقان : ٤٥)

ونخلص من ذلك الى ان التصوير هو الأداة المفضلة فى اسلوب القرآن وهو القاعدة المتكررة فيه للبيان ، وهو الطريقة التى يتناول بها جميع الاغراض وهو الخصيصة التى لا يخطئها الباحث فى جميع الأجزاء .

الوان من الصور المتحركة :

يقـول سبحانه : « **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقـدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** » .

(سورة يس : ٣٨ ــ ٤٠)

وفيه ترى الشمس والقمر فى سباق جبار لا ينى او يفتر فى ليل او نهـار .

ويصف القرآن جهنم وصفا يخلع عليها الحياة والحركة فهى نهمة متغيظة لا يفلت منها احد ، ولا تشبع بأحد .

« **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** » .

(سورة ق : ٣٠)

« **اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا** » .

(سورة الفرقان : ١٢)

ويصف القرآن الغضب فيخلع عليه صفة الأحياء من السكون والسكوت فيقول سبحانه : ((**ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الألواح**)) .

(سورة الأعراف : ١٥٤)

ومن التصوير البديع قوله سبحانه : ((**قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا**)) .

(سورة الكهف : ١٠٩)

فالخيال يظل يتصور تلك الحركة الدائبة : حركة الامداد بماء البحر لكتابة كلمات الله ، فى غير ما توقف ولا انتهاء ، الا أن ينتهى البحر بالنفاد .

ومن التعبير المصور قوله سبحانه : ((**فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز**)) .

(سورة آل عمران : ١٨٥)

فلفظ الزحزحة ذاتها تخيل حركتها المعهودة .

ومن الصور الحسية لاضاعة الأعمال قوله سبحانه :

((**وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا**)) .

(سورة الفرقان : ٢٣)

ومن بدائع القرآن فى تجسيم المعنويات قوله سبحانه : ((**الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار**)) .

(سورة ابراهيم : ٢٤ ــ ٢٦)

والكلمة الطيبة هنا هى كلمة التوحيد ، وهى شهادة أن لا اله الا الله ، وهى كلمة طيبة يترتب عليها أثر حسن وأعمال جليلة النفع وتثمر الأقوال والأفعال الحسنة والعبادات والمعاملات المشروعة ، وقد صور القرآن أثرها بصورة شجرة طيبة مثمرة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها صاعد الى السماء . وتؤتى ثمارها الحسنة بين وقت وآخر .

والكلمة الخبيثة هى كلمة الشرك تقطع صاحبها عن الله وقد صورها القرآن بشجرة الشوك أو الحنظل التى يقطعها الفلاح لاصلاح ارضه فتنتهى حياة الشجرة بالهلاك كما تنتهى حياة المشرك بالعذاب .

ويعبر القرآن عن العمل المعنوى فيجعله حاضرا بنفسه كانه وديعة تسلم فيقــول سبحانه : « **يوم تجــد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمدا بعيدا** » (سورة آل عمران : ٣٠) . ويقول : « **ووجدوا ما عملوا حاضرا** » (الكهف : ٤٩) . ويقول : « **وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله** » .

(سورة البقرة : ١١٠)

ويتحدث القرآن عن حالة نفسية معنوية هى حالة الضيق والضجر فيجسمها فى صور حسية تجعل ضيق الأرض المعنوى ضيقا حسيا واضحا وراقعيا ، اذ يصف القرآن ثلاثة من المسلمين تخلفوا عن الغزو مع الرسول فى جيش العسرة ثم ندموا وتابوا فيقول : « **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا الا ملجا من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم** » .

(سورة التوبة : ١٨٨)

ويقول سبحانه : « **وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحنــاجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** » (ســورة غافر : ١٨) . فالقلوب كأنما تفارق مواضعها ، وتبلغ الحناجر حقا من شدة الضيق .

وهــكذا تتكشف للنــاظر فى القرآن آفاق وآفاق ، من التنــاسق والاتساق ، فمن نظم فصيح ، الى سرد عذب ، الى معنى مترابط ، الى نسق متسلسل الى لفظ معبر ، مصور ، الى تصوير مشخص ، الى تخيل مجسم ، الى موسيقى داخلية ، الى اتساق فى الأجزاء ، الى تناسق فى الاطار ، وبهذا كله يتم الابداع ، ويتحقق الاعجاز .



طريقة القرآن

من طريقة القرآن انه يتخير الأسلوب المناسب للفكرة ، وينـوع فى نظـام الفواصل والقوافى بتنوع الموضوع الذى يعرضه ، ويتبع ذلك طول الفاصلة وقصرها وطريقة بنائها اللفظى من حيث السهولة والخشونة ، وتخير الحرف الأخير الذى تختم به فمن ذلك مـا جاء فى سـورة مريم فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، وتليهـا قصـة مريم وعيسى وتسير الفاصلة والقافية هكذا .

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . اذ نادى ربه نداء خفيا .. » (سورة مريم : ٢ ـ ٣) .. الخ الآيات .

ثم يقول : **« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا .. »** (سورة مريم : ١٦ ـ ١٧) الى أن تنتهى القصتان على روى واحد . وفجاة يتغير هذا النسق بعد آخر فقرة فى قصة عيسى على النحو التالى :

« قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا اينما كنت واوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا .. » .

(سورة مريم : ٣٠ ـ ٣٢)

الى أن يقول سبحانه : **« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون . وان الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم .. »** .
(سورة مريم : ٣٤ ـ ٣٦)

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول ويتغير ختام الفاصلة فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلها مد طويل وكأنما هو فى هذه الآيات الأخيرة يصدر حكما بعد نهاية القصة ، مستمدا منها ، ولهجة الحكم تقتضى أسلوبا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى ايقاعا قويا رصينا بدل ايقاع القصة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التغيير فاذا انتهى القرآن من اصدار الحكم والقاء القرار عاد الى النظام الأول فى القافية والفاصلة، لأنه عاد الى قصص جديد على النحو التالى :

« فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم .. » . (سورة مريم : ٣٧) .. الخ الآيات الى أن يقول سبحانه : **« واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا . اذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ... »** .

(سورة مريم : ٤١ — ٤٣) .. الخ الآيات .

ومن ابداع القرآن أن أسلوبه اذا مس الجماد نبض بالحياة وتبدل بقدرة قادرة ، ومعجزة باهرة .

فالأرض والسماء والشمس والقمر والجبال والوديان والدور العامرة والآثار الداثرة والنبات والحيوان والأشجار والأفنان ... كل أولئك أحياء ، أو مشاهد تخاطب الأحياء .

قال تعالى : **« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا »** (سورة المزمل : ١٤) فهى حية ترجف كالآدميين .

ويقول سبحانه : **« فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به كان وعده مفعولا »** . (سورة المزمل : ١٧ — ١٨) . فالسماء المنفطرة بجوارها الأطفال الشيب .

وهول الطوفان يصور فى الطبيعة والى جانبها يصور فى والد وولده : ذلك ناج فى السفينة ملهوف على فلذة كبده ، وهذا يجرفه الطوفان حيث : **« لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم »** (سورة هود : ٤٣) . وان الهول هنا ليكاد يكون أعظم من الهول فى الطبيعة : **« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال »** (سورة هود : ٤٢) فما كان الموج فى المشهد الا اطارا للهول النفسى الذى يفرق بين الابن وابيه ويفصم الصلة التى لا تفصمها الأهوال .

***

العجز عن معرفة الاعجاز

من علماء البلاغة من يرى أن الاعجاز شيء لا يمكن التعبير عنه ولكن النفس تحس حيال القرآن باحساس غامض أساسه العجز أمام قدرته وقوته وبيانه ، قال السكاكي في كتابه مفتاح العلوم : « اعلم ان شأن الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا طريق الى تحصيله لغير ذوى الفطر السليمة الا باتقان علمى المعانى والبيان والتمرن فيها » (١) .

وذكر ابن أبى الحديد ـ صاحب شرح نهج البلاغة ـ ان معرفة مقامات الكلام لا تدرك الا بالذوق ، فقال :

اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح ، والرشيق والأرشق ، والجلى والأجلى ، والعلى والأعلى من الكلام أمر لا يدرك الا بالذوق ، ولا يمكن اقامة الأدلة المنطقية عليه ، وهو بمنزلة جاريتين : احداهما بيضاء مشربة حمرة دقيقة الشفتين نقية الشعر ، كحلاء العينين اسيلة الخد ، دقيقة الأنف ، معتدلة القامة ، والأخرى دونها فى هذه الصفات والمحاسن ، لكنها احلى فى العيون والقلوب منها واليق واملح ولا يدرى لأى سبب كان ذلك ، لكنه بالذوق والمشاهدة يعرف ولا يمكن تعليله وهكذا الكلام (٢) .

وذهب الخطابى الى ان اعجاز القرآن يرجع الى « صنعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس فانك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا اذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حال اخرى ما يخلص منه اليه (٣) . قال تعالى : **« لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعًا من خشية الله »** .

(سورة الحشر : ٢١)

وقال تعالى : **« الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد »** .

(سورة الزمر : ٢٣)

---

(١) البرهان فى علوم القرآن : ٢/١٠٠ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن : ٢/١٢٤ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن : ٢/١٠٦ .

الاعجـاز التشريعى :

من اعجاز القرآن اشتماله على العلوم الالهية واصـول العقـائد الدينية واحكام العبادات ، وقوانين الفضـائل والآداب وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ومكان .

ولا شك ان هذا الوجه من اظهر وجوه الاعجاز فان علوم العقـائد الالهية والغيبية والتشريع الدينى والمدنى والسياسى هى أرقى العلوم ، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال ، الا الأفراد القليلون ، فكيف يستطيع رجل امى لم يقرأ ولم يكتب ، ولا نشأ فى بلد علم أو تشريع ، أن ياتى بمثل ما فى القرآن منها تحقيقا وكمالا ، ويؤيده بالحجج والبراهين ، بعد أن قضى ثلثى عمره لا يعرف شيئا منها ، ولا ينطق بقاعدة ولا أصل من اصولها ، ولا حكم بفرع من فروعها ، الا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى ؟ .

نور القرآن وهدايته :

نجح القرآن أى نجاح فى رسالته للهداية والاصلاح ، فهو الذى غرس الايمان فى الكبار والصغار غرسا ، وبثه روحا عاما ، وأشعر النفوس بما جاء فيه اشعارا ودفعها الى التخلى عن موروثاتها ومقدساتها جملة ، وحملها على التحلى بهديه الكريم علما وعملا .

وقد تم ذلك بالاقتناع والرغبة والرضا والاذعان **« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »** .

(سورة البقرة : ٢٥٦)

أما السيف ومشروعية الجهاد فى الاسلام فلم يكن لأجل تقرير عقيدة فى نفس ، ولا لاكراه شخص أو جماعة على عبادة ، ولكن لدفع أصحاب السيوف عن اذلاله واضطهاده ، وحملهم على ان يتركوا دعوة الحق حرة طليقة ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

هذا الأساس الذى وضعه القرآن وحده هو سر نهضته ، وان شئت فقل هو نار ثورته بل هو نور هدايته ، والروح السارى لاحياء العالم بدعوته ، وذلك عن طريق أسلوبه المعجز الذى هز النفوس والمشاعر ، وملك القلوب والعقول ، وكان له من السلطان ما جعل اعداءه منذ نزل الى اليوم يخشون بأسه وصولته ، ويخافون تأثيره وعمله ، اكثر ممـا

يخافون الجيوش الفاتحة ، والحروب الجائحة ، لأن سلطان الجيوش والحروب لا تعدو هياكل الأجسام والأشباح ، أما سلطان هذا الكتاب فقد امتد الى النفوس والأرواح ، بما لم يعهد له نظير فى آية نهضة من النهضات .

ولقد اشار القرآن نفسه الى هذا الوجه من اعجازه ، حين سمى الله كتابه روحا من أمره بقوله : ((**وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا**)) (سورة الشورى : ٥٢) وحين سماه نورا بقوله : ((**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين**)) (سورة المائدة : ١٥) .

عشرة اوجه للاعجاز :

ذكر القرطبى عشرة أوجه لاعجاز القرآن هى :

١ ــ نظمه البديع المخالف لكل نظم معهود .

٢ ــ اسلوبه العجيب المخالف لجميع الأساليب .

٣ ــ جزالته التى لا يمكن لمخلوق .

٤ ــ التصرف فى الألفاظ العربية على وجه لا يستقل به عربى .

٥ ــ الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان ، كوعد المؤمنين بالنصر .

٦ ــ الاخبار عن المغيبات المستقبلة التى لا يطلع عليها الا بالوحى .

٧ ــ ما تضمنه القرآن من العلوم المختلفة التى بها قوام الأنام .

٨ ــ اشتماله على الحكم البالغة .

٩ ــ عدم الاختلاف والتناقض بين معانيه .

١٠ــ الاخبار عن الأمور التى تقدمت من اول الدنيا الى وقت نزوله بما لم تجر العادة بصدوره ممن لم يقرأ الكتاب ولم يتعلم ولم يسافر الى حيث يختلط بأهل الكتاب .

وذكر صاحب المنار سبعة أوجه لاعجاز القرآن أهمها :

صدور القرآن من أمى ، وبلاغته الفائقة ، وغرابة أسلوبه وانباؤه الغريبة الصادقة .

وقد بالغ بعض المحدثين فى عد وجوه الاعجاز حتى ادخل فيها ما ليس منها والقرآن غنى عن اطرائه بما ليس فيه ولا من خصائصه ، ويحضرنى فى هذا المعنى ما رواه البخارى : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« لا تطرونى ، كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، قالوا : انه ابن الله »** .

كما أن بعض المبشرين المحدثين حاول النيل من القرآن فذكر ان اعجاز القرآن مقصور على الناحية اللفظية وهى ناحية الفصاحة وحدها . وتطرق من ذلك الى ان الفصاحة لا تخص القرآن وحده بل يشترك معه كل كلام فصيح وهى مغالطة مكشوفة ، فأسلوب القرآن يتميز على غيره من الأساليب من ناحية لفظه ومن ناحية معناه .

فمن خصائص الأسلوب القرآنى ما ياتى :

١ ــ مسحة البداوة مع اشتماله على بسائط الحضارة .

٢ ــ ارضاؤه العامة والخاصة .

٣ ــ ارضاؤه العقل والعاطفة .

٤ ــ جودة السبك واحكام السرد .

٥ ــ براعته فى تصريف القول .

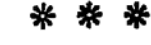
٦ ــ جمع القرآن بين الاجمال والبيان .

٧ ــ القصد فى اللفظ مع الوفاء بالمعنى .

هذه الوان من نواحى الاعجاز فى القرآن الكريم وهناك جوانب متعددة من اعجازه ، منها ما ادركه العلماء ومنها ما عجزوا عنه ولا يزال الزمان وتجدده ، والعلم وتطوره يكشفان من اعجاز هذا الكتاب كل جديد . ويتضح للعيان ما فيه من اعجاز الهى فى التشريع ، واعجاز الهى فى العقيدة ، واعجاز الهى فى الحكمة ، واعجاز الهى فى الارشاد الى خير سبل السعادة والنجاة فى الدنيا والآخرة ، واعجاز الهى فى التبشير والانذار والترغيب والترهيب ، واعجاز الهى فى عرض بدائع الكون ومشاهد عظمته وروعته ، ونواميسه الماثلة فى كل شىء ، والبرهنة بها على وجوب وجود الله وقدرته واحاطته ، وأعجاز الهى فيما احتواه من فصول الجدل والحجاج والافحام والالزام ، واعجاز الهى فيما احتواه من الغيبيات السالفة والغيبيات الآتية ،

واعجاز الهى فى صلاح ما أتى به من كل ذلك لكل زمان ومكان ، وجنس ولون وعقل وثقافة .

ويؤيد ذلك ما رواه الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((**الا انها ستكون فتنة**)) . فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال : ((**كتاب فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا يزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى تنته الجن اذا سمعته حتى قالوا : ((انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد)) ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم**)) .



الفصل الرابع
القصة والمثل والقسم

١ ـ القصة فى القرآن

٢ ـ امثال القــرآن

٣ ـ القسم فى القرآن

القصة في القرآن

القصة هي وسيلة للتعبير عن الحياة أو قطاع معين من الحياة يتناول حادثة واحدة أو عددا من الحوادث بينها ترابط سردى ، ويجب ان تكون لها بداية ونهاية (١) .

ويقسم الفن القصصي من ناحية القالب والمظهر الى اربعة اقسام :

١ ـ **الاقصوصة** : وهى قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبا من حياة ، لا كل جوانب هذه الحياة . فهو يقتصر على سرد حادثة ، أو بضع حوادث يتألف منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته . على أن الموضوع ، مع قصره يجب أن يكون تاما ناضجا من وجهة التحليل والمعالجة ، ولا يتهيأ هذا الا ببراعة يمتاز بها الكاتب الاقصوصى ، اذ ان المجال امامه ضيق محدود ، يتطلب التركيز الفنى .

٢ ـ **القصة** : وتتوسط بين الاقصوصة والرواية ، وفيها يعالج الكاتب جوانب ارحب مما يعالج فى الاولى ، فلا باس هنا أن يطول الزمن وتمتد الحوادث ويتوالى تطورها فى شىء من التشابك .

٣ ـ **الرواية** : وفيها يعالج المؤلف موضوعا كاملا او اكثر ، زاخرا بحياة تامة او اكثر ، فلا يفرغ القارىء منها الا وقد الم بحياة البطل أو الأبطال فى مراحلها المختلفة .

٤ ـ **اما الحكاية** : فهى سرد واقعة او وقائع حقيقية او خيالية لا يلتزم فيها الحاكى قواعد الفن الدقيقة ، بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه .

---

(١) القرآن والقصة الحديثة محمد كامل حسن المحامى ص ٩ .

ويفرض العلماء فى القصة الفنية بمعناها العام وجود ثلاثة عناصر رئيسية هى الموضوع ، والشخصيات ، والحوار . ثم يضيفون بدقة شروط كل من هذه العناصر ويبينون أنواع الخلل التى تطرأ عليها فتحيلها من قصة فنية الى غير فنية ، ومن القواعد التى يقرونها ما يلى :

١ ــ أن تكون للقصة وحدة فنية .

٢ ــ أن يراعى فى عرضها جانب التلميح ما أمكن .

٣ ــ أن يعنى كاتبها برسم شخصيات القصة .

٤ ــ أن يكون للقصة هدف ومغزى .

٥ ــ الا تظهر فيها الموعظة او الحكمة ظهورا مباشرا .

٦ ــ الا تخلو من عنصر التشويق .

٧ ــ أن يكون أسلوبها طبيعيا لا هو بالمتهافت ولا بالبالغ الصعوبة .

والقصة فى القرآن الكريم ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وادارة حوادثه ــ كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى الى غرض فنى طليق ، انما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة الى أغراضه الدينية والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء والقصة احدى وسائله لابلاغ هذه الدعوة وتثبيتها .

وقد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها وفى طريقة عرضها ، وادارة حوادثها ، لمقتضى الاغراض الدينية ، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الدينى لم يمنع بروز الخصائص الفنية فى عرضها ، ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى فى التعبير ، وهى التصوير (١) .

انواع القصص فى القرآن :

القصص فى القرآن ثلاثة انواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم الى قومهم ، والمعجزات التى أيدهم الله بها وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ سيد قطب ص ١١٧ .

وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين ، كقصص نوح وابراهيم وموسى وهارون، وعيسى ، ومحمد وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعا افضل الصلاة والسلام .

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث عابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم ، كقصة الذين اخرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت وطالوت ، وجالوت ، وابنى آدم ، واهل الكهف ، وذى القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم وأصحاب الاخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كغزوة بدر واحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى سورة التوبة وغزوة الاحزاب فى سورة الأحزاب ، والهجرة ، والاسراء ونحو ذلك (١) .

اغراض القصة فى القرآن :

سيقت القصة فى القرآن لتحقيق اغراض دينية بحتة ، وقد تناولت من هذه الاغراض عددا وفيرا من الصعب استقصاؤه ، لانه يكاد يتسرب الى جميع الأغراض القرآنية ، فاثبات الوحى والرسالة ، واثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان فى أساسها والانذار والتبشير ، ومظاهر القدرة الالهية ، وعاقبة الخير والشر ، والعجلة والتريث ، والصبر والجزع ، والشكر والبطر ، وكثير غيرها من الأغراض الدينية والمرامى الخلقية قد تناولته القصة وكانت اداة له وسبيلا اليه .

فاذا نحن استعرضنا هنا اغراض القصة القرآنية فانما نثبت اهم هذه الأغراض واوضحها وهى :

١ ـ اثبات الوحى والرسالة ، وبيان ان الدين كله من عند الله من عهد نوح الى عهد محمد . وان المؤمنين كلهم أمة واحدة والله الواحد رب الجميع .

وفى سورة الأنبياء مظهر واضح لوحدة الرسالة فقد تحدثت السورة عن قصص الأنبياء فذكرت طرفا من قصة موسى وهارون وابراهيم ولوط وداود وسليمان وايوب واسماعيل وادريس وذا الكفل وذا النون وزكريا

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٦٠ .

ومريم ، ثم عقب على ذكرهم جميعا بالآية الكريمة : **« ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون »** (سورة الأنبياء : ٩٢) وهذا هو الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل .

وغيره من الأغراض الأخرى يأتى عرضا وفى ثناياه .

٢ — بيان أن وسائل الأنبياء فى الدعوة موحدة ، وان استقبال قومهم متشابهة ، فضلا عن أن الدين من عند الله اله واحد ، وأنه قائم على أساس واحد . وفى سورة هود يقول القرآن الكريم :

« ولقد ارسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين • أن لا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم اليم ... » . الخ الآيات .

(سورة هود : ٢٥ — ٤٩)

« والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان انتم الا مفترون » .. الخ الآيات .

(سورة هود : ٦١ — ٦٨)

« والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » .. الخ الآيات .

(سورة هود ٦١ — ٦٨)

فنجد فى هذه الآيات من سورة هود أن دعوة الرسل واحدة واجابة قومهم تكاد تكون واحدة ، وان قصة كل نبى تتشابه مع الأخرى فى الدعوة والجهاد والنضال ، والبداية والختام .

٣ — بيان أن الله ينصر أنبياءه فى النهاية ويهلك الكاذبين ، وفى ذلك تثبيت لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلوب الأمة المحمدية ، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل واهله .

لقد نصر الله نوحا واغرق قومه ، وانقذ ابراهيم من النار ونجاه من كيد الكافرين وانقذ لوطا واهلك قومه بالخسف والعذاب وقصص الأنبياء يحكى عاقبة المكذبين بالرسل وما ذاقوا من الوان العذاب . قال تعالى :

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

(سورة العنكبوت : ٣٩ ـ ٤٠)

وتلك هى النهاية الواحدة للمكذبين .

ويقول سبحانه : **« وكلا نقص عليك من انبـاء الرسـل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » .**

(سورة هود : ١٢٠)

٤ ـ تصديق الأنبياء السابقين واحياء ذكراهم وتخليد آثارهم وبيان نعمة الله تعالى عليهم كقصص سليمان وداود وأيوب وابراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى ، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة فى مواقف شتى .

٥ ـ وللقصة فى القرآن اغراض اخرى متفرقة منها : بيان قدرة الله على الخوارق : كقصة خلق آدم وقصة مولد عيسى ، وقصة ابراهيم والطير الذى آب اليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءا وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها وقد أماته الله مائة عام ثم بعثه .

وبيان عاقبة الاستقامة والصلاح ، وعاقبـة الانحراف والافسـاد كقصة ابنى آدم ، وقصة صاحب الجنتين . وقصص بنى اسرائيل بعـد عصيانهم . وقصة سد مارب وقصة أصحاب الأخدود .

وبيان الفارق بين الحكمة الانسانية العاجلة ، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة كقصة موسى والخضر .

الى آخر هذه الأغراض الوعظية ، التى كانت تسـاق لها القصص فتفى بمغزاها .

* * *

آثار خضوع القصة للغرض الدينى

خضعت القصة فى القرآن للأغراض الدينية فترك هذا الخضوع آثارا واضحة فى طريقة عرضها بل وفى مادتها ومن أوضح هذه الآثار ما يأتى :

١ ــ تكرار القصة الواحدة :

ونعنى بالتكرار ان ترد القصة الواحدة مكررة فى مواضع شتى ، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها ــ غالبا ــ انما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه اشارات سريعة لموضع العبرة فيها . أما جسم القصة كله فلا يكرر الا نادرا ولمناسبات خاصة فى السياق .

وحين يقرأ الانسان هذه الحلقات المكررة ملاحظا السياق الذى وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماما ، فى اختيار الحلقة التى تعرض هنا او تعرض هناك ، وفى طريقة عرضها كذلك ، ويجب ان نذكر دائما أن القرآن كتاب دعوة دينية ، وأن التناسق بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم .

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررا فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة ــ يتضح حين تقرأ بحســب ترتيب نزولها ــ فمعظم القصص يبدأ باشارة مقتضبة ثم تطول هذه الاشارات شيئا فشيئا ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون فى مجموعها جسم القصة ، وقد تستمر الاشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى اذا استوفت القصة حلقاتها كانت هذه الاشارات هى كل ما يعرض منها .

ونضرب مثالا على هذا النظام ، قصة موسى ، اذ انها أشد القصص فى القرآن تكرارا فهى من هذه الوجهة تعطى فكرة كاملة عن هذا التكرار . وردت هذه القصة فى حوالى ثلاثين موضعا فى القرآن : من اهمها ما ذكر فى عشرين سورة سنذكرها حسب ترتيب نزولها :

فى ســورة الأعلى ثم فى سورة الفجر ثم فى سورة الأعــراف .. ثم الفرقان ثم مريم ثم طه ، ثم الشــعراء ثم النمل ثم القصص ثم الاسراء ثم يونس ثم هود ثم غافر ثم فصلت ثم الذاريات ثم الكهف ثم إبـراهيم ثم الأنبياء ثم النساء ثم المائدة .

واذا قرانا الآيات التى تناولت قصة موسى فى السور راينا ان فيها نوعا من التكرار وانه ــ فيما عدا ستة مواضع ــ اشارات وعظية الى

القصـــة اقتضـــاها السياق ، أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقــريبا ، واذا كررت حلقة منها جاءت بشيء جديد في تكرارها . وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى وعلى ضــوئها ندرك أن ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق الذي يخيل لبعض من يقرءون القرآن بلا تدقيق ولا امعان.

٢ ــ انتخاب اجزاء من القصة :

وكان من آثار خضـــوع القصة في القرآن للغــرض الديني ــ غــير التكرار ــ أن تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض ، ومن الحلقة التي تتفق معه ، فمرة تعرض القصة من أولها ومرة من وسطها ومرة من آخرها وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك ، حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك . ذلك ان الهدف التاريخي لم يكن من بين اهداف القرآن الاساسية كالهدف القصصي سواء ، فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الديني (١) . على النحو التـــالي :

(أ) نجد قصصا تعرض منذ الحلقة الاولى : حلقة ميلاد بطلها ، لأن في مولده عظمة بارزة وذلك مثل قصة ميلاد آدم وعيسى . لأن مولدهما دليل القدرة الكاملة لله ((**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**)) (سورة آل عمران : ٥٩)

كما عرض القرآن قصة موسى من حين مولده ، ونجاته من القتـــل وقصة اسماعيل حيث ولد لابراهيم على الكبر ، وقصة ميلاد يحيى حين استجاب الله لدعاء والده زكريا .

(ب) ونجد قصصا أخرى تعرض من حلقة متأخرة نســبيا . فيوسف تبدأ قصته صبيا يرى رؤيا تسير حياته كلها ، وتؤثر في مســتقبله ، وابراهيم تبدأ قصته فتى ينظر في السماء فيرى نجما فيظنه الهه فاذا افل قال لا أحب الآفلين ثم يرى القمر والشمس ... ثم يفيء الى ربه ويمضي في رســالته .

(جـ) ثم نجد قصصا لا تعرض الا في حلقة متأخرة جدا . فنــوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وكثيرون غيرهم ، لا تعرض قصصــهم

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٣٢ .

الا عند حلقة الرسالة ، وهى الحلقة الوحيدة التى تعرض من حياتهم لأنها اهم حلقة منها ، والعبرة كامنة فيها .

٣ ـ الموعظة :

وكان من اثر خضوع القصة للغرض الدينى ان تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة ، قبلها وبعدها وفى ثناياها كذلك .

وفى قصة يوسف وقصة آدم ونوح وهود ما يوضح ذلك واذا تتبعنا قصص القرآن وجدنا عقب كل قصة تعقيبا دينيا يناسب العبرة فيها .

« لأن الغرض الأساسى من سياق القصة فى القرآن هو الغرض الديني أولا وقبل جميع الأغراض » (١) .

تنوع المفاجاة وطريقة العرض

ان خضوع القصة للغرض الدينى لم يمنع بروز الخصائص الفنية فى عرضها فقد لمس القرآن الوجدان ، واتبع فى ذلك طريقة التصوير ، فبلغ الغاية بمادته وطريقته وجمع بين الغرض الدينى والغرض الفنى من اقرب طريق ومن ارفع طريق .

ومن الخصائص الفنية فى القصة القرآنية ما يأتى :

تنوع طريقة المفاجاة :

١ ــ فمرة يكتم سر المفاجاة عن البطل وعن النظارة ، حتى يكشف لهم معا فى آن واحد ، مثال ذلك قصة موسى مع الخضر فى سورة الكهف ، فقد خرق الخضر السفينة ثم قتل الغلام ، ثم اقام الجدار وفى نهاية القصة يبين الخضر لموسى هذه الأفعال .

٢ ــ ومرة يكشف بعض السر للنظارة . وهو خاف على البطل فى موضع وخاف عن النظارة وعن البطل فى موضع آخر فى القصة الواحدة .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٨ .

مثال ذلك عرش بلقيس الذى جىء به فى غمضة عين . ثم اسلام بلقيس فى النهاية بعد أن رات صرحا ممردا من قوارير فقالت : « **رب انى ظلمت نفسى واسلمت مع سليمان لله رب العالمين** » .
(سورة النمل : ٤٤)

٣ ـ ومرة يكشف السر للنظارة منذ أول لحظة مثل قصة اصحاب الجنة فى سورة (ن) التى تبدأ بقوله تعالى : « **انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين** »
(سورة ن : ١٧)

تنوع طريقة العرض :

من الخصائص الفنية للقصة القرآنية تنوع طريقة العرض .

ونشاهد فى قصص القرآن اربع طرائق مختلفة للابتداء فى عرض القصة على النحو التالى :

١ ـ مرة يذكر ملخصا للقصة يسبقها ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها الى نهايتها وذلك كطريقة قصة (أهل الكهف) فى سورة الكهف .

٢ ـ ومرة يذكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها وذلك كقصة موسى فى سورة القصص ، وقريب من هذا النحو قصة يوسف فهى تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هى تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها .

٣ ـ ومرة يذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ويكون فى مفاجآتها الخاصة ما يغنى مثل ذلك قصة مريم عند مولد عيسى ومفاجآتها، وقصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس فى سورة النمل .

٤ ـ ومرة يحيل القصة تمثيلية مثل قصة ابراهيم وحواره مع قومه عند تكسير الاصنام ، وحواره مع ولده عندما أمر بذبحه وتعاونه مع ولده فى بناء البيت ، قال تعالى : « **واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم** » (سورة البقرة : ١٢٧) وفى حوار ابراهيم مع ربه يقول القرآن : « **واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى**

الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم » .

(سورة البقرة : ٢٦٠)

تلك بعض سمات القصة فى القرآن ، وهى سمات تيسر القول بأن « القرآن يجعل من الجمال الفنى أداة مقصورة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية »(١) .

ولكن مظاهر التنسيق الفنى فى القصة القرآنية ، لا تخضع للقواعد الفنية للقصة الحديثة ولا تتقيد بها .

فهى تتوافق معها فى بعض الاحيان ، وقد تنفرد بابداعها الفنى فى بعض الأحيان ، لكنها فى الاتفاق والاختلاف تبقى دائما قصة قرآنية لها سماتها وخصائصها وميزاتها الخاصة دون أن تكون عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وادارة حوادثه ، ويبقى هدفها الأول والأخير هو هدف القرآن ذاته . قال تعالى : **« نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » .**

(سورة يوسف : ٣)

* * *

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٣٩ .

أمثال القرآن

من أساليب القـرآن الكريم فى ضروب بيانه ونواحى اعجازه ضرب الأمثال للناس وابراز المعقول فى صورة المحسوس وعرض الغائب فى معرض الحاضر ، وقياس النظير على النظير ، وبذلك يســلك القرآن سبيله الى الاقناع بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد أفـرد أمثـال القرآن بالتأليف عدد من العلمـاء منهم الشيخ ابو عبد الرحمن محمد بن حسين السـلمى النيسابورى المتوفى سنة ٤٠٦هـ والامام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥٤هـ والامام ابو الحسن على بن محمد بن حبيب المـاوردى الشافعـى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وعقد السيوطى فى الاتفاق بابا لأمثال القرآن وفصلا لاقسام الأمثال وأنواعها (١) وفعل ذلك ابن القيم فى كتابه اعلام الموقعين .

وقد ذكر الله تعـالى فى كتـابه أنه يضرب الأمثـال فقال سبحانه : **« ولقد ضربنا للنـاس فى هذا القـرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون »** . (سورة الزمر : ٢٧)

وقال تعالى : **« وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون »** (سورة العنـكبوت : ٤٣) **« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »** (سورة الحشر : ٢١)

واخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«ان القرآن نزل على خمسة اوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وامثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال»** .

---

(١) الاتقان : ٢/١٣١ ــ ١٣٢ .

قال الماوردى من أعظم علوم القرآن علم أمثاله والناس فى غفلة عنه لاشتغالهم بالامثال واغفالهم الممثلات ، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام والناقة بلا زمام .

وقال غيره : قد عده الامام الشافعى مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال : ثم معرفة ما ضرب فيه من الامثال الدالة على طاعته المبينة لاجتناب ناهيه ، وقال الشيخ عز الدين انما ضرب الله الامثال فى القرآن تذكيرا ووعظا فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب او على احباط عمل أو على مدح أو ذم أو نحوه فانه يدل على الاحكام . وقال غيره ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور كثيرة منها :

التذكير والوعظ والحث والزجر والأعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس فان الامثال تصور المعانى بصورة الاشخاص لأنها اثبت فى الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلى والغائب بالشاهد (١) .

وقال الزركشى فى البرهان : ومن حكمته تعليم البيان وهو من خصائص هذه الشريعة .

تعريف المثل :

الأمثال : جمع مثل ، والمثل والمثيل : كالشبه والشبه والشبيه لفظا ومعنى .

والمثل فى الأدب : قول محكى سائر يقصد به تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله ، أى يشبه مضربه بمورده ، مثل « رب رمية من غير رام » أى رب مصيبة حصلت من رام شانه أن يخطىء ، وأول من قال هذا الحكم بن يغوث النقرى ، يضرب للمخطىء يصيب احيانا وعلى هذا فلا بد له من مورد يشبه مضربه به . ولا تختلف صيغة المثل فى كل استعمالاته فيخاطب به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث بصيغته التى ورد عليها ، ويطلق المثل عى الحال والقصة العجيبة الشان.

---

(١) الاتقان : ١٣١/٢ وانظر تاريخ التفسير للشيخ قاسم القيسى مطبعة المجمع العلمى بالعراق ص ٩٩ وفيه نص كلام السيوطى .

وبهذا المعنى فسر لفظ المثل فى كثير من الآيات . كقوله تعالى : **« مثل الجنة التى وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن »** (سورة محمد : ١٥) (١) : اى قصتها وصفتها التى يتعجب منها .

واشار الزمخشرى الى هذه المعانى الثلاثة فى كشافه فقال : « والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير ، ثم قيل القول السائر الممثل مضربه بمورده مثل . ولم يضربوا مثلا ولا راوه اهلا للتيسير ولا جديرا بالتداول والقبول الا قولا فيه غرابة من بعض الوجوه ثم قال : وقد استعير المثل للحال او الصفة او القصة اذا كان لها شأن وفيها غرابة .

وهناك معنى رابع ذهب اليه علماء البيان فى تعريف المثال ، فهو عندهم المجاز المركب الذى تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله . وصلة الاستعارة التمثيلية . كقولك للمتردد فى فعل امر : مالى أراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى .

وقيل فى ضابط المثل كذلك : انه ابراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا . والمثل بهذا المعنى لا يشترط ان يكون له مورد . كما لا يشترط ان يكون مجازا مركبا .

واذا نظرنا الى امثال القرآن التى يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآية المشتملة على تمثيل حال امر بحال امر آخر ، سواء اورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة ، أم بطريق التشبيه الصريح ؟ او الآيات الدالة على معنى رائع بايجاز ، أو التى يصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه ، فان الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل .

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها على ما يذكر فى كتب اللغة لدى من ألفوا فى الامثال ، اذ ليست أمثال القرآن اقوالا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها ، ولا يستقيم حملها على معنى الامثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله . ولذا كان الضابط الأخير اليق بتعريف المثل فى القرآن : فهو ابراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس ، سواء كانت تشبيها او قولا مرسلا .

---

(١) انظر بلاغة القرآن للأستاذ محمد خضر حسين ص ٢٦ .

فابن العتم يقول فى امثال القرآن : تشبيه شيء بشيء فى حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، او احد المحسوسين من الآخر واعتبار احدهما بالآخر . ويسوق الامثلة : فنجد اكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى : ((**انما مثل الحياة كماء انزلناه من السماء**)) (سورة يونس : ٢٤) ومنها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمنى ، كقوله تعالى : ((**ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه**)) (سورة الحجرات : ١٢) اذ ليس فيه تشبيه صريح . ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة ، كقوله تعالى : ((**يايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**)) (سورة الحج : ٧٣) ، فقوله : ((**ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا**)) قد سماه الله مثلا وليس فيه استعارة ولا تشبيه .

انواع الامثال فى القرآن :

الأمثال فى القرآن ثلاثة انواع : ١ ــ الأمثال المصرحة ٢ ــ الأمثال الكامنة ٣ ــ الأمثال المرسلة .

النوع الاول : الأمثال المصرحة : وهى ما صرح فيها بلفظ المثل ، او ما يدل على التشبيه . وهى كثيرة فى القرآن نورد منها ما ياتى :

(أ) قوله تعالى فى حق المنافقين : ((**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ...**)) (سورة البقرة : ٧ ــ ٢١٠) .

ففى هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلا ناريا فى قوله : ((**كمثل الذى استوقد نارا ..**)) لما فى النار من مادة النور ، ومثلا مائيا فى قوله : ((**او كصيب من السماء**)) لما فى الماء من مادة الحياة ، وقد نزل الوحى من السماء متضمنا لاستنارة القلوب وحياتها ، وذكر الله حظ المنافقين فى الحالين . فهم بمنزلة من استوقد نارا للاضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديا بالدخول فى الاسلام ، ولكن لم يكن له اثر فى قلوبهم . فذهب الله بما فى النار من الاضاءة ((**ذهب الله بنورهم**)) وابقى ما فيها من الاحراق . وهذا مثلهم النارى .

وذكر مثلهم المائى فشبههم بحال من اصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع اصبعيه فى أذنيه وغمض عينيه خوفا من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن بزواجره واوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق .

(ب) وذكر الله المثلين : المائى والنارى - فى سورة الرعد للحق والباطل . فقال تعالى : « **انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** » .
(سورة الرعد : ١٧)

شبه الوحى الذى انزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى انزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل اذا جرى فى الأودية احتمل زبدا وغثاء ، فكذلك الهدى والعلم اذا سرى فى القلوب اثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا المثل المائى فى قوله : « **انزل من السماء ماء** .. » وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

وذكر المثل النارى فى قوله : « **ومما يوقدون عليه فى النار** .. » فالمعادن من ذهب او فضة او نحاس او حديد عند سكبها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله من الجوهر الذى ينتفع به فيذهب جفاء . فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث .

النوع الثانى من الأمثال : الأمثال الكامنة - وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى ايجاز ، يكون لها وقعها اذا نقلت الى ما يشبهها ، ويمثلون لهذا النوع بامثلة منها :

١ - ما فى معنى قولهم « خير الامور الوسط » .

(أ) قوله تعالى فى البقرة : « **لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك** » .
(سورة البقرة : ٦٨)

(ب) قوله تعالى فى النفقة : « **والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » .
(سورة الفرقان : ٦٧) .

(جـ) قوله تعالى فى الصلاة : « **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** » .

(سورة الاسراء : ١١٠) .

(د) قوله تعالى فى الانفاق : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط** » .

(سورة الاسراء : ٢٩) .

٢ ــ ما فى معنى قولهم : « ليس الخبر كالمعاينة » .

قوله تعالى فى ابراهيم عليه السلام : « **قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** » .

(سورة البقرة : ٢٦٠) .

٣ ــ ما فى معنى قولهم : « كما تدين تدان » .

قوله تعالى : « **من يعمل سوءا يجز به** » .

(سورة النساء : ١٢٣) .

٤ ــ ما فى معنى : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

قوله تعالى على لسان يعقوب « **هل آمنكم عليه الا كما آمنتكم على اخيه من قبل** » (سورة يوسف : ٦٤) وقد أورد السيوطى فى الاتقان أحد عشر مثالا من هذا القبيل (١) .

النوع الثالث : الأمثال المرسلة فى القرآن : وهى جمل ارسلت ارسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه . فهى آيات جارية مجرى الأمثال .

من أمثلة ذلك ما يأتى :

١ ــ « **الآن حصحص الحق** »

(سورة يوسف : ٥١)

٢ ــ « **ليس لها من دون الله كاشفة** »

(سورة النجم : ٥٨)

---

(١) الاتقان : ٢/١٣٢ وقارن بالتعبير الفنى فى القرآن للدكتور بكرى شيخ أمين : ص ٢٢٩ . ومباحث فى علوم القرآن لمناع القطاع : ص ٢٤٤ .

٣ ـ « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » (سورة يوسف : ٤١)

٤ ـ « اليس الصبح بقريب » (سورة هود : ٥٨)

٥ ـ « لكل نبا مستقر » (سورة الانعام : ٦٧)

٦ ـ « ولا يحيق المكر السيىء الا باهله » (سورة فاطر : ٤٣)

٧ ـ « قل كل يعمل على شاكلته » (سورة الاسراء : ٨٤)

٨ ـ « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » (سورة البقرة : ٢١٦)

٩ ـ « كل نفس بما كسبت رهينة » (سورة المدثر : ٣٨)

١٠ـ « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (سورة الرحمن : ٦٠)

١١ ـ « كل حزب بما لديهم فرحون » (سورة المؤمنون : ٥٣)

١٢ـ « ضعف الطالب والمطلوب » (سورة الحج : ٧٣)

١٣ـ « لمثل هذا فليعمل العاملون » (سورة الصافات : ٦١)

١٤ـ « لا يستوى الخبيث والطيب » (سورة المائدة : ١٠٠)

١٥ـ « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » (سورة البقرة : ٢٤٩)

١٦ـ « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » (سورة الحشر : ١٤)

واختلفوا فى هذا النوع من الآيات الذى يسمونه ارسال المثل ، ما حكم استعماله استعمال الأمثال ؟

« فرآه اهل العلم خروجا عن أدب القرآن ، قال الرازى فى تفسير قوله تعالى : «لكم دينكم ولى دين » جرت عادة الناس ان يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز ، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به ، بل يتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه » .

ورأى آخرون انه لا حرج فيما يظهر ان يتمثل الرجل بالقرآن فى مقام الجد ، كأن يأسف اسفا شديدا لنزول كارثة قد تقطعت اسباب كشفها عن الناس فيقول : « ليس لها من دون الله كاشفة » أو يحاور صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه الى باطله فيقول « لكم دينكم

ولى دين » والاثم الكبير فى ان يقصد الرجل الى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح (١) .

فوائد الأمثـال :

١ ـ الأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس ، فيتقبله العقل لأن المعانى المعقولة لا تستقر فى الذهن الا اذا صيغت فى صورة حسية قريبة الفهم ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق رياء ، حيث لا يحصل من انفاقه على شىء من الثواب ، فقال تعالى : « **فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا** » .

(سورة البقرة : ٢٦٤)

٢ ـ وتكشف الأمثال عن الحقائق ، وتعرض الغـائب فى معرض الحاضر ، كقوله تعالى : « **الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** » .

(سورة البقرة : ٢٧٥)

٣ ـ وتجمع الأمثال المعنى الرائع فى عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة فى الآيات الآنفة الذكر .

٤ ـ ويضرب المثل للترغيب فى الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس ، كما ضرب الله مثلا لحال المنفق فى سبيل الله حيث يعود عليه الانفاق بخير كثير فقال تعالى : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشـاء والله واسع عليم** » .

(سورة البقرة : ٢٦١)

٥ ـ ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس ، كقوله تعالى فى النهى عن الغيبة « **ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه** » .

(سورة الحجرات : ١٢)

٦ ـ ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى فى الصحابة : « **ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** » . (سورة الفتح :

---

(١) بلاغة القرآن ص ٣٣ .

٢٩) . وكذلك حال الصحابة فانهم كانوا فى بدء الأمر قليلا ، ثم اخذوا فى النمو حتى استحكم أمرهم . وامتلأت القلوب اعجابا بعظمتهم .

٧ — ويضرب المثل حيث يكون للمثل به صفة يستقبحها الناس ، كما يضرب الله مثلا لحال من آتاه الله كتابه ، فتنكب الطريق عن العمل به ، وانحط فى اهوائه ، فقال تعالى : ((**واتل عليهم نبا الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا**)) .

(سورة الأعراف : ١٧٤ — ١٧٥)

٨ — والأمثال اوقع فى النفس ، وأبلغ فى الوعظ ، واقوى فى الزجر ، واقوم فى الاقناع ، وقد أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن للتذكرة والعبرة ، قال تعالى : ((**وضربنا لكم الأمثال**)) وقد ضربها النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه ، واستعان بها الداعون الى الله فى كل عصر لنصرة الحق واقامة الحجة ، ويستعين بها المربون ، ويتخذون من وسائل الايضاح والتشويق ، ووسائل التربية فى الترغيب أو التنفير ، فى المدح أو الذم (١) .

من امثـال العرب :

استعمل العرب المثل فى اشعارهم ونثرهم ، كما ورد فى السـنة النبوية طائفة من الأمثال ، وعقد لها أبو عيسى الترمذى بابا فى جامعه اورد فيه أربعين حديثا ، وقال القاضى أبو بكر بن العربى : لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال بابا غير أبى عيسى ، ولله دره لقد فتح بابا ، وبنى قصرا او دارا ولكنه اختط خطا صغيرا فنحن نقنع به ونشكره عليه .

وسأورد هنا طائفة من الأمثلة العربية السائرة وهى فى مجموعها تدل على مفهوم خاص للطبيعة العربية فى جاهليتها واسلامها .

* * *

---

(١) مناع القطان مباحث فى علوم القرآن .

المثــل	موضوعــه
ان البغاث بأرضنا يستنسر	يضرب للضعيف يصبر قويا
ان العوان لا تعلم الخمرة	يضرب للخبير المجرب
ان الجبال حتفه من فوقه	يضرب لمن يخاف من محذور فيصيبه .
انما اكلت يوما اكل الثور الأبيض .	الاتعاظ بما حدث للغير
اذا تخاصم اللصان ظهر المسروق .	الاختلاف ظهر الشيء الضائع .
رب أخ لك لم تلده امك	الأخوة الصادقة
أن ترد الماء بماء اكيس	الاستعداد للأمر واحكامه
ما يوم حليمة بسر	اشتهار الأمر
نفس عصام سودت عصاما	الاعتماد على النفس
زرغبا تزدد حبا	تقليل الزيارة
لعل له عذر وأنت تلوم	التماس الأعذار للناس
لا ناقتى فى هذا ولا جملى	الأمر ليس فيه مصلحة
لو ترك القطا ليلا لنام	الأمر الخفى يظهر ما يدل عليه .
الصيف ضيعت اللبن	الأمر يطلب بعد فواته
بلغ السيل الزبى	الأمور تتجاوز فى الشدة
اذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع .	الأمر بما فى الطاقة والوسع
قلب له ظهر المجن	تبدل الأحوال
لكل ساقطة لاقطة	التحرز فى الكلام
من اكل على مائدتين اختنق	التذبذب على الموائد
يقدم رجلا ويؤخر أخرى	التردد فى الأمر

المثـــل	موضوعــــه
من يمدح العروس إلا أهلهـــا كمـــا تديـــن تُـبــدان مـــن جـــد وجـــد ومـــن زرع حصـــد .	تعصـــب المـــرء لأهـــله الجـــزاء من جنس العمـــل الجـــد والاجتهـــاد
الحاجـــة تفتـــق الحيلـــة عند الصـــباح يحمـــد القـــوم الســـرى .	الحاجـــة سبب الاختـــراع الراحـــة بعـــد التعـــب
يعلم من أين تؤكـــل الكتـــف كل اناء بالذى فيـــه يرشـــح نجـــوع الحـــرة ولا تأكـــل بثدييهـــا .	الرجل العـــارف بوجه المنفعة رجـــوع الفـــرع الى أصـــله رفض الكريـــم العمل الخسيس
ان المنبت لا أرضـــا قطـــع ولا ظهـــرا أبقى . الظلـــم مرتعـــه وخيـــم عنـــد جهينـــة الخبـــر اليقين أن لله جنـــودا منهـــا العسل	الرفق والتوسط فى الأعمـــال (حديث شريف) عاقبـــة الظـــلم العـــلم ببواطـــن الأمـــور قد يكـــون الهـــلاك فى الشىء المحبـــوب .
صـــدرك أوســـع لســـرك الـــق دلـــوك فى الـــدلاء لـــكل مقـــام مقـــال (١)	كـــل انســـان أكـــتم لســـره المزاحمـــة فى معترك الحـــياة مطابقـــة المقـــال للحـــال

(١) أنظر : من أمثال العرب ـــ تأليف محمد عبد الغنى حسن .

وتلاحظ على الأمثال العربية أنها تجمع صفات أربعة :

١ ــ ايجــاز اللفظ .

٢ ــ اصــابة المعنى .

٣ ــ حسن التشبيه .

٤ ــ جــودة الكناية .

ولكن المثل فى القرآن لا يخضع لهذه الشروط لأن أمثلة القرآن أنواع منها الامثال المصرحة ، والأمثال الكامنة والأمثال المرســلة وقد اعترض بعض الكتاب المحدثين على ما ذهب اليه السيوطى فى الاتقان حيث عد السيوطى احد عشر مثالا من الأمثال الكامنة فى القرآن مثل « **من يعمل سوءا يجز به** » (النساء : ١٢٣) فهى فى معنى قولهم « كما تدين تدان » .

وايضا قوله تعالى : « **بلْ كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** » (سورة يونس : ٢٩) فهى فى معنى « من جهل شيئا عاداه » .

« قال هذا الباحث : « ويبدو لنا ان ذلك تنطع وتكلف لا حد لهما .. لأن الصيغة التى تشترط فى المثل لا تتوافر فيها ولذلك فنحن نرفض ما جاء به السيوطى ومن تبعه ولا نعتبر الأمثال الكامنة شيئا يستحق أن يدرج فى بحث الأمثال » (١).

ونحن لا نوافق هذا الباحث على رأيه ونرى أن الأمثال القرآنية لا تخضع لما يشترطه الدارسون العرب فى المثل السائر من ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكتابة ، لأن للقرآن أسلوبا يتميز به على سائر الكلام فأحيانا يوافق الشروط المطلوبة فى المثل واحيانا يخرج عليها ولكنه فى كلتا الحالين يظل مثلا من أمثلة القرآن المتعددة الأنواع كما اسلفنــا .



(١) دكتور بكرى شيخ امين ــ التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٩ .

القسم في القرآن

ورد القسم فى القرآن بالحق سبحانه فى سبعة مواضع ، وباقى انواع القسم كلها بمخلوقات الله ، والملاحظة ان القرآن قد اقسم بلفظ الرب فى المواضع السبعة التى ورد فيها القسم بالله سبحانه . مثل قوله تعالى :

« فوربك لنسألنهم اجمعين » .
(سورة الحجر : ٩٣)

« فورب السماء والأرض انه لحق » .
(سورة الذاريات : ٢٣)

« فلا اقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون » .
(سورة المعارج : ٤٠) (١)

ومن قسم القرآن بمخلوقات الله قوله :

« والضحى . والليل اذا سجى » .
(سورة الضحى : ١ — ٢)

وقوله سبحانه : **« والتين والزيتون »** .
(سورة التين : ١)

وقوله عز شانه : **« فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم »** .
(سورة الواقعة : ٧٥ — ٧٦)

---

(١) عد الزركشى فى البرهان بقية المواضع التى اقسم الله فيها بنفسه (ج ٣ ص ٤٠) وهى قوله تعالى (قل اى وربى انه لحق) سورة يونس ٥٣ ، وقوله سبحانه (قل بلى وربى لتبعثن) سورة التغابن ٧٠ . وقوله (فوربك لنحشرنهم والشياطين) سورة مريم : ٦٨ ، وقوله (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) سورة النساء : ٦٥ .

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأسـاليب ، وبتنـوع الأغراض ، وللمخاطب حالات مختلفة ، هى المسماة فى المعانى بأضرب الخبر الثـلاثة :

الابتدائى والطلبى والانكارى .

فقد يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم فيلقى اليه الكلام غفلا من التأكيد ويسمى هذا الضرب ابتدائيا .

وقد يكون مترددا فى ثبوت الحكم وعدمه ، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده ويسمى هذا الضرب طلبيا .

وقد يكون منكرا للحكم ، فيجب ان يؤكد له الكلام بقدر انكاره قوة وضعفا ، ويسمى هذا الضرب انكاريا .

والقسم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشىء فى النفس وتقويه .

وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، وخاطب جميع الناس على السواء « والمعروف أن الاستعداد لتقبل الحق عند الناس مختلف ، فالنفس الصافية تستجيب للهدى وتفتح قلبها لاشعامه ويكفيها فى الانصياع اليه اللمحة والاشارة ، أما النفس التى ملأها الشك والتردد فهى فى حاجة الى صيغ التأكيد وبرهان الحجة ، اما النفس الجاحدة المنكرة فهى فى حاجة الى مطارق الزجر وتأكيد الخبر وتقرير الحكم فى أكمل صورة » (١) .

فالقسم فى كلام الله تعالى لتأكيد الحكم وتقوية الحجة وسوق الادلة والبراهين على تقرير المعنى وتوضيحه ، والقسم واليمين واحد وسمى يمينا لأن العرب كان احدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف .

واسلوب القسم ثلاثة امور :

١ ـ اداة القسم .

٢ ـ المقسـم به .

٣ ـ المقسـم عليه .

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن ص ٢٤٨ بتصرف .

اولا : اداة القســم :

الصيغة الأصلية للقسم هى « أقسم » أو « أحلف » مع تعــدى العمل بالباء الى المقسم به . كقوله تعالى : **« واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت »** .

(سورة النحل : ٣٨)

ولمـا كان فعل القسم يكثر فى الـكلام اختصر فصار فعـل القسم يحذف ويكتفى بالباء ثم عوض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة كقوله تعالى : **« والليل اذا يغشى »** (سورة الليل : ١) ، وبالتاء فى لفظ الجلالة كقوله تعالى : **« وتالله لأكيدن أصنامكم »** .

(سورة الأنبياء : ٥٧)

وهذا قليل أما الواو فكثيرة .

ثانيا : المقسم به :

اما المقسم به فهو امر جليل دائما ، ولله وحده ان يقسم بما شاء اما العباد فليس لهم أن يقسموا بغير الله ، روى عن عمر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« من حلف بغير الله فقد كفر ، او أشرك »** ، والمعنى من حلف بغير الله معظما له تعظيم الله فقد كفر او اشرك . وقد أقسم الله تعالى فى القرآن بذاته وبمخلوقاته .

قال تعالى : **« فلا اقسم برب المشارق والمغارب »** .

(سورة المعارج : ٤٠)

ومما أقسم الله به مخلوقاته كالشمس والقمر والليل والنهار والفجر والنجوم والضحى والتين والزيتون وطور سينين وغيرها .

قال تعالى : **« والشمس وضحاها . والقمر اذا تلاها »** .

(سورة الشمس : ١٠)

وقال تعالى : **« والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر »** .

(سورة الفجر : ١ ــ ٣)

ثالثا : المقسم عليه :

اما المقسم عليه فيراد توكيده وتحقيقه ولا سيما اذا كان من الأمور الغائبة والخفية اذا أقسم على ثبوتها ، مثل **« والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى »** .

(سورة النجم : ١ ــ ٤)

وجواب القسم يذكر تارة وهو الغالب ـ وتارة يحذف مثل قوله تعالى : « **لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة** » .

(سورة القيامة : ١ ـ ٢)

فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد : « **أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه** » . (القيامة : ٣) ، والتقدير لتبعثن ولتحاسبن .

معنى لا اقسم :

ادخلت (لا) النافية على فعل القسم فى بعض المواضع كقوله تعالى : « **فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم** » . (سورة الواقعة ٧٥ ـ ٧٦) وقوله سبحانه : « **فلا اقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر اذا اتسق** » . (سورة الانشقاق ١٦ ـ ١٨) وقوله عز شأنه : « **فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . انه لقول رسول كريم** » . (سورة الحاقة ٣٨ ـ ٤٠) وقوله سبحانه : « **لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة** » .

(سورة القيامة : ١ ـ ٢)

وقد ذكر المفسرون فيها عدة آراء .

الأول : أن « لا » نافية لمحذوف يناسب المقام والتقدير مثلا : لا صحة لما تزعمون من انكار البعث والجزاء ثم استأنف فقال : (**اقسم بيوم القيامة**) و (**بالنفس اللوامة**) انكم ستبعثون .

الثانى : أن « لا » زائدة وجواب القسم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : أيحسب ... الخ والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن .

الثالث : قول أبى مسلم أن « لا » ههنا لنفى القسم كأنه قال لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكننى أسألك غير مقسم اتحسب أنا لا نجمع عظامك اذا تفرقت بالموت ؟ فان كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك ، أ. هـ. فظاهر الكلام نفى القسم لكن المراد بهذا النفى التوصل الى التاكيد وكأنه يقول ان الأمر بين فلا أحتاج الى أن أقسم عليه وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيد (١) .

---

(١) دكتور عبد الله شحاته : فى نور القرآن ص ١٦٨ مطبعة الهيئة العامة للكتاب .

المقسم عليه فى القرآن :

اقسم الله على أصول الايمان التى يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على صدق التوحيد كقوله : ((**والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . ان الهكم لواحد**)) . (**سورة الصافات : ١ ــ ٤**) ، وتارة يقسم عى أن القرآن حق كقوله تعالى : ((**فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم**)) . (سورة الواقعة : ٧٥ ــ ٧٧) وتارة على أن الرسول حق كقوله : ((**يس . والقرآن الحكيم . انك لمن المرسلين**)) .

(سورة يس : ١ ــ ٣)

وتارة يقسم على الجزاء والوعد والوعيد كقوله : ((**والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات امرا . انما توعدون لصادق . وان الدين لواقع**)) .

(سورة الذاريات : ١ ــ ٤)

وتارة يقسم على حال الانسان كقوله : ((**والليل اذا يغشى . والنهار اذا تجلى . وما خلق الذكر والانثى . ان سعيكم لشتى**)) .

(الليل : ١ ــ ٤)

والمتتبع للقسم فى القرآن يستخلص الفنون الكثيرة (١) .

المقسم به فى القرآن :

الملاحظ أن الله عز وجل أكثر من القسم فى الآيات المكية لأن اهل مكة انكروا الوحى وقاوموا الرسالة فكان مقتضى الحال يتطلب هذا اللون من الأسلوب البليغ .

وقد اقسم الله عز وجل بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع مثل قوله سبحانه : ((**فوربك لنسالنهم اجمعين . عما كانوا يعملون**)) . (سورة الحجر : ٩٢ ــ ٩٣) . وقوله سبحانه : ((**زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن**)) (سورة التغابن : ٧) .

---

(١) انظر الاتقان للسيوطى ١٣٥/٢ فقد اتى بشواهد متعددة للأقسام المذكورة .

القسم بالمخلوقات :

اقسم القرآن بكثير من مخلوقات الله وبالملائكة وبالنبى وبمظاهر الكون كالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر اذا اتسق ، وبالعصر ، وبالضحى ، والشمس ، والبلد ، ووالد وما ولد ، وبالفجر والتين . . .

قال الامام بدر الدين الزركشى فى كتابه البرهان فى علوم القرآن .

فان قيل : كيف أقسم الله بمخلوقاته وقد ورد النهى علينا الا نقسم بمخلوق ؟

قيل فيه ثلاث أجوبة :

أحدها : الله على حذف مضاف أى (ورب الفجر) و (رب التين) وكذلك الباقى .

والثانى : ان العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون .

والثالث : أن القسم انما يكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه والله تعالى ليس فوقه شىء فاقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لانها تدل على بارىء وصانع (١) .

وقال ابن ابى الأصبع فى اسرار الفواتح : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل اذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل (٢) .

وقسمه تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله سبحانه : ((**لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون**)) (سورة الحجر : ٧٢) ، ليعرف الناس عظمه الرسول عند الله ومكانته لديه .

والقسم بالشىء لا يخرج عن وجهين اما لفضيلة أو لمنفعة (٣) .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٤٢/٣ .

(٢) الاتقان للسيوطى : ١٣٤/٢ .

(٣) البرهان : ٤٢/٣ نقلا عن الأستاذ ابو القاسم القشيرى فى كنز اليواقيت والاتقان : ١٣٤/٢ .

فالفضيلة كقوله تعالى : ((**وطــور سينين . وهــذا البلد الأمين**))
(سورة التين : ٢ــ ٣)

والمنفعة نحو ((**والتين والزيتون**)) (سورة التين : ١)

وقال بعضهم : اقسم الله تعالى بثلاثة أشياء بذاته كالآيات السابقة وبفعله نحو ((**والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها**)) (سورة الشمس : ٥ ــ ٧) وبمفعوله (١) نحــو ((**والنجم اذا هــوى**)) (سورة النجم : ١) . ((**والطور وكتاب مسطور**)) (سورة الطور : ١ ــ ٢).

* * *

رأى جديد فى القسم بالمخلوقات :

رأينا أن العلمــاء والمفسرين (٢) ذهبوا الى أن الله اقسم بمخلوقاته لبيان نواحى العظمة فيها وجلال قدرها وعظيم نفعها ولكن العالم الهندى عبد الرحمن فراهى يذهب مذهبا جديدا خلاصــته أن القســم اذا كان بمخلوقات الله فليس لتعظيمها وانما للاستشهاد بها وسياقها مساق الدليل على صحة الكلام وصدقه ، فهى بمثابة لفت النظر الى التامل فى ملكوت السموات والأرض وارشاد المخاطبين الى بديع صنعة الله فى الكون . ونحن نلخص رأى الأستاذ عبد الرحمن فراهى بما يلى :

لمــا (٣) كانت الشهادة بالله اكبر الشهادات كثر القسم بها ، ولذلك ظن من قل التفاته الى اساليب الكلام وفنون بلاغته أن الاستشهاد لا يكون الا بالمعبود على جهة التعظيم ، ولكنك اذا سرحت النظر فى كلام العرب

---

(١) الاتقــان : ١٣٤/٢ .

(٢) أنظر الفخر الرازى فى تفسيره الكبير مفاتيح الغيب والسيوطى فى الاتقان وابن القيم الجوزية فى كتابه (التبيان فى أقسام القرآن) وغيرهم من المفسرين عنــد تفسـير (والتــين والزيتون) و (لا اقســم بيــوم القيامة) .... وغيرها .

(٣) استفدت فى هذا الملخص من جهد الدكتور بكرى شيخ امين فى كتاب التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٩ وما بعدها .

وغيرهم وجدت أنهم استشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولم يعظموها ، وانما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهدا على أقوالهم . وضرب المؤلف على ذلك عددا من الأمثلة من الشعر العربي كقول الراعي :

ان السماء وان الريح شاهدة
والأرض تشهد والأيام والبلد
لقد جزيت بني بدر ببغيتها
يوم الهباءة يوما ما له قود

وكقول عنترة :

والخيل تعلم والفوارس انني
فرقت جمعهم بضربة فيصل

فقد رأيت في هذه الامثلة انهم استشهدوا بالسماء والريح والأرض والأيام والبلد ، والخيل والفوارس ، وليس المراد الا انك لو سألتهن ونطقن لشهدن على دعواهم .

ومن هذا الأسلوب ما قاله الفضل بن عيسى بن أبان في وعظه (سل الأرض فقل : من شق أنهارك ، وغرس اشجارك ، وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حوارا ، أجابتك اعتبارا) .

ويتساوى التعبير بكلمة « يشهد » أو « يعلم » أو ما يشبههما بالألفاظ الصريحة الدالة على القسم كواو القسم ، ولعمر ، أو ما يماثلها . ومثل ذلك قسم الهجرس حين قتل جساسا قاتل أبيه فقال : « وفرسي واذنيه ، ورمحي ونصليه ، وسيفي وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر اليه » . فقد أقسم بهذه الأشياء استدلالا بها ، كأنه قال : فكيف أترك قاتل أبي وانا قادر على الكر والفر والطعن والضرب . فذكر في قسمه ما يصدق دعواه ويستدل به على وجوب ما أراد به ، كما مثل الفارابي بشواهد من هذا القبيل من شعر طرفة بن العبد ، والحصين بن حمام في رثاء نعيم بن الحارث خليله ، واستشهد بكلام ديماستنس اعظم بلغاء اليونان ، ويوليوس الشاعر اليوناني على أن هؤلاء الناس من عرب وغير عرب يقسمون بأشياء عادية لا لغاية تعظيمها ، أو لكونها ، مقدسة ، بل لتكون شاهدا على ما يقولون ودليلا على ما يتكلمون .

ثم جاء الكاتب الى اقسام القرآن فبين انها لا تكون للتعظيم الا اذا كان المقسم به هو الله تعالى وشعائره ، وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال .

وفى فصل طويل راح يأتى بالبرهان تلو البرهان على ان بعض ما أقسم به الله ليس لتعظيمه وانما لمحض الاستدلال به ومن جملة ما قاله :

« ما تهتدى اليه من حمل النظير على النظير ، وتفسير الآيات بعضها ببعض فانك ترى القرآن يذكر الأمور الدالة على اسلوب الآية والعبرة ، وكلها اشهاد — أى اقسام — لمن يتفكر فيها ، قال تعالى : « **ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** » (سورة البقرة : ١٦٤) . ومثل هذا كثير . فيذكر الله آياته ويحتج بها . ثم ترى هذه الآيات استشهد بها القرآن على اسلوب القسم ، فاقسم بالسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والفجر والضحى ، والرياح والسحاب ، والجبال ، والبحر ، والانسان ، والوالد والولد والذكر والأنثى ، والشفع والوتر ، فكونهما آيات دالة له نظير ، ولا سبيل الى ارادة تعظيمها .

ومن الادلة قوله : ان العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس ، ولا سيما الذى ليس له كبير تقدس ، كالخيل العادية ، والريح الذارية .

وقد صرح القرآن بكون هاتيك المقسم بها من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة مذللة طائعة . ففى نفس القسم بها دلالة على ان المراد بها محض القسم بها .

ومن الأدلة قوله : ان ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلا للعقلاء قوله تعالى : « **والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل اذا يسر . هل فى ذلك قسم لذى حجر** » (سورة الفجر : ١ — ٥) . هذه الجملة الاخيرة « **هل فى ذلك قسم لذى حجر** » تشبه ما يرد فى القرآن

بعد ذكر الدلائل ، كقوله تعالى فى سورة النحل « **ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** » (سورة النحل : ١٢) ، أو كما جاء فى سورة طه « **ان فى ذلك لآيات لأولى النهى** » (آية : ٥٤) ، أو كما جاء فى سورة آل عمران « **ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » (آية : ١٣) وهذا كثير . فهكذا التنبيه بعد القسم فى سورة الواقعة حيث قال : « **فلا اقسم بمواقع النجوم . وانه لقسم لو تعلمون عظيم** » (آية : ٧٥ ـ ٧٦) أى أن فيها دلالة عظيمة وشهادة كبيرة ، فصرح بعظمة القسم لا بعظمة المقسم به (١) ، وفرق كبير بينهما .



---

(١) التبيان فى اقسام القرآن ص ٣٩ .

الفصل الخامس
الإسرائيليات

١ ـ تمهيـد .

٢ ـ اليهود والنصارى .

٣ ـ التـوراة .

٤ ـ قصص الأنبياء بين القرآن والتوراة .

٥ ـ اقسام الاسرائيليات .

٦ ـ نماذج من الاسرائيليات .

٧ ـ راى الحافظ ابن كثير فى الاسرائيليات .

٨ ـ الاسرائيليات فى كتب التفسير .

٩ ـ مسئولية المفسرين .

١٠ـ اعتذار الطوفى عن المفسرين .

١١ـ تفنيـد فرية .

١٢ـ تاثير الاسلام فى اليهوديه .

تمهيد

نشأ التفسير بالمأثور مقصورا على احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد أنزل الله عليه القرآن عربيا مبينا ، وكان الصحابة يقرءون القرآن ، فيتسابقون الى العمل بأحكامه ، وامتثال أوامره .

وربما اشكل على احدهم معنى من المعانى أو آية من الآيات ، فيسأل النبى صلى الله عليه وسلم ، ويجيبه النبى فى بساطة ويسر .

ومن ذلك تفسيره عليه الصلاة والسلام الظلم بالشرك ، وتفسيره القوة بالرمى ، وتفسيره المغضوب عليهم ، باليهود ، والضالين بالنصارى .

وكان التفسير مقصورا على ما اشكل معناه أو غمض لفظه ، فقد كانت حياة النبى تطبيقا عمليا لأوامر القرآن ونواهيه ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها : (كان خلقه القرآن) .

(ولعل الروعة الدينية لهذا العهد ، والمستوى العقلى لأهله وتحدد حاجات حياتهم العملية ، كل أولئك جعلهم لا يقولون فى تفسير القرآن الا بما روى عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام توفيقا) (١) .

(وقد جمعت كتب الصحاح والسنن مقادير مختلفة من التفسير بالمأثور ، حتى لترى فى صحيح البخارى : كتابين هما : كتاب تفسير القرآن ، وكتاب فضائل القرآن ، وهما يشغلان حيزا واضحا من الكتاب ربما كان نحو الثمن منه) (٢) .

ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، وبدأ عصر الصحابة ، زادت حاجة الناس الى التفسير ، نظرا لاتساع الرقعة

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة تفسير : ٣٤٩/٥ .

(٢) المرجع السابق .

الاسلامية ، ولظهور احداث وقضايا لم تكن موجودة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولدخول كثير من الأعاجم فى الاسلام ، مع ضعف المامهم بالعربية ، وبعدهم عن البيئة التى نزل فيها القرآن .

وفى هذا العصر - اعنى عصر الصحابة - بدأ دخول الاسرائيليات فى التفسير ، وساعد على ذلك دخول كثير من اليهود والنصارى فى الاسلام ، ومعهم ثقافتهم وأفكارهم ، ومعلوماتهم الدينية ، حول كثير من قصص الأنبياء السابقين .

فلما كان عصر التابعين زادت الاسرائيليات ، وزاد الوضع فى التفسير .

اليهـود والنصارى

كان اليهود فى ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ، ومعهم آثار حياتهم فيما معهم ، ثم ابعدوا مشرقين الى بابل فى أسرهم ، ثم عادوا الى موطنهم وقد حملوا معهم ما حملوا .

ووفد على البيئة العربية الاسلامية من كل هذا المزيج وفد ، الى جانب ما بعث اليها من الديانات الأخرى التى دخلت تلك الجزيرة ، وألقت الى اهلها ما الفت من خبر أو قصص دينى ، وكل اولئك قد تردد على آذان قارئى القرآن ومتفهميه ، قبلما خرجوا الى ما حول جزيرتهم شرقا وغربا فاتحين .

ثم ملأ آذانهم حين خالطوا اصحاب تلك البلاد التى نزلوها وعاشوا بها ، وان كان الذى اشتهر من ذلك هو اليهودى ، لكثرة أهله ، وظهور امرهم فاشتهرت تلك التزايدات التى اتصلت بمرويات التفسير النقلى باسم الاسرائيليات (١) .

وساعدت سماحة الاسلام مع معتنقى الأديان الأخرى على انتشار اليهود والنصارى فى المملكة الاسلامية .

وكان أغلب الماليين فى الشام يهودا ، وأغلب اطباء القصور فى بغداد نصارى .

---

(١) أمين الخولى ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة تفسير : ٢٥١/٥ .

واشتهر اليهود باحترافهم حرفا خاصة ، كالصيرفة ، ودباغة الجلود والصباغة (١) ، « وكان عدد اليهود فى المملكة الاسلامية غير العرب نحو ثلاثمائة الف » فى سنة ٥٦٠هـ (٢) .

وكان اليهود منتشرين على نهر دجلة والفرات ، وفى جزيرة ابن عمر والموصل ، وعكبرة وواسط ، وفى بغداد والحلة ، والكوفة والبصرة ، وفى كثير من بلاد فارس (٣) .

التـــوراة

وأهم منبع للثقافة اليهوديه هو التوراة ، وقد ذكرت فى القرآن الكريم ، ووصفت بأنها كتاب من كتب الله المنزلة : **« انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور »** ونص القرآن على بعض احكام وردت فى التوراة : **« وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص »** .

واشير فى الأحاديث كذلك الى التوراة وبعض احكامها .

جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان :

(أن نفرا من اليهود دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فى بيت المدارس ، فقالوا يأبا القاسم أن رجلا منـا زنا بامراة فأحكم ، فوضعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فجلس عليها ، ثم قال : **ائتونى بالتوراة** فأتى بها ، فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، ثم قال : **آمنت بك وبمن انزلك** ثم قال : **ائتونى باعلمكم** فأتى بشاب ثم ذكر قصة الرجم) (٤) .

---

(١) الجاحظ : الرد على النصارى ص ١٧ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ٣٢٥/١ ، ونسب هذا القول الى رحالة يهودى يدعى بنيامين .

(٣) المرجع السابق .

(٤) تفسير مقاتل مخطوطة أحمد الثالث ١٠٠/١ انظر تحقيقى له مجلد ٣١٦/١ ــ ٣١٨ . وانظر كذلك البخارى باب التوحيد وباب الاعتصام وباب التفسير ، وقد رواه ابو داود عن ابن عمر .

وكلمة التوراة يستعملها المسلمون كثيرا للدلالة على كل الكتب المقدسة عند اليهود ، فتشمل الزبور وغيره كما يستعملها اليهود أحيانا بهذا الاطلاق .

وكان لليهود بجانب ذلك سنن ونصائح وشروح لم تنقل عن موسى عليه السلام كتابة ، وانما تداول الناس نقلها شفاها ، ونمت على تعاقب الأجيال ، ثم دونت ، وهى المسماة بالتلمود . والتلمود مختلف فيه فيما بينهم ، فمنهم من يقبله وهم طائفة الربانيين ، ومنهم من لا يقبله وهم طائفة القرائين .

فأما التوراة بالمعنى الدقيق فخمسة أسفار : سفر التكوين (١) ، وسفر الخروج (٢) ، وسفر اللاويين — اى الأحبار (٣) — وسفر العدد (٤) ، وسفر التثنية (٥) .

وفى العهد القديم غير التوراة : سفر يوشع . وهو فى استيلاء بنى اسرائيل على فلسطين . ثم سفر القضاة اى الحكام ، ثم أسفار الملوك الاربعة :

الأول فى اخبار شمويل او سمويل وشاول أو طالوت ، والثانى فى ذكر داود ، والثالث والرابع فى سليمان بن داود ، ومن ملك بنى اسرائيل من بعده .

وأما التلمود فمجموعة من المناقشات الدينية الأولى ، مع شروح لرجال الدين من الأجيال المتعاقبة . يسجل أفكار اليهود فى حياتهم

---

(١) وفيه خلق العالم ، وقصة آدم وحواء وأولادهما ونوح والطوفان وتبلبل الألسنة ثم قصة ابراهيم وابنه اسحاق وابنيه يعقوب وعيصو وقصة يوسف .

(٢) وفيه خروج اليهود من مصر وقصة موسى من ولادته وبعثته وفرعون وصعود موسى الجبل وإيتاء الله اياه الألواح .

(٣) وفيه حكم القربان والطهارة .

(٤) وفيه قصة البقرة وإخبار بنى اسرائيل وبعض الشرائع .

(٥) اى اعادة الناموس .

وتقاليدهم (١) فى نحو الفى عام ، ويمزج مزجا تاما نواحى الشعب الخلقية بنواحيهم الدينية .

وقد تسربت ثقافة اليهود الى العرب قبل الاسلام وبعده .

جاء فى الحديث عن ابن عباس : (كان هذا الحى — من الأنصار — وهم اهل وثن ، مع هذا الحى من اليهود وهم اهل كتاب ، فكانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم ، وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم) (٢) .

وفى الحديث عن ابى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الاسلام بالعربية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لا تصدقوا اهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى انزل الينا ، وانزل اليكم والهنا والهكم واحد** » (٣) .

— ٤ —

قصص الأنبياء بين القرآن والتوراة

عرض القرآن الكريم لكثير من قصص الأنبياء السابقين ، مقتصرا على مواضع العظة والعبرة ، مكتفيا من القصة بما يحقق الهداية ، ويوحى بمتابعة الحق والايمان .

ولذا لم يتعرض للتفصيل ، فلم يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها ، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث ، وانما تخير ما يمس جوهر الموضوع ، وما يحرك العقول للتفكير ، وينبه القلوب الى الخير ، وينفرها من عاقبة الشر .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ١/٣٢٩ ط ٧ .

(٢) اخرجه أبو داود ، وجاء فى تفسير مقاتل لقوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » كما جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية ، وجاء فى اسباب نزول القرآن للواحدى والسيوطى .

(٣) البخارى فى كتاب التفسير : ٨/١٢٠ من فتح البارى .

ولنضرب لهذا مثلا قصة آدم عليه السلام ، فقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم (١) ، كما ورد ذكرها فى التوراة . بيد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ، ولا لنوع الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها ، ولا لبيان الحيوان الذى تقمصه الشيطان ليزلهما ، ولا ما كان من تفصيل الحوار بين الله تعالى وآدم ، ولا للبقعة التى طرد اليها آدم بعد خروجه من الجنة .

ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك واكثر منه ، فأبانت أن الجنة فى عدن شرقا ، وأن الشجرة التى نهيا عنها كانت فى وسط الجنة ، وانها شجرة الحياة . وذكرت ما انتقم الله به من الحية التى أغوتهما بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب ، وانتقم من حواء بتعبها هى ونسلها فى حملها .. الخ (٢) .

وقد نقل المفسرون قصة آدم وابليس فى تفاسيرهم (٣) . كما ذكروا كثيرا من قصص الأنبياء وغيرها . ويهيأ للقارىء أن هذه الاسرائيليات التى لا نعرف صدقها من كذبها بيان لمعنى قول الله سبحانه ، وتفصيل لما اجمل فيه ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

« وان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ اذن بالتحدث عنهم — امرنا الا نصدقهم ولا نكذبهم . فاى تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من ان نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير او البيان .. اللهم غفرا » (٤) .

---

(١) أنظر الآيات التى وردت فى القرآن فى قصة آدم ، ومنها آية ٣٤ فى سورة البقرة ، وآية ٣٣ فى آل عمران ، وآية ٢٠ وما بعدها فى الأعراف ، وآية ٦١ فى الاسراء ، والآيات ١١٥ — ١٢٢ فى طه ، حيث يقول سبحانه « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى . فقلنا يآدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس اليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

(٢) العهد القديم : الاصحاح الأول من سفر التكوين ص٤ — ٥ .

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان . مخطوطة احمد الثالث ١/٨ ب ، ١٩ ، وانظر تحقيقى له جزء ١ ص١٨ — ٢١ .

(٤) أحمد محمد شاكر : مقدمة كتاب عمدة التفسير لابن كثير ص ١٧ .

— ٥ —

اقسام الاسرائيليات

تنقسم الاخبار الاسرائيلية الى اقسام ثلاثة :

القسم الاول : ما يعلم صحته بأن نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلا صحيحا ، أو كان له من الشرع شاهد يؤيده . ومنه تعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر ، فقد جاء هذا الاسم صريحا فى حديث البخارى (١) . وهذا القسم بنوعيه صحيح مقبول .

القسم الثانى : ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا ، أو يكون مخالفا لما يقرره العقل ، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : هو المسكوت عنه ، فلا هو من قبيل الاول ، ولا هو من قبيل الثانى . وهذا القسم نتوقف فيه فلا نصدقه ولا نكذبه .

وذهب ابن كثير الى جواز رواية هذا القسم (٢) ، ولم يوافقه فى ذلك المحقق احمد شاكر ، لأن رواية هذا القسم بجوار تفسير القرآن اقرار له وتصديق به . قال ابن كثير : « .. ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فانها على ثلاثة اقسام : احدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق فذلك صحيح .

والثانى : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم .

وهو حديث : « **بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** » .

وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود الى أمر دينى ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيرا ، ويختلف المفسرون عادة بسبب

---

(١) باب التفسير : ٢٩٧/٨ من فتح البارى .

(٢) وقد تابعه فى هذا الشيخ محمد حسن الذهبى فى كتابه التفسير والمفسرون ص ١٧٩ و ١٨٠ ، ونقل كلام ابن كثير بدون أن يعزوه اليه .

ذلك ، كما يذكرون فى مثل اسماء اصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصا موسى من اى شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى احياها ابراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى ، الى غير ذلك مما ابهمه الله تعالى فى القرآن ، حيث لا فائدة منه تعود على المكلفين فى دنياهم أو دينهم ، ولكن الخلاف عنهم جائز ، كما قال تعالى : « **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم** » الى آخر الآية .

ويعلق احمد شاكر بقوله : ان اباحة التحدث عنهم شىء ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن شىء آخر ، اذ أنه يوهم البيان والتفصيل لكتاب الله وحاشا لله ولكتابه من ذلك (١) .

— ٦ —

نماذج من الاسرائيليات

تفسير القرآن غنى عن هذا الركام الهائل من الاسرائيليات التى أولع بها بعض المفسرين وتناقلها عنهم من بعدهم . والانسان مولع بالقصة عموما وبغرائب القصص بوجه خاص وذلك هو الطابع الغالب على هذه الاسرائيليات .

وسنكتفى بالاشارة الى بعضها .

١ — لقد خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وتكبر ابليس عن السجود لآدم .

وقد نقل المفسرون عن التوراة كثيرا مما يتعلق بخلق آدم وبدء الخليقة من السفر الأول وهو سفر التكوين أو الخلق . وفى هذا السفر قصة خلق العالم وقصة آدم وحواء وأولادهما .

قال المفسرون فى شرح قوله تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة** » .

(سورة البقرة : ٣٠)

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، ص ١٤ .

(خلق آدم من طين احمر وأسود وأبيض من السبخة والعذبة فمن ثم نسله ابيض واحمر واسود ، مؤمن وكافر ، فحسد ابليس تلك الصورة فقال للملائكة الذين هم معه ارأيتم هذا الذى لم تروا شيئا من الخلق على هيئته ان فضل على ماذا تصنعون ؟ قالوا نسمع ونطيع لأمر الله ، وأسر عدو الله فى نفسه لئن فضل آدم عليه لا يطيع وليستفزنه ، فترك آدم طينا اربعين سنة مصورا فجعل ابليس يدخل من دبره ويخرج من فيه ويقول أنا نار وهذا طين أجوف والنار تغلب الطين ، لاغلبنه) (١) .

قال الحافظ ابن كثير : هذا سياق غريب وفيه أشياء فيهـا نظر تطول مناقشتها . وقد اسند السدى هذا التفسير الى ابن عباس والى اناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه مختلط بالاسرائيليات فلعل بعضها مدرج (٢) ليس من كلام الصحابة او أنهم اخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم (٣) .

* * *

٢ ــ وفى تفسير قوله تعالى : « **والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** » .

(سورة الحاقة : ١٧)

ذكروا أن العرش يحمله ثمانية أوعال (٤) ما بين ركبهم واظلافهم كما بين السماء والأرض .

وفى تفسير آية الكرسى وهى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة ، ذكر مقاتل فى تفسيره : أن الكرسى يحمله أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه ، أقدامهم تحت الصخرة التى تحت الأرض السفلى مسيرة خمسمائة عام وما بين كل أرض مسيرة خمسمائة عام .

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١ : ٩٧ .

(٢) الادراج هو أن يزاد فى الحديث شىء من كلام بعض الرواة ، فيتوهم من يسمع الحديث أن هذه الزيادة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) تفسير ابن كثير : ١/٧٦ ــ ٧٧ .

(٤) الوعل : هو التيس الجبلى .

وفى هذا الاثر علل قادحة تمنع من قبوله ، وقد ساق الكوثرى سند حديث الأوعال التى تحمل العرش ثم نقل عن احمد بن يحيى بن العلاء أن **(فى سنده كذابا يضع الحديث)** (١) .

وقال ابو حيان فى تفسير قوله تعالى : **((ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية))** . وذكروا فى صفات هؤلاء ثمانية أشكال متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحا .

٣ ــ وورد العديد من الاسرائيليات فى وصف القرية التى مر عليها العزير عند تفسير قوله تعالى : **((او كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها))** .

(سورة البقرة : ٢٥٩)

ويقول الامام محمد عبده : **(وتسكت عن تعيين القرية كما سكت عنها القرآن)** . **(.. والقرآن لم يعين الزمان ولا المكان ، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات ..)** .

٤ ــ كما وردت الاسرائيليات فى وصف المائدة التى نزلت على سيدنا عيسى ، عند تفسير الآيات ١١٢ ــ ١١٤ من سورة المائدة التى بدئت بقوله تعالى : **((اذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء))** .

وقد أورد المفسرون تفصيلا للمائدة ومحتوياتها لا سند له من النقل او العقــل .

٥ــ وقد استهل القرآن سورة فاطر بقوله سبحانه :

((الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا اولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء)) .

ويقول مقاتل فى تفسيره : (وذلك ان فى الجنة نهرا يقال له نهر الحياة ، يدخله كل يوم جبريل عليه السلام ، بعد ثلاث ساعات من النهار يغتسل فيه ، وله جناحان ينشرهما فى ذلك النهر ، وبجناحه سبعون الف ريشه ، فيسقط من كل ريشة قطرة من ماء فيخلق الله عز وجل منها

---

(١) الملطى : التنبيه والرد : ٩٨ ، ومقالات الكوثرى : ٣٠٨ .

ملكا يسبح الله تعالى الى يوم القيامة . فذلك قوله عز وجل : **« يزيد فى الخلق ما يشاء »** .

وغنى عن البيان أن هذا الكلام من الاسرائيليات التى لا يقبلها العقل ولم يرد بها اثر صحيح ، فما أجدر تفسير كتاب الله أن ينقى منها .

٦ ـ وقد الصقت بالأنبياء تهم هم أبعد الناس عنها ، فاتهم داود بأنه اعجب بامراة فارسله الى الحرب حتى قتل ثم تزوج امراته استنادا الى قوله تعالى : **« ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب »** .

وهذا غلو واعتساف فى فهم الآيه وخروج بالكلمة عن مفهومها اللفظى الى تعبير مجازى .

ومن عقائد المسلم ثقته بان الأنبياء قوم حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنكر منهى عنه ، فكيف يليق أن ننسب الى داود عدوانه على الأشخاص والأعراض . قال النسفى فى تفسيره : **(وما يحكى من ان داود بعث مرة بعد مرة اوريا الى غزوة البلقاء واحب ان يقتل ليتزوج امراته ، فلا يليق بين المتسمين بالصلاح من افناء (١) الناس فضلا عن بعض اعلام الأنبياء . وقال على رضى الله عنه من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة جلدة وهو الفرية على الأنبياء)** (٢) .

وقد نقل الخازن فى تفسيره قصة داود وامراة أوريا ، كما ذكر قصصا عن داود أشبه ما تكون بالخرافة ، ولكنه عقب على هذا القصص بقوله : **(فصل فى تنزيه داود على الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب اليه)** . وفند فى هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبى الله داود عليه السلام (٣) .

ويطول بنا القول لو ذهبنا نذكر جميع الاسرائيليات التى اوردها المفسرون فى تفاسيرهم ، ولكنى احب ان اذكر هنا ان كثيرا من المفسرين قد اغتروا بوجود هذه القصص فى كتب العهد القديم والجديد ، فنقلوها

---

(١) افناء : أوساط .

(٢) تفسير النسفى ٢٩/٤ ـ ٣٠ .

(٣) تفسير الخازن ٣٨/٦ ـ ٤٢ .

بجوار تفسيرهم للاستشهاد لا للاعتضاد ، فجاء من بعدهم وظنها من تفسير القرآن أو انها رأى للمفسر فى الآية .

ومع ورود النهى الشديد عن تصديق اهل الكتاب أو تكذيبهم ، فيما لا نعرف صحته من باطله ، ووجوب تكذيبهم فيما نعرف كذبه ، وتصديقهم فيما نعرف صدقه ـ رأينا بعض المفسرين يصدقونهم فيما صح عندنا كذبه وما ثبت لنا عن المعصوم صلى الله عليه وسلم انه باطل وافتراء .

* * *

ـ ٧ ـ

راى الحافظ ابن كثير فى الاسرائيليات

(أ) قال ابن كثير فى تفسيره لأول سورة ق (وقد روى عن بعض السلف انهم قالوا : ق جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له جبل قاف . وكان هذا ـ والله اعلم ـ من خرافات بنى اسرائيل التى اخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى ان هذا وامثاله واشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس امر دينهم كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وائمتها ـ احاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بنى اسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ والنقاد فيهم ، وشربهم الخمور ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته . وانما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله : « **وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج** » ـ فيما قد يجوزه العقل فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ـ فليس من هذا القبيل والله أعلم .

وقد اكثر كثير من السلف من المفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب اهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد ، وليس بهم احتياج الى اخبارهم ولله الحمد والمنة .

حتى أن الامام ابا محمد عبد الرحمن بن ابى حاتم الرازى رحمة الله عليه اورد ههنا أثرا غريبا ـ لا يصح سنده ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فقال حدثنا ابى ، قال حدثت عن محمد بن اسماعيل المخزومى ، حدثنا ليث بن ابى سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

خلق الله تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك البحر جبلا يقال له قاف ، سماء الدنيا مرفوعة عليه .. الحديث (١) .

قال ابن كثير : واسناد هذا الحديث فيه انقطاع . والذى رواه لى ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل (ق) هو اسم من اسماء الله عز وجل . والذى ثبت عن مجاهد انه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى : « **ص ــ ن ــ حم ــ طس ــ الم** » ونحو ذلك . فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس رضى الله عنهما (٢) .

(ب) وتوالت حملات الحافظ ابن كثير على هذه الاسرائيليات وانتقد مـا أورده المفسرون من روايات اسرائيليـة فى تفسير آيات معينـة من القرآن الكريم .

فعند تفسيره للآية ٥٠ من سورة الكهف (٣) ــ بعد أن ذكر اقواله فى (ابليس) واسمه ومن أى قبيل هو ــ قال : (وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف ، وغالبها من الاسرائيليات التى تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها ، ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بايدينا) .. (وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل ، وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ــ كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكتوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمـدى وخاتم الرسـل وسيد

---

(١) ذكر ابن كثير تمام الحديث حتى عد سبع أرضين وسبعة ابحر وسبعة جبال وسبع سموات (والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) انظر تفسير ابن كثير : ٤/٢٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤/٢٢١ .

(٣) هى قوله تعالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، افتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » .

البشر ــ صلى الله عليه وسلم ــ ان ينسب اليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه . فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل) (١) .

(جـ) وقد ذكر مقاتل فى تفسيره للآيات ٧٤ ــ ٨٠ من سورة الأنعام قصة ابراهيم عليه السلام ، وأن أباه حفر له سربا فى الأرض بعيدا عن الناس ، فلما راى ابراهيم الكواكب لأول مرة قال للكوكب هذا ربى .

وذكر ابن كثير عند تفسيره للآيات ٥١ ــ ٥٦ من سورة الأنبياء قصة ابراهيم مع ابيه ، ونظر الى الكواكب ثم قال : **(وما يذكر من الأخبار عنه فى ادخال ابيه له فى السرب وهو رضيع ، وانه خرج به بعد أيام ؛ فنظر الى الكواكب والمخلوقات فتبصر فيها ، وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ــ فعامتها احاديث بنى اسرائيل)** (٢) .

(د) وفى تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة ورد ذكر هاروت وماروت . وأورد مقاتل فى تفسيره قصة نقلها عن بنى اسرائيل . خلاصتها أن هاروت وماروت كانا من الملائكة وانهما هبطا بالسحر الى الأرض ابتلاء من الله لخلقه .

اما ابن كثير فانه بين فساد هذا المسلك من المفسرين فقال :

(وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وابى العالية والربيع بن انس ومقاتل بن حيان وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتاخرين وحاصلها راجع فى تفصيلها الى اخبار بنى اسرائيل ، اذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد الى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن اجمال القصة من غير

---

(١) تفسير ابن كثير : ٨٩/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١٨١/٣ ، عند تفسيره لقوله تعالى : (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) والآيات التى تليها من سورة الأنبياء من آية ٧٤ ــ ٨٠ .

ثم علق ابن كثير بحديث طويل عن الاسرائيليات واقسامها الثلاثة وهى : ١ ــ ما يعلم صدقه فنقبله . ٢ ــ ما يعلم كذبه فنرفضه . ٣ ــ ما لا يعلم صدقه من كذبه فنتوقف عنه ، فلا نصدقه ولا نكذبه .

بسط ولا اطناب فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما اراده الله تعالى ، والله اعلم بحقيقة الحال) (١) .

(هـ) وعند تفسير الآية ٤١ — ٤٤ من سورة النمل اورد مقاتل كثيرا من الاسرائيليات عن بلقيس ملكة سبأ (٢) .

اما ابن كثير فقد ذكر طرفا من هذه الاسرائيليات ثم علق عليها بقوله : **(والاقرب فى مثل هذه السياقات انها متلقاه عن اهل الكتاب ، ومما وجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله فيما نقلاه الى هذه الامة من اخبار بنى اسرائيل من الاوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، ومما حرف وبدل ونسخ . وقد اغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو اصح منه وانفع ، واوضح وابلغ . ولله الحمد والمنة)** (٣) .

(و) وتعقب ابن كثير فى تفسيره كثيرا من هذه الاسرائيليات بالنقد والتمحيص بعد روايتها . كما فى تفسيره للآية ٤٦ من سورة العنكبوت (٤) ، وللآية ٧٩ من سورة البقرة . حيث اورد كلمة لابن عباس رواها البخارى فى صحيحه وهى قول ابن عباس : **(يا معشر المسلمين كيف تسالون اهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى انزل الله على نبيه احدث اخبار الله ، تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم الله ان اهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بايديهم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا . افلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما راينا منهم احدا قط سالكم الذى انزل اليكم)** .

وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخارى فى ثلاثة مواضع من صحيحه (٥) .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية ١٠٢ من سورة البقرة — الجزء الأول من ص ١٣٣ — ١٤٨ .

(٢) تفسير مقاتل مخطوطة احمد الثالث ٣/٥٩ وانظر تحقيقى له مجلد ٣ ص ١٠٦٠/١٠٦١ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٣٦٦ .

(٤) فقد روى ابن كثير حديث : (اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) ثم قال : (وليعلم ان اكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان ، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ثم ما أقل فائدته لو كان صحيحا) .

(٥) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ، اختصار وتحقيق احمد شاكر ١/١٩ والمواضع الثلاثة التى روى فيها موعظة ابن عباس هى ص ٢١٥ جـ ٥ ص ٨٢ ، ٤١٤ جـ ١٣ من فتح البارى .

الاسرائيليات فى كتب التفسير

نمت الاسرائيليات واتسعت فى كتب التفسير وخاصة المطولة التى تعتمد المأثور مثل الطبرى والبغوى والخازن وابن كثير والقرطبى وغيرهم .

ورغم تحذير بعض هؤلاء المفسرين من هذه الاسرائيليات ونقدهم لبعضها فى كتبهم ، نراهم عند التطبيق قد حشدوا كثيرا من هذه الروايات الاسرائيلية ، خصوصا عند توضيح جزئيات قصص القرآن . وعند ذكر الشخصيات والأحداث ، وكيفياتها ووقائعها وظروفها .

ومعظم هذه الروايات معزوة الى كعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام وثعلبة ومحمد القرظيين ، وابن جريج ، وابن نوف ، وأبناء منبه ، وغيرهم من مسلمى اهل الكتاب ، وخاصة مسلمى اليهود .

وابن خلدون فى مقدمته يذكر من اسباب الاستكثار من هذه المرويات اعتبارات عدة : اجتماعية ، ودينية اغرت المسلمين بهذا الأخذ والنقل ، الذى اتسعت له كتب التفسير المروى فاشتملت على الغث والسمين . والمقبول والمردود ، فيعد ابن خلدون من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوفهم لمعرفة ما تشوقت اليه النفوس البشرية فى فى اسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، وهم انما يسألون فى ذلك اهل الكتاب قبلهم ، ثم يذكر من الاعتبارات الدينية التى سوغت عنده ، هذا التلقى الكثير لمثل تلك المرويات فى تساهل وعدم تحر للصحة ، ان مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع الى الاحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب العمل بها .

فتساهل المفسرون فى مثل ذلك ، وملئوا كتبهم بمنقولات عن عامة اهل التوراة الذين كانوا بين العرب وكانوا بداة مثلهم ، لا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامة من اهل الكتاب ، ولا تعلق لها بالأحكام الشرعية التى يحتاط لها (١) .

والحق ان هذه الروايات التى امتلأ بها كتب التفسير المذكورة وغير المذكورة ، والمطبوعة وغير المطبوعة — قد استغرقت حيزا كبيرا . ان لم يكن الحيز الاكبر منها ، وكادت تطغى على ما فى القرآن من مبادىء

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ بتصرف .

واحكام ووصايا ، هى جوهر القرآن ومحكمه الذى فيه الهدى والذكر والموعظة والنور والفرقان ، حتى كادت تشغل المسلمين وتستغرق تفكيرهم .

ولقد كان كثير من القصص والشخصيات القرآنية مما ذكر فى الكتب والأسفار التى كانت متداولة فى أيدى أهل الكتاب . ولم تكن هذه الكتب واسفار مترجمة الى العربية ، فكان اليهود يقرءونها بالعبرانية ، ويفسرونها للسائلين بالعربية ، ولم يكن لدى المسلمين الوسيلة للتأكد من صدقهم فى الترجمة أو تحريفهم لها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ((**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**)) (١) .

ونحن نرجح أن جل ما روى عن مسلمى اهل الكتاب كان اجوبة على اسئلة من المسلمين عن جزئيات الأحداث والتشخصيات والأعلام والمسائل القرآنيه ، وانهم كانوا يعزون اجوبتهم الى ما فى أيديهم من الاسفار ، فيتقبله السامعون على علاته ، ويرويه الرواة ويدونه المدونون ، لأنه لا سبيل الى التحقق من صحته ، بالنسبة للسائلين والرواة والمدونين ، من اهل القرون الثلاثة الاولى .

ولا يمنع هذا ، أن أهل الكتاب كانوا يسترسلون فى شرح الأجوبة والتعليق عليها من عند انفسهم .



---

(١) رواه البخارى عن ابى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

مسئولية المفسرين

ان المسئولية الأولى عن هذه الاسرائيليات التى حشدت بها كتب التفسير لا تقع على عاتق الرواة والمدونين القدماء ، سواء الذين رووا ودونوا اجوبة أهل الكتاب وشروحهم لأول مرة فى كتب لم تصل الينا ، أو الذين دونوها فى الكتب التى وصلت الينا نقلا عن الكتب المتقدمة .

وكلهم مفروض فيه القدرة على تمييز الغث من السمين ، والباطل من الحق ، والكذب من الصدق ، وعلى لمح ما فى هذه الروايات من غلو ومبالغات لا يصح كثير منها فى عقل أو منطق او واقع ، ولا يؤيدها اثر صحيح .

ولا شك أن هناك مفسرون وقفوا من بعض هذه الروايات موقف المفكر الناقد ، غير ان الحق يقتضينا ان نقول : ان هذا لم يكن شاملا ولا عاما ، وأن الناقدين والمفكرين انفسهم رووا كثيرا منها فى مناسبات كثيرة دون نقد أو انكار .

امثلة كثيرة :

الدارس لكتب التفسير القديمة يجد بيانات مسهبة حول القصص والشخصيات والأعلام والأحداث القرآنية ، معزوة الى بعض اصحاب رسول الله وتابعيهم ، من غير مسلمى أهل الكتاب أمثال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وابى هريرة ، وابى ذر ، وعبد الله بن جابر ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وزيد بن أسلم ، وعطاء ، وطاوس ، وابن اسحاق ، وغيرهم . ويجد فى هذه البيانات اغرابا ومبالغة وخيالا وبعدا عن المنطق والعقل والامكان .

ومنها ما رواه بصيغة احاديث نبوية غير واردة فى كتب الاحاديث المعتبرة بحيث تكون تسمية البيانات جميعها بالاسرائيليات ليس صحيحا ، وانما هو قبيل التغليب .



ومن هذه البيانات ما يدور حول قصص وشخصيات وأعلام وأحداث قرآنية ليست واردة فى أسفار أهل الكتاب ، وبخاصة أسفار العهد القديم، مثل قصص هود وقومه عاد فى الأحقاف ، وتبع ، وصالح وقومه ثمود فى الحجر ، وشعيب وقومه فى مدين ، وأصحاب الأيكة وأهل الرس ، ولقمان ، وذى القرنين ، وأصحاب الكهف ، وغير ذلك مما هو عربى أو غير اسرائيلى بالاضافة الى البيانات التى تساق على هامش قصص ابراهيم عليه السلام ، والتى لم تذكر فى الاسفار (١) .

والأمثلة على هذا القصص لا حصر لها فى كتب التفسير ، ومن ذلك ما يروى عن قتادة فى سياق انشاء ابراهيم بيت الله مع اسماعيل (٢) ، من ان آدم حين هبط الى الأرض كان راسه فى السماء ورجلاه فى الأرض ، وانه طاف بالبيت فى مكة ، ومد الله له فى خطوه فكان بين كل خطوتين مفازة، فطاف آدم بالبيت ، وطاف به من بعده الأنبياء (٣) .

ومن ذلك ما يروى عن السدى عن زيد بن اسلم فى سياق المناظرة بين ابراهيم عليه السلام والملك نمروذ . وهذه القصة قد وردت فى تفسير مقاتل (٤) ، كما وردت فى تفسير ابن كثير (٥) ، وفيها أن الله سلط البعوض على النمروذ وجنوده وقت طلوع الشمس فلم يروا عين الشمس ، وسلطها عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بالية ، ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك فمكثت فيها اربعمائة سنة يعذبه الله بها ، حتى كان يضرب راسه بالمرزبة فى هذه المدة ، ثم اهلكه الله بها (٦) .

على أن هناك وجها آخر لهذه المسألة ، فنحن لا نعتقد أن هذه البيانات العجيبة الغريبة سواء منها ما روى عن أصحاب رسول الله

---

(١) محمد عزة دروزة ، مقال بمجلة الوعى الاسلامى (بالكويت) السنة الثانية عدد ١٩ رجب سنة ١٣٨٦ هـ ، اكتوبر ١٩٦٦ م . والسيد ابو القاسم الموسوى الخوئى ، البيان فى تفسير القرآن : ١/٣٥ ــ ٤٠ المطبعة العلمية بالنجف .

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية ١٢٧ من سورة البقرة (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ...) الخ الآية .

(٣) انظر تفسير ابن كثير للآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٤) تفسير مقاتل للآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٥) تفسير ابن كثير للآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٦) المرجع السابق .

وتابعيهم من غير مسلمى أهل الكتاب ، أم ما روى عن مسلمى أهل الكتاب ، مخترعة من قبل الذين أوردوها جوابا عن سؤال أو توضيحا لمسألة من المسائل أو قصة من القصص ، لأن هذا يقتضى أن يكونوا جميعهم كذابين مفترين .

ونحن ننزههم عن ذلك ، ونرجح أن هذه البيانات مما كان متداولا فى بيئتهم . ومن المحتمل جدا أن تكون واردة فى كتب وقراطيس لم تصل الينا . كما أن من المحتمل أن بعضها كان من اختراع بعض الناس ، ثم لفقوا لها الأسانيد .

وعلماء الحديث يذكرون أن من أسباب رفض الحديث أن يكون به علة قادحة تمنع من قبوله .. وكم فى هذه الاسرائيليات من شذوذ وعلل قادحة .

* * *

اخبار انفرد بها القرآن

كثير من اخبار الانبياء وقصصهم ورد ذكره فى القرآن ، كما ورد فى كتب العهد القديم والجديد .

ومع ذلك انفرد القرآن باخبار عن بعض هؤلاء الانبياء لم ترد فى الأسفار المتداولة اليوم ، مثل المحاورة بين الله والملائكة فى صدد خلق آدم وخلافته . وامر الله الملائكة بالسجود له ، وامتناع ابليس وتخلف أحد أبناء نوح عن الركوب فى السفينة وغرقه . وتوبة آدم وقبولها من الله . وقصص ابراهيم مع أبيه وقومه ، واسكان ابراهيم بعض ذريته فى منطقة المسجد الحرام ، وبنائه البيت هو واسماعيل . وايمان سحرة فرعون . ومؤمن آل فرعون . وصنع داود للدروع . وحكومة داود وسليمان فى الحرث الذى نفشت فيه غنم القوم ، وتسخير الخيل والطير لداود ، وتسخير الجن والريح والطير لسليمان ، وبناء الجن له التماثيل والمحاريب ، وغوصهم له ، وتقييده اياهم بالأغلال وقصة الهدهد وملكة سبأ وعرشها ، والصرح الممرد من القوارير ، واحضار الذى عنده العلم عرشها فى لمح البصر . والجسد الملقى على عرشه والصافنات الجياد ، ومائدة عيسى وكلامه فى المهد وغير ذلك كثير (١) .

---

(١) انظر عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، وكتاب الانجيل والصليب تأليف الاب عبد الاحد داود الاشورى العراقى ، نقله من التركية الى العربية مسلم عراقى طبع فى القاهرة ١٣٥١ هـ ، وبه تعليقات هامة انظر ص ١٤١ ـ ١٦٠ هامش كتاب الانجيل والصليب المذكور ، وانظر مجلة الوعى الاسلامى عدد ١٩ رجب ١٣٨٦هـ مقال محمد عزة دروزة .

وقد وردت اشياء كثيرة فى القرآن مغايرة قليلا او كثيرا لما ورد فى الاسفار مثل نسبة صنع العجل للسامرى فى القرآن بدلا من هارون فى الاسفار . وشق قميص يوسف وهمه بامرأة العزيز ، ومثل ما جاء مباينا للقرآن فى قصص يونس وايوب وزكريا ومريم وامها وغير ذلك كثيرا أيضا .

ونحن نرجح انه كانت هناك أسفار وقراطيس لم تصل الينا فيها ما هو متطابق مع ما جاء فى القرآن ، وانه كان فى هذه الاسفار والقراطيس التى لم تصل الينا كثير من البيانات التى تروى عن مسلمى اهل الكتاب ، وعن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم من غير مسلمى اهل الكتاب .

وفى الاسفار المتداولة اليوم اشارات الى أسفار كانت موجودة فى القديم ثم فقد تداولها فى هذه الايام .

من جملتها توراة موسى التى كتبها بيده ، ودون فيها تبليغات الله تعالى ووصاياه ، والألواح ، ومدونة وصفت بالنشيد الربانى ، وأسفار عديدة اخرى : مثل أسفار ياشر وعدى واخيلو وشيلو ، واخبار أيام كل ملك من ملوك اسرائيل ويهوذا الخ ، مما يمكن أن يكون يقاس عليه(١) .

وقد ذكر القرآن ان اليهود حرفوا التوراة (٢) وكتبوا بعض ما انزل الله (٣) ، وأضافوا الى التوراة ما ليس منها (٤) ، وجحدوا ما انزل الله كفرا وعنادا . قال تعالى :

« وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شىء قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » (٥) .

---

(١) المرجع السابق ، وانظر : ابو القاسم الموسوى الخوئى ، البيان فى تفسير القرآن ، ١/٣٩ .

(٢) فى الآية ٧٥ من سورة البقرة (أفتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) .

(٣) فى الآية ٧٦ من سورة البقرة .

(٤) فى الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٩١ من سورة الانعام .

اعتذار عن المفسرين

وقد اعتذر الطوفى (١) عن المفسرين فى ملء تفاسيرهم بالاسرائيليات (بأن كثيرا من المفسرين قد دونوا من الاسرائيليات ما يظنون به أن له نفعا لتبيين بعض النواحى فى انباء القرآن الحكيم من معارف عصرهم ، المتوارثة من اليهود وغيرهم ، تاركين امر غربلتها لمن بعدهم من النقاد ، حرصا على ايصال تلك المعارف الى من بعدهم ، لاحتمال أن يكون فيها بعض فائدة من ايضاح ما اجمل من الانباء فى الكتاب الكريم ، لا لتكون تلك الروايات حقائق فى نظر المسلمين ، يراد اعتقاد صحتها والأخذ بها على علاتها دون تمحيص ، فلا تثريب على من دون الاسرائيليات بهذا القصد) .

ذكر الطوفى ذلك فى كتابه (الاكسير فى قواعد التفسير) ، ثم ضرب لذلك مثلا بصنيع رواة الحديث حين عنوا بادىء ذى بدء بجمع الروايات كلها تاركين أمر التمييز بين صحاحها وضعافها لمن بعدهم من النقاد (٢) .

وذكر ابن كثير فى تفسيره كلاما قريبا من كلام الطوفى (٣) .

بيد أن المحقق احمد محمد شاكر فند كلام ابن كثير ورفض اعتذاره عن المفسرين ، وعاب على ابن كثير ايراده كثيرا من الاسرائيليات والأحاديث الواهية فى تفسيره ، رغم النقد الشديد الذى وجهه ابن كثير لمن يفعل ذلك، الا أنه عند التطبيق خانه التوفيق .

---

(١) هو نجم الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم الطوفى نسبة الى طوف وهى قرية من سواد بغداد . ولد سنة ٦٧٥هـ وتوفى سنة ٧١٦هـ .

(٢) مقالات الكوثرى ص ٣٤ مطبعة الانوار بالقاهرة ، وذكر الكوثرى ان اعتذار الطوفى عن المفسرين اعتذار وجيه . وفى معهد المخطوطات بالجامعة العربية نسخة مصورة من كتاب الاكسير من مكتبة « حلبى زادة » بتركيا .

(٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ص ١٤ — ١٥ تحقيق احمد شاكر .

يقول احمد محمد شاكر رحمه الله : **(ان اباحة التحدث عن بنى اسرائيل شيء ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن وجعله قولا او رواية معنى الآيات ، او فى تعيين ما لم يعين فيها او فى تفصيل ما اجمل فيها ـ شيء آخر ، لأن فى اثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم ان هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما اجمل فيه ، وحاشا لله ولكتابه من ذلك . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ اذن بالتحدث عنهم ـ امرنا الا نصدقهم ولا نكذبهم فاى تصديق لرواياتهم واقاويلهم اقوى من ان نقر بها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير او البيان ؟ اللهم غفرا)** (١) .

واخيرا فانا نرى أن اعتذار الطوفى وغيره من المفسرين لا يعفيهم أبدا من المسئولية ولا يعفى من نقل عنهم جيلا بعد جيل تلك البيانات والروايات الغريبة العجيبة التى شغلت الحيز الكبير من كتب التفسير ، وأدت الى تشويش الأذهان ، والتغطية على محكم القرآن ، فوجود هذه الاسرائيليات فى أسفار اليهود وكتبهم لا يسوغ ايرادها فى كتب التفسير على علاتها ، حيث توهم من يقرؤها أنها بيان للقرآن وتوضيح لأهدافه . مع أنها صارفة للذهن عما اقتضت حكمة التنزيل ايراده .

((وبعضها من عمل القصاص ووضاع الحديث وأهل الدس والكيد من اليهود)) (٢) . قال الامام احمد : **(ثلاثة امور ليس لها اصل : التفسير والملاحم والمغازى)** ، ويريد من التفسير هنا التفسير بالرواية ، ويعنى بأنها ليس لها أصل : انها ليس لها اسناد صحيح ، ومعنى هذا ان كثيرا مما روى من هذا النوع على كثرته مما يتوجه اليه الاتهام (٣) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢ ، ٣) محمد الزفزاف ؟ التعريف بالقرآن والحديث ، ص ١٤٩ .

نتائج

يمكن أن نخلص من هذه الدراسة الى بيان الواجب علينا نحو التفسير بالرواية ، ويتلخص ذلك فيما يأتى :

١ ـ نقد هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلى على هدى قواعد القوم فى نقد الرواية متنا وسندا ثم يستبعد منهـا الكثير الذى لا يستحق البقاء ، ولست اظن ان هذا العمل الشاق المضنى يستطيع ان يقوم به فرد وحده بل لا بد من جماعة كبيرة تتفرغ له ويتسع أمامها الزمن ، وتتوفر لديها المصادر أو المراجع التى تتعلق بالموضوع وتتصل به ، كالمكتب الفنى للدعوة بوزارة الأوقاف ، أو اللجان التابعة للمجلس الأعلى للشئون الاسلامية أو للأزهر .

٢ ـ تخريج الأحاديث الواردة فى كتب التفسير كما فعل الحافظ الزيلعى فى كتابه (نصب الراية فى تخريج احاديث الهداية) وكما فعل ابن حجر فى كتابه (الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف) وبذلك نميز الصحيح من العليل .

٣ ـ القاء المحاضرات التى تنبه الأذهان الى خطر هذه الاسرائيليات والرقابة على الأئمة والخطباء والمتصوفة والقصاص واضرابهم ممن تشيع على السنتهم الاسرائيليات ويذكرونها لاستمالة العـامة . كما يجب أن تفرض رقابة دقيقة على الكتب التى تدرس فى دور العلم ومعاهده وبخاصة كتب التفسير والوعظ والتصوف ونحوها . ولكى يخرج هذا العمل الجليل كاملا يجب أن يتولاه عدد من الأساتذة ذوى الاختصاص .

٤ ـ بذل الجهود لاعادة طبع كتب السنة المعتمدة وبخاصة تلك التى نبهت على الموضوعات والاسرائيليات وأن يحقق وينشر القسم الذى ما زال مخطوطا منها ومجهولا لكثير من الباحثين .

٥ ـ ان تؤلف كتب او رسائل خاصـة يجمع فيهـا الاسرائيليات الموجودة فى كتب التفسير ـ كل على حدة ـ ثم ينبه على زيفها ، فمثلا تؤلف رسالة خاصة تستقصى فيها الاسرائيليات الموجودة فى تفسير الثعلبى ، واخرى يستقصى فيها ما فى تفسير الخازن .. وهكذا . وبهذه الطريقـة نجمع جميع الاسرائيليات الموجـودة فى كتب التفسير فيتحاشى النـاس سمومهـا .

٦ ـ أن تتوفر الأفراد والهيئات على اعادة طبع كتب التفسير مجردة من الاسرائيليات ، فيعاد طبع الخازن مثلا بعد حذف الاسرائيليات منه وبذلك نستفيد بهذا التراث الغالى ونجرده من الشوائب التى علقت به .

* * *

ـ ١١ ـ

تفنيد فرية

اذا كان المسلمون قد تأثروا باليهود فى الاسرائيليات التى تناقلهـا بعض المفسرين ـ وافلح المصلحون ـ أو كادوا ـ فى تطهير العقول منهـا والرجوع بها الى الجادة الاسلامية .. فان بعض المستشرقين يتخذ من ذلك ذريعة للقول بأن الاسلام نسخة من اليهودية .

وهو قول خاطىء واشاعة رائجة « لم يبرأ منها رجل فى طبقة الدكتور « شويتزر » فى الثقافة والخلق » (١) .

والحقيقة المجردة هى :

أن اليهودية دين سماوى ، والاسلام دين سماوى ومصدر الوحى فى القرآن وغيره من الكتب السماوية ، واحد ، وهو الله جل وعلا .

وقد كان القرآن خاتم الكتب السماوية فمن الطبيعى أن يكون فى القرآن بعض ما فى هذه الكتب والرسالات السماوية من أنباء وقصص ، وان كان بعضها على نحو أبسط وأوجز . لا عجب فيه ؛ ولو كان الامر غير هذا لكان هو العجب .

---

(١) عباس العقاد ، ما يقال عن الاسلام ، ص ١٤٦ .

« من هنا كان خطأ بعض المستشرقين خطأ كبيرا فى المنهج حين يتعرضون لشيء مما حوى القرآن من تلك الأنباء وذلك القصص متخذين التوراة وحدها المقياس للحقيقة والمصدر لكل شيء من أخبار الماضين ، متناسين أن كلا من التوراة والقرآن من عند الله الذى أودع فى كل من الكتابين ما شاء من البسط أو الايجاز (١) .

لا معنى اذا للقول بأن القرآن اخذ هذه القصة او تلك عن التوراة ، أو الادعاء بأن الرسول كان يعرف التوراة واخذ عنها . وهذا وذاك لا ضرورة لافتراضه ، ما دام كل من الكتابين من عند الله . وبخاصة انه قد تعارف الناس جميعا أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، قال تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » (٢) .

ثم كيف يفسر هؤلاء المتعنتون اشتمال القرآن على قصص وأنباء لم تجيء فى التوراة بل لم تشر إليها ان كانت هى المصدر الذى اخذ منه الرسول ما أخذ فى هذه الناحية (٣) ؟ .

- ١٢ -

تأثير الاسلام فى اليهودية

ان المقارنة بين عبادات اليهود قبل اتصالهم بالمسلمين وعباداتهم بعد هذا الاتصال ببضعة اجيال تثبت أن القدوة بالمسلمين عادت باليهود الى احياء السنن التى هجروها من عباداتهم الأولى وعلمتهم سننا أخرى لم يعلموها ومنها شعائر فى صميم العبادة كشعائر الوضوء والغسل ونظام الصلاة الجامعة وغيرها من الشعائر . فلم يرد فى نصوص التلمود ذكر للوضوء اكثر من غسل اليدين ، ولم يرد امر بالغسل من الجنابة فى كتب اليهود . قال موسى بن ميمون « انه لا يرى فى كتب السلف الأولين

(١) د. محمد يوسف موسى ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة داود ؛ ١٢٤/٩ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨ .

(٣) د. محمد يوسف موسى . دائرة المعارف الإسلامية مادة داود ؛ ١٢٤/٩ .

ما يوجب غسل الجنابة ولكنه يغتسل بحكم العادة حيث عاش ونشـا في بلاد المسلمين » (١) .

وقد كانت صلاة الهمس تصلى في المعابد الاسرائيلية ، وكان جمهور المصـلين يتحدثون الى من بجوارهم ويبصـقون ويثرثرون أثناء صلاة الهمس ، ظنا منهم أن الصلاة مقصورة على ما يهمـس به الكاهـن ولا يسـمعونه .

وكانت خير وسيلة للقضاء على هذه الحالة أن دعا بعض المصـلحين اليهود مثل (ميمون بن مهران) الى أن يسلك اليهود مسلك المسلمين في صلواتهم الجامعة . بعد الاقتداء بهم في فرائض الوضوء والتطهير ، ورعاية المسجد من جميع الوجوه .

وفي هذا كله تفنيد لخرافة القائلين بأن الاسلام شعبة من اليهودية ، أو أن الاسلام مدين لها بشعائره وأحكامه ، فالواقع أن اليهودية بعـد الاسلام قد استفادت من آدابه وشـعائره كما استفادت من ثقافته في علم الاصول وفي نحو اللغة وعروضها وأوزان شعرها (٢)

وأما قبل الاسلام فمصادر اليهودية في المسـائل المتفق عليها هي مصادر الاسلام ، كلاهما دين سماوي من عند الله . بيد أن اليهود حرفوا كلام الله وكتموا بعض أحكام التوراة بينما حفظ الله القرآن الكريم من التحريف والتبديل .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »



(١) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ١٥٠ نقلا عن كتـاب (تأثير الاسلام في العبادة اليهودية) تأليف نفتالي فيدر .

(٢) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ١٥٠ .

الفصل السادس
آيات الصفات في القرآن الكريم

ا ـ مسلك الصحابة فى فهم آيات الصفات

ب ـ انكار الصفات

جـ ـ مذهب الاشعرى فى الرؤية

* * *

أ - مسلك الصحابة فى فهم صفات الله

١ ـ جاء فى القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن لله وجها(١) ويدين(٢) وجهة هى السماء(٣) ومكانا هو العرش (٤) ، ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسيمة والانتقال ، وآيات اخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها .

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بانه لا تدركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى .

فراى رجال السلف الصالح متابعة الصحابة والتابعين فى موقفهم منها .

«فغلبوا ـ كما يذكر ابن خلدون ـ أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل » (٥) .

---

(١) (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) سورة الرحمن الآية ٢٦ ، ٢٧ وفى سورة القصص الآية ٨٨ (كل شىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) .

(٢) (يد الله فوق أيديهم) آية ٨ سورة الفتح (قل ان الفضل بيد الله) ٧٣ آل عمران . (قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) سورة (ص) ، آية ٧٥ . (بل يداه مبسوطتان) المائدة : ٦٤ .

(٣) (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) تبارك آية : ١٦ .

(٤) (الرحمن على العرش استوى) طه آية : ٥ (ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام استوى على العرش) الأعراف : ٥٤ .

(٥) المقدمة ص ٣٦٧ ومثل هذا فى الملل والنحل : ١/١٢٦ ، ١١٧ .

وقد سئل الامام مالك عن معنى قوله تعالى : « **الرحمن على العرش استوى** » فقال : « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » (١) .

وقال تقى الدين المقريزى (٢) فى كتاب « الخطط » .

(اعلم ان الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا الى الناس جميعا ، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة فى كتابه العزيز ، الذى نزل به على قلبه — صلى الله عليه وسلم — الروح الأمين ، وبما أوحى اليه ربه تعالى .

(فلم يسال ، صلى الله عليه وسلم ، احد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهم عن معنى شىء من ذلك ، كما كانوا يسالونه ، صلى الله عليه وسلم عن امر الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك مما لله سبحانه فيه امر ونهى ، وكما سالوه ، صلى الله عليه وسلم ، عن أحوال القيامة والجنة والنار ، ولو سأله انسان منهم عن شىء من الصفات الالهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم . فى أحكام الحلال والحرام ، وفى الترغيب والترهيب وأحوال القيامة ، والملاحم والفتن ، ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث ، ومعاجمها ومسانيدها وجوامعها .

(ومن امعن النظر فى دواوين الحديث النبوى ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم ، أنه سال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن معنى شىء مما وصف به الرب سبحانه نفسه الكريمة فى القرآن الكريم ، وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كلهم فهموا معنى ذلك ، وسكتوا عن الكلام فى الصفات ، نعم ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وانما أثبتوا له تعالى صفات ازلية من العلم والقدرة ، والحياة والارادة . والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام ، والجود والانعام ، والعز والعظمة . وساقوا الكلام سوقا واحدا .

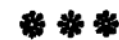
---

(١) الملل والنحل : ١١٨/١ .

(٢) توفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١ — ١٤٤٢م) .

وهكذا أثبتوا ، رضى الله عنهم ، ما اطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك ، مع نفى مماثلة المخلوقين ، فأثبتوا ، رضى الله عنهم ، بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم الى تأويل شىء من هذا ، ورأوا باجمعهم اجراء الصفات كما وردت .

« ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى وعلى اثبات نبوة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة » (١) .



(١) المقريزى : الخطط ١٨٠/٤ ــ ١٨١ .

ب - إنكار الصفات

كان الجعد بن درهم الذى قتل سنة ١٢٠هـ/٧٣٧م (١) مؤدبا لمروان ابن محمد الملقب بالجعدى (٢) .

وهو أول من قال بنفى الصفات عن الله (٣) ثم اخذ عنه الجهم بن صفوان المقتول سنة ١٢٨هـ (٧٤٥م) .

وقد اخذت المعتزلة عن جهم قوله بنفى الصفات وقوله بخلق القرآن .

---

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير ٦٨/٥ .

(٢) الثعالبى : لطائف المعارف ٤٣ والمطهر بن طاهر المقدسى . البدء والتاريخ ٥٤/٦ . وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٧١/٥ والذهبى : تاريخ الاسلام ٢٣٨/٤ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامى : مادة تشبيه ٢٥٣/٥ . وابن تيمية : رسالة الفرقان من مجموعة الرسائل الكبرى ١٣٧/١ القاهرة ١٣٢٣هـ . وذكر أنه السبب فى سقوط آخر خلفاء بنى امية . وابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٠/٩ . والذهبى : تاريخ الاسلام ٢٣٩/٤ . وذكر أن الجعد كان يختلف الى وهب بن منبه ويسأله عن صفات الله عز وجل فقال له وهب يوما : ويلك يا جعد ، اقصر المسألة عن ذلك ، انى لاظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله فى كتابه أن له يدا ما قلنا ذلك ، وأن له سمعا ما قلنا ذلك ، وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ، ثم قتل) وقد ذكر ذلك ابن كثير فى البداية والنهاية فى التاريخ ٣٥٠/٩ نقلا عن ابن عساكر .

ويلقب المعتزلة احيانا بالجهمية نسبة الى جهم بن صفوان .

« وقال جهم بنفى التشبيه وقال ايضا لا يجوز ان يقال ان الله شىء ولكنه منشىء الشىء ، قال لانه لم يقع اسم الشىء الا على مخلوق ولا يكون الله تعالى بصفة الخلق » (١) .

كما نفى عن الله تعالى : « **العين ، والوجه ، واليد ، والاستواء ، والكرسى ، والعرش ، والنظر اليه ، والتكلم** » (٢) .

* * *

(١) نشوان الحميرى : الحور العين تحقيق كمال مصطفى : ١٤٨ القاهرة ١٩٤٨م ، ومقالات الاسلاميين ١/٢٣٣ ، ٢/١٨٠ ، والبدء والتاريخ ١/١٠٥ ، والشهر ستانى : نهاية الاقدام فى علم الكلام / ١٥١ ، وابن تيمية : الحسنة والسيئة ٢٢٤ .

(٢) ابن حنبل الرد على الجهمية ١٦ — ٢٣ . رد الدرامى على بشر المريس : ٢٣ .

ج - مذهب الأشعري في الرؤية

كان مذهب الأشعرى وسطا بين المبالغة فى الاثبات والغلو فى التنزيه والتعطيل .

فقد بالغ مقاتل فى اثبات رؤيته تعالى حتى أثبت الفوقية والجهة (١) .

كما بالغ الحنابلة المشبهة فذهبوا الى جواز رؤيته تعالى فى الدنيا ، جريا وراء الظاهر من الآيات والأحاديث وقد ذكر غلوهم ابو الفرج ابن الجوزى فى كتابه دفع شبهة التشبيه (٢) واجازوها فى جهة ومكان (٣) بينما احالها المعتزلة لما تستلزمه فى رأيهم من جهة يكون فيها المرئى فى مقابلة الرائى (٤) .

فجاء الأشاعرة وذهبوا الى جواز الرؤية بالأبصار فى الدنيا ووقوعها فى الآخرة من غير ان نستلزم ان يكون المرئى فى مكان وجهة ودون ارتسام صورة المرئى فى العين ونحو هذا مما يوهم التشبيه .

وبذلك كان الأشاعرة وسطا فى هذه المسألة . كما كانوا وسطا فى مسألة الصفات .



---

(١) التنبيه والرد ص ٦٣ حيث يقول : فاما تفسير (لا تدركه الابصار) يعنى لا يراه الخلق فى الدنيا دون الآخرة ولأحد السموات دون الجنة .

(٢) ص ٢٩ وما بعدها .

(٣) المقاصد ٢/٨٢ .

(٤) المواقف ص ٣٠٧ وما بعدها .

المناهج الرئيسية فى فهم آيات الصفات

الدارس لتاريخ الفرق الاسلامية يجد نفسه امام ثلاثة انماط من التفـكير :

النمط الأول :

يرى أن تفهم النصوص على ظاهرهـا بلا تأويل وهؤلاء هم بعض الحنـابلة .

والنمط الثـانى :

يبالغ فى التأويل حتى يصرف النصوص عن ظاهرها ويؤولها بمعنى يليق بذاته تعالى ، وهؤلاء هم المعتزلة .

والنمط الثالث :

يتوسط بين الفريقين وهؤلاء هم الأشاعرة ولنتعرف على هذه الانماط الثلاثة فى التفكير فيما يأتى :

* * *

المناهج الرئيسية في فهم آيات الصفات

١ ـ الحنـابلة

٢ ـ المعتزلة وتعطيل الصفات

٣ ـ الأشـاعرة

* الأشاعرة وابن تيمية

* عودة الى منهج الصحابة

* * *

١- الحنابلة

ذهب الحنابلة الى المبالغة فى اثبات الصفات ، وراوا الاخذ بظاهر الآيات والأحاديث كما وردت من غير تأويل ، وتطرف جماعة منهم فى الأخذ بالظاهر وتفسيره كما ورد وقد ذكر جمال الدين بن الجوزى فى كتاب « دفع شبه التشبيه » كثيرا من اراء هؤلاء المتطرفين فقال فى ذلك :

رايت من اصحابنا (الحنابلة) من تكلم فى الأصول بما لا يصلح وانتدب للتصنيف ثلاثة .

أبو عبد الله بن حامد (١) والقاضى أبو يعلى (٢) وابن الزغوانى (٣) .

« فصنفوا كتبا شانوا بها المذهب ، ورأيتهم قد نزلوا الى مرتبة العوام ، فحملوا الصفات على مقتضى الحس ، فسمعوا أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه السلام على صورته ، فاثبتوا له صورة ووجها

---

(١) هو شيخ الحنابلة فى عصره : ابو عبد الله بن حامد بن على البغدادى الوراق المتوفى سنة ٤٠٣هـ كان من أكبر مصنفى الحنابلة ، له كتاب فى أصول الاعتقاد سماه شرح أصول الدين ، وفيه أقوال تدل على التشبيه والتجسيم .

(٢) هو القاضى أبو يعلى محمد بن الحسين بن خلف بن الفراء الحنبلى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ ولقد تكلم فى أصول الاعتقاد كلاما تبع فيه استاذه ابن حامد واكثر من التشبيه والتمثيل ، حتى لقد قال فيه بعض العلماء : « لقد شان أبو يعلى الحنابلة شيئا لا يغسله ماء البحار » .

(٣) هو أبو الحسن على بن عبيد الله بن نصر الزغوانى الحنبلى المتوفى سنة ٥٢٧ هـ وله كتاب فى أصول الاعتقاد اسمه الايضاح ، قال فيه بعض العلماء « ان فيه من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه » .

زائدا على الذات ، وعينين وفما ولهوات واضراسا ، ويدين واصابع وكفا وخنصرا وابهاما وصدرا وفخذا وساقين ، ورجلين .

« وقالوا ما سمعناه بذكر الراس .. وقد اخذوا بالظاهر فى الأسماء والصفات . فسموها بالصفات تسمية مبتدعة ، ولا دليل لهم فى ذلك من النقل ولا من العقل ، ولم يلتفتوا الى النصوص الصارفة عن الظواهر الى المعانى الواجبة لله تعالى ، ولا الى الغاء ما توجبه الظواهر من سمات الحدث ، ولم يقنعوا ان يقولوا صفة فعل ، حتى قالوا صفة ذات ، ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا لا نحملها على توجيه اللغة ، مثل يد على نعمة وقدرة ، ولا مجىء واتيان على معنى بر ولطف ، ولا ساق على شدة ، بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة . والظاهر المعهود من نعوت الآدميين ، والشىء انما يحمل على حقيقته اذا امكن ، فان صرف صارف حمل على المجاز ثم يتحرجون من التشبيه ، ويأنفون من اضافته اليهم ويقولون نحن أهل السنة وكلامهم صريح فى التشبيه » (١) .

---

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية ٥/٥٣٥ ، ابو زهرة ابن تيمية/ ٢٧٣ .

الامام جمال الدين بن الجوزى الحنبلى : دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ص ١٠ .

وقد حصر اغلاطهم فى سبعة مواضع :

(الأول) : انهم سموا الأخبار اخبار صفات وانما هى اضافات وليس كل مضاف صفة فانه تعالى قال : (ونفخت فيه من روحى) وليس لله صفة تسمى الروح فقد ابتدع من سمي المضاف صفة .

(الثانى) : انهم قالوا هذه الاحاديث من المتشابه الذى لا يعلمه الا الله تعالى ثم قالوا نحملها على ظواهرها فواعجبا ما لا يعلمه الا الله تعالى أى ظاهر له ، وهل ظاهر الاستواء إلا القعود ، وظاهر النزول الا الانتقال .

(والثالث) انهم اثبتوا لله سبحانه وتعالى صفات ، وصفات الحق جل جلاله لا تثبت الا بما تثبت به الذات من الأدلة القطعية . =

=

(الرابع) : انهم لم يفرقوا فى الاثبات بين خبر مشهور كقوله صلى الله عليه وسلم : (**ينزل الله تعالى الى السماء الدنيا**) وبين حديث لا يصح كقوله : (**رأيت ربى فى أحسن صورة**) .

(الخامس) : انهم لم يفرقوا بين حديث مرفوع الى النبى صلى الله عليه وسلم وبين حديث موقوف على صحابى أو تابعى فاثبتوا بهذا ما اثبتوا بهذا .

(والسادس) انهم تأولوا بعض الألفاظ فى موضع ، ولم يتأولوها فى موضع كقوله : (**ومن اتانى يمشى اتيته هرولا**) قالوا : ضرب مثلا للانعام .

(والسابع) : انهم حملوا الأحاديث على مقتضى الحس ، فقالوا ينزل بذاته وينتقل ويتحول بذاته ، ثم قالوا لا كما نعقل فغالطوا من يسمع وكابروا الحس والعقل) .

(ابن الجوزى : دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة ص ٨) .

***

٢ - المعتزلة وتعطيل الصفات

على النقيض من رأى هؤلاء الغلاة ، فى التمسك بظاهر ما تشابه من الآيات والأحاديث الذين صاروا الى التشبيه والتجسيم .

نجد المعتزلة الذين غلوا فى فهم وحدة الله وتنزيهه فصاروا الى التعطيل بنفى كل الصفات .

وهؤلاء المعتزلة يرجعون فى الاصل الى شعبتين : شعبة البصرة التى اسسها واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١ هـ) وشعبة الكوفة التى اسسها بشر بن المعتمر المتوفى عام ٢١٠ هـ وهم فرق كثيرة تختلف فى بعض التفاصيل والجزئيات الا انها كلها يجمعها أصول خمسة .

التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (١) .

وتطبيقا لأصلهم الأول ، وهو التوحيد تراهم يغلون فى فهم تنزيه الله عن سمات المخلوقين فينفون صفات المعانى من العلم والقدرة والارادة والحياة حذرا من تعدد القديم ، كما قضوا بنفى السمع والبصر والكلام من عوارض الأجسام (٢) .

---

(١) ابو الحسين الخياط المعتزلى : الانتصار ص ١٢٦ نشرة الدكتور نيبرج (طبع دار الكتب المصرية عام ١٩٢٥ م) .
المسعودى مروج الذهب : ٣/١٥٣ - ١٥٤ .
الشهرستانى الملل والنحل : ١٠/ ٥١ .

(٢) ابن خلدون ص ٣٦٨ ، والتفتازانى فى المقاصد ٢/ ٥٤ .

وهكذا امعنوا فى هذه الناحية بنفى الصفات حتى سموا أيضا معطلة (١) .

اى الذين عطلوا الذات من صفاتها ، فى مقابلة الذين اثبتوها من السلف فسموا بالصفاتية .

***

وخير ما يمثل شرح المعتزلة لاصلهم الاول — أعنى التوحيد — هو ما حكاه عنهم الأشعرى فى كتابه القيم مقالات الاسلاميين (٢) .

(... ان الله تعالى واحد ليس كمثله شىء فليس بجسم ولا صورة ولا جوهر ولا عرض ، ولا بزى لون ولا رائحة ولا طول عرض ولا عمق ، ولا يتحرك ولا يسكن وليس بذى اعضاء وأجزاء وجوارح وليس بذى جهات ولا يحيط به مكان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ولا تدركه الأبصار ولا يسمع بالأسماع) .

الى آخر تلك الصفات السلبية كلها التى بها يسلم اصلهم الاول ، وهو توحيد الله فى كل شىء وتنزيهه عن كل مشابهة لشىء من خلقه ما خطر منها بالبال وما لم يخطر .

وهكذا نرى أن راى المعتزلة فى هذه المسألة يقوم على الاستمساك بآيات التنزيه وتأويل الآيات المتشابهة تأويلا يتفق والتنزيه والتوحيد اللذين جاء بهما الاسلام .

وكان من هذا ان اولوا الاستواء على العرش بالاستيلاء واليد بالقدرة أو النعمة ، والعين — فى قوله تعالى :

---

(١) الملل والنحل ١/١١٦ ، التفتازانى ، المقاصد : ٢/٥٤ .
(٢) ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(ولتصنع على عينى) ـ بالعلم (١) ، وان اجمعوا على ان الله لا يرى بالأبصار (٢)لاستلزام الرؤية الجهة والجسمية عندهم .

***

وقد انتدب المعتزلة انفسهم للدفاع عن الدين وكانوا اكثر الفرق اتصالا بالفلسفة اليونانية وأسرعهم للافادة منها .

وقد قربهم بعض الخلفاء العباسيين . فاشتد طغيانهم ولم يتركوا فقيها معروفا ، أو محدثا مشهورا ، أو اماما متبعا الا أنزلوا به محنة فى رايه وفكره .

فلم ينج من شرهم الا من نهج نهجهم (٣) .

***

---

(١) مقالات الاسلاميين ص ١٥٧ .

(٢) مقالات الاسلاميين ص ١٥٧ .

(٣) محمد ابو زهرة : ابن تيمية ١٨٤ .

٣ - الأشاعرة وابن تيمية

ظهر الأشعرى (١) فى آخر القرن الثالث الهجرى وأول القرن الرابع ، وهى فترة تطاحن الملل والنحل والمذاهب والآراء .

فاسس مذهبه الذى عرف فيما بعد بمذهب أهل السنة والجماعة من أصحاب الحديث والراى وجملة فرق الفقهاء ، أى أصحاب الحق دون من عداهم من المبتدعين .

* * *

تخرج الاشعرى على المعتزلة فى علم الكلام وتتلمذ على أبى على الجبائى حتى صار امام المعتزلة فى عصره ثم وجد من نفسه ميلا الى آراء الفقهاء والمحدثين مع انه لم يغش مجالسهم ولم يتل العقائد على طريقتهم(٢).

ولذا عكف فى بيته مدة عنى فيها بتحكيم العقل والنظر الصحيح فى آراء تلك الفرق المتعارضة المتناقضة وبخاصة فى آراء المعتزلة أصحابه القدامى .

حتى هدى فى كثير من الحالات الى راى وسط يعتبر الحق لدى جمهرة النظار المعتبرين وفى ذلك يقول ابن خلدون بعد ما حكى فى ايجاز آراء المشبهة والمجسمة ، وما كان من المعتزلة من عقائد تخالف مذهب اهل السلف ـ يقول :

وكان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالادلة العقلية ، على هذه العقائد ، دفعا فى صدور هذه البدع .

---

(١) أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى وتوفى سنة ٣٣٠هـ على ارجح الاقوال .

(٢) محمد ابو زهرة ابن تيمية ص ١٨٥ .

وقام بذلك الشيخ ابو الحسن الأشعرى أمام المتكلمين ــ فتوسط بين الطرق ونفى التشبيه ، واثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه ، ورد على المبتدعة فى ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح ، والتحسين والتقبيح (١) .

وفى مكانه الأشعرى يقول ايضا الحافظ ابن عساكر الدمشقى المتوفى عام ٥٧١هـ :

انه فى ذلك العصر (٢) قام سرق البدع وحاد أهل الاعتزال عن سنن الاعتدال فنفوا عن الرب سبحانه ما اثبته من صفاته ، وتمادى أهل التشبيه حتى توهموا ربهم جسما يقبل تميزا وافتراقا وانضماما . حتى جاء ابو الحسن الأشعرى .

فكان لديه الخصام لمن حاول الالحاد فى سماء الله وصفاته ، والزم الحجة لمن خالف السنة فلم يسرف فى التعطيل ، ولم يغل فى التشبيه وكان بين ذلك قواما) (٣) .

وقد ظهر توسط الأشعرى وكبار النظار الذين نصروا رايه من بعده وسموه مذهب أهل السنة والجماعة فى مسائل كثيرة من اهمها مشكلة الصفات :

فقد وجد الأشاعرة أن المشبهة والمجسمة الغوا عقولهم بحجة التمسك بالظاهر فاضافوا له ما لا يرتضيه عاقل من الصفات التى تدل على أن له تعالى جهة ومكانا وأجزاء ونحو هذا ، وأن المعتزلة غلوا فى الطرف الآخر فنفوا عن الله كل صفة فوقعوا فى التعطيل ، وأن الحق هو التوسط فى الأمر فاضافوا له صفات العلم والقدرة ونحوهما مما لا يوهم التجسيم والتشبيه وبذلك كانوا بحق وسطا بين طرفى الافراط والتفريط .

---

(١) المقدمة : ص ٣٦٨ .

(٢) أى عصر الاشعرى فى آخر القرن الثالث واول القرن الرابع .

(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ٢٥ ، ٢٦ نشر القدسى بدمشق سنة ١٣٤٧هـ .

(وقد ذكر شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدة الاشعرى اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة) (١) .

الاشاعرة وابن تيمية :

فصل المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ ، ١٤٤١م حال المذهب الاشعرى منذ نشأته الى عهده فقال :

وحقيقة مذهب الأشعرى رحمه الله انه سلك طريقا بين النفى الذى هو مذهب الاعتزال . وبين الاثبات الذى هو مذهب اهل التجسيم ، وناظر على قوله هذا ، واحتج لمذهبه فمال اليه جماعة وعولوا على رأيه منهم .

القاضى ابو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى .

وابو بكر محمد بن الحسن بن فورك .

والشيخ ابراهيم بن محمد بن مهران الاسفرايينى والشيخ ابو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى وابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن احمد الشهرستانى .

والامام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى وغيرهم ممن يطول ذكره ، ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه ، واستدلوا له فى مصنفات لا تكاد تحصر ، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة وانتقل منه الى الشام ... » (٢) .

وبعد ان ذكر انتشار المذهب فى مصر وفى بلاد المغرب قال :

(فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب الأشعرى وانتشاره فى فى امصار الاسلام بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل ، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، الا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الامام أبى عبد الله أحمد محمد بن حنبل رضى الله عنه فانهم كانوا على ما كان عليه السلف لا يرون تأويل ما ورد من الصفات ، الى أن كان بعد السبعمائة من الهجرة ، اشتهر بدمشق وأعمالها تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحرانى .

---

(١) ابن السبكى « طبقات الشافعية الكبرى » ٢/٢٥٤ ـ ٢٥٥ .
(٢) « الخطط » ٤/١٨٤ .

فتصدى للانتصار لمذهب السلف وبالغ فى الرد على مذهب الأشاعرة ، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة وعلى الصوفية . فافترق الناس فيه فريقين :

فريق يقتدى به ويقول على أقواله ويعمل برأيه ، ويرى أنه شيخ الاسلام وأجل حفاظ أهل الملة الاسلامية ، وفريق يبدعه ويضلله ويزرى عليه اثباته الصفات ، وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف ، ومنها ما زعموا أنه فرق فيه الاجماع ولم يكن له فيه سلف (١) وكانت له ولهم خطوب كثيرة ، وحسابه وحسابهم على الله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ... وله الى وقتنا هذا عده اتباع بالشام وقليل بمصر) (٢) .

ثم ضعفت الهمم عن الدراسات القوية لعلم الكلام .

« ولم يبق بين الناظرين فى كتب السابقين الا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب ، على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور » كما يقول الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد » (٣) .

---

(١) اثبت ابن تيمية الفوقية وأن الله فوق الى أن قال :

(ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عن أحد من سلف الأمة . ولا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف حرف واحد يخالف ذلك لا نصا ولا ظاهرا ، ولم يقل أحد منهم أن الله ليس فى السماء ، ولا أنه فى كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة اليه سواء ، ولا أنه لا داخل فى العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الاشارة الحسية اليه بالأصابع ونحوها) .

العقيدة الحموية الكبرى ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ .

أقوال قد أثبتها ابن تيمية هى الاشارة الحسية بالأصابع ، والاقرار بأنه فى السماء وأنه يستوى على العرش ، ثم ادعى التنزيه كما ادعى ذلك مقاتل بن سليمان من قبله .

(٢) « الخطط » ١٨٥/٤ .

(٣) ص ١٧ ط صبيح ١٩٦٥م .

اما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية .

* * *

وانا لنشهد تسابقا فى نشر كتب الأشعرى وكتب ابن تيمية (١) .

ويسمى انصار ابن تيمية انفسهم بالسلفية . ولكن الغلبة فى بلاد الاسلام لا تزال الى اليوم لمذهب الأشاعرة .

* * *

---

(١) روى ابن بطوطة ونقل عنه كثيرون ، ان ابن تيمية قال : ان الله ينزل الى السماء الدنيا « كنزولى هذا » (وكان على المنبر) .
(دائرة المعارف الاسلامية مادة تشبيه ، ٢٥٦/٥) .
« كان ابن تيمية يرى الألفاظ فى اليد والنزول والقدم والوجه والاستواء على ظهرها ، ولكن بمكان يليق بذاته الكريمة » . (ابو زهرة ، ابن تيمية ٢٧٦) ، وأحرى بالقبول ان نحملها على المجاز كتفسير اليد بمعنى القوة أو النعمة والاستواء بمعنى السلطان الكامل ، وتفسير النزول بفيوض النعم الالهية . الخ ، (ابو زهرة ، ابن تيمية ٢٧٧) .

عودة إلى منهج الصحابة

لقد فهم الصحابة والسلف الصالح آيات القرآن ومنها آيات الصفات فهما عمليا ، وهو الذى يتبادر الى الذهن لأول وهلة وايقنوا ان هذه الآيات تصف قدرة الله وجليل نعمائه فاستقر الايمان فى قلوبهم بالله ربا وخالقا .

واندفعوا الى الفتح والجهاد والعلم والعمل ، ثم اتسعت الفتوحات واستقرت الدول فى عصورها الذهبية ، فاتجه العلماء والخلفاء الى ترجمة الكتب الأجنبية ونقلها الى اللغة العربية وترجمت كتب الفلسفة والحكمة ، ودخلت تيارات متعددة فى علم الكلام وتفسير القرآن الكريم ، ويتنادى المخلصون من العلماء الآن بتجريد تفسير القرآن من آراء الفرق ومذاهب المتكلمين . وأن نعود الى بساطة الصدر الأول ، فى فهم الآيات على معناها الظاهرى ، الذى يتبادر الى الذهن لأول وهلة .

ومنذ اربعين عاما اجتمعت لجنة التفسير بالأزهر برئاسة مفتى مصر الأسبق ووضعت شروطا لتفسير القرآن منها :

الا تخضع اللجنة الا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها .

ان من اعجاز القرآن قدرته على مواجهة الحياة ، والراء نواحى الخير فيها ومواكبة الانجازات العلمية والنفسية وما يتصل بها .

وفى العصر الحديث نلمس صدق القرآن فى اشارته الى حقائق تتصل بعلوم الكون والحياة ووظائف الأعضاء والحيوان والنبات وطبقات الأرض وغيرها .

ورغم مضى اربعة عشر قرنا على نزول القرآن فان قوانينه باقية واصوله ثابتة وهدايته مستمرة وآياته صادقة .

قال تعالى : **«وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا»** .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد» .



الفصل السابع

نزول القرآن على سبعة أحرف

الفصل السابع

نزول القرآن على سبعة أحرف

١ ـ روى مسلم وابن جرير عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بنى غفار (١) ، فأتاه جبريل فقال : « ان الله يأمرك أن تقرىء امتك القرآن على حرف » ، فقال : **« اسال الله معافاته ومغفرته ، وان امتى لا تطيق ذلك »** ، ثم أتاه الثانية فقال : **« ان الله يامرك ان تقرىء امتك القرآن على حرفين »** ، قال : **« اسال الله معافاته ومغفرته ، وان امتى لا تطيق ذلك »** ، ثم جاءه الثالثة : **« ان الله يامرك ان تقرىء امتك القرآن على ثلاثة احرف »** ، قال : **« اسال الله معافاته ومغفرته ، وان امتى لا تطيق ذلك »** . ثم جاءه الرابعة فقال : **« ان الله يامرك ان تقرىء امتك القرآن على سبعة احرف ، فايما حرف قرءوا عليه فقد اصابوا »** .

٢ ـ وروى الامام احمد من حديث أبى بكرة ان جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : **« اقرا القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ الى سبعة احرف ، فقال : كلها كاف شاف ، كقولك : هلم وتعال ، ما لم تختم آية عذاب برحمة ، او آية رحمة بعذاب »** ، وقد فسر ابن عبد البر هذا الحديث بأنه تمثيل لنوع التغيير الذى يرد فى الأحرف السبعة ، ومعناه أن القراءات لا ترد بالمعانى المتضادة ، لا أن الناس أحرار فى وضع كلمة مكان أخرى ما لم يختموا آية عذاب برحمة ، او آية رحمة بعذاب .

---

(١) الأضاة : كقناة مستنقع الماء كالغدير والجمع أضاء كعصا .

٣ — وروى الترمذى عن أبى بن كعب انه قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : « **يا جبريل ، انى بعثت الى أمة أمية ، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتابا قط** » ، فقال له : « **يا محمد ، ان القرآن انزل على سبعة أحرف** » .

٤ — وروى البخارى ومسلم ومالك فى الموطأ وابو داود والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستمعت لقراءته ، فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم ، فلببته بردائه ، فقلت : من اقراك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : كذبت ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اقرانيها على غير ما قرات . فانطلقت به اقوده الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : انى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **ارسله ، اقرأ يا هشام** » . فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كذلك انزلت** » ثم قال : « **اقرأ يا عمر** » . فقرات القراءة التى اقرانى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **كذلك انزلت . ان القرآن انزل على سبعة أحرف ، فاقرأوا ما تيسر منه** ».

٥ — قال السيوطى : « وفى فضائل ابى عبيد من طريق عون ابن عبد الله — أن ابن مسعود أقرأ رجلا : « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم » فقال الرجل : طعام اليتيم . فردها عليه ، فلم يستقم بها لسانه . فقال : أتستطيع أن تقول : طعام الفاجر ؟ قال : نعم . قال : فافعل » (١) .

وحديث ابى بكرة المار — على ما فسره به ابن عبد البر — يمنعنا من قبول هذا الحديث المروى عن ابن مسعود .

هذه جملة من الآثار التى وردت فى نزول القرآن على سبعة أحرف .

وقد اختلف العلماء فى المراد بهذه الأحرف السبعة على اقوال كثيرة : أوصلها ابن حبان الى خمسة وثلاثين ، وقال السيوطى : انها تبلغ الأربعين .

---

(١) الاتقان : ص ٤٧ جـ ١ :

وقبل الخوض فى بيانها ينبغى أن ننبه على أمرين :

الأول – ان عدد السبعة قد يطلق ويراد به حقيقة هـذا العدد ، كقوله تعالى : « **لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم** » (١) ، وقوله تعالى : « **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم** » (٢) .

وقد يطلق ويراد منه الكثرة فى الآحاد ، كما يطلق السبعون للكثرة فى العشرات ، والسبعمائة للكثرة فى المئين ، ومن ذلك قوله تعالى : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة** » (٣) ، وقوله تعالى : « **ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** » (٤) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « **الحسنة بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف** » . قال العلماء : وقد جرت الأساليب السامية كلها على هـذا .

الثانى – ان معنى الحرف فى الأصل طرف الشىء وحده . ومنـه حرف الجبل لأعلاه المحدد ، ومنه الحرف من حروف الهجاء ، لأنهـا أطراف للكلمات .

وقد يطلق على الوجه من وجوه الشىء ، لأن كل وجه من وجوهه طرف له ، ومنه فى الوجوه المعنوية قوله تعالى : « **ومن الناس من يعبد الله على حرف** » ، أى على وجه من الوجوه التى ينبغى أن تكون عليهـا العبادة ، وهى وجوه اليسر والرخاء ، والشدة والبلاء ، فهو يعبد الله على الرخاء دون البلاء . وقد بينت الآية ذلك فى قوله تعالى : « **فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة** » (٥) .

وقد يطلق الحرف على اللغة او اللهجة الخاصة ، لأن كل لغة أو لهجة خاصة هى وجه من وجوه اللغات العامة ، وصورة من صورها ، أو ناحية من نواحيها ، أو لأن اللغة او اللهجة مؤلفة من حروف الهجاء من باب اطلاق اسم الجزء على الكل .

---

(١) الحجر – ٤٤ .
(٢) الكهف – ٢٢ .
(٣) البقرة – ٢٦١ .
(٤) التوبة – ٨٠ .
(٥) الحج – ١١ .

وكذلك يطلق الحرف على القراءة الخاصة من قراءات القرآن ، لانها وجه من أوجه الأداء ، له صفات وكيفيات خاصة .

اما آراء العلماء فى المراد بالأحرف السبعة ـ فسنذكر ونناقش منها ما يعد أقربها ، واليه يرجع أكثرها ، ومن ذلك :

اولا ـ ما ذهب اليه بعضهم : من ان المراد بها أنواع المعانى الواردة فى كتاب الله تعالى . وهى الأمر ، والنهى ، والوعد ، والوعيد ، والقصص ، والجدل ، والأمثال . فعدد السبعة على هذا مستعمل فى حقيقته ، والحرف هو كل معنى من هذه المعانى التى عدوها . ولعلهم سموا كل نوع منها حرفا لأنه ناحية من نواحي القول ، وغرض من اغراضه .

وقد استدلوا لما ذهبوا اليه :

١ ـ بما روى ابو سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : **« كان الكتاب الأول نزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة ابواب ، وعلى سبعة احرف : زجر وامر ، وحلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وامثال . فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بامثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به ، كل من عند ربنا »** .

٢ ـ بما روى ابى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **« امرت أن اقرا القرآن على سبعة احرف من سبعة ابواب الجنة »** . وكأنهم فهموا من هذا أن كل حرف باب من أبواب الجنة .

وهذا الرأى مردود من وجوه :

١ ـ ان ما روى الترمذى عن ابى بن كعب يدل على أن المراد بتعدد الحروف التوسعة والتيسير على الناس فى القراءة ، وسبيل هذا اختلاف طرق الأداء أو الألفاظ باختلاف اللهجات والقبائل ، لا تغير الأحكام ، لأن هذا هدم للتشريع ، وتفريق للجماعة ، لا تيسير للقراءة .

٢ ـ ان ما روى الامام احمد من حديث ابى بكرة فى سبعة الأحرف : من قوله : **« كلها كاف شاف ، كقوله هلم تعال »** ـ يدل على ان سبعة الأحرف تختلف فيها الألفاظ دون المعانى ، ولا يستقيم مع هذا تفسيرها بما ذهبوا اليه .

٣ ـ ان التفسير الذى ذهبوا اليه لا يناسب الاحاديث التى أوردناها فى الأحرف السبعة ، اذ لا يعقل أن يكون الخلاف بين عمر وهشام فى قراءة سورة الفرقان ـ خلافا فى الأمر والنهى ونحوهما ، فانه لو كان كذلك ما صحح النبى صلى الله عليه وسلم قراءة كل منهما ، لأن تصحيح قراءتين احداهما تأمر بشيء والثانية تنهى عنه ـ ابطال لقوله تعالى : « **افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » .

٤ ـ ما روى أن مجاهدا (١) كان يقرأ القرآن على خمسة احرف ، وأن سعيد بن جبير (٢) كان يقرؤه على حرفين ، وان يزيد بن الوليد كان يقرؤه على ثلاثة أحرف ، فانه لا يعقل ان واحـدا من هؤلاء كان يقـرأ الأوامر دون النواهى ، أو الوعد دون الوعيد مثلا .

٥ ـ أما ما استدلوا به من حديث ابن مسعود : « **نزل القرآن من سبعة ابواب ، وعلى سبعة احرف : زجر وامر ... الخ** » ـ فمطعون فيه بأن راويه عن ابن مسعود ـ وهو أبو سلمة بن عبد الرحمن ـ لم يلق ابن مسعود ، وان سلمنا صحته فما ذكر فيه من الزجر والأمر .. الخ ـ تفسير لأبواب الجنة ، لا للأحرف السبعة ، وذلك ان الكتب السابقة كانت تنزل بباب واحد من أبواب القرب والطاعات والموصلة الى الله ، فزبور داود مثلا كان تذكيرا وموعظة . وانجيل عيسى كان تمجيدا ومحامد ، وحضا على الصفح والاعراض ، وهكذا ، أما القرآن فقد نزل مشتملا على أبواب مختلفة : كل باب منها سبيل الى رضوان الله تعالى ومثوبته .

ومما يؤيد هذا التأويل ما ورد فى بعض طرق الحديث : « زاجرا ، وآمرا .. الخ » بالنصب على الحال . وعلى هذا يفهم حديث أبى بن كعب .

ثانيا ـ ما ذهب اليه بعض آخر : من أن المراد بالأحرف السبعة ـ القراءات السبع التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى القراءات السبع المشهورة .

وهو رأى ظاهر البطلان ، فقد نزل القرآن قبل أن يخلق القراء السبعة ، وأول من حصر القراءات فى سبع هو أبو بكر بن مجاهد (٢٤٥ ـ ٣٢٤هـ) . وقد نشأ هذا الحصر باختيار المؤلفين فى القراءات لأمثل الرواة .

---

(١) تابعى توفى سنة ١٠٣هـ .
(٢) تابعى قتله الحجاج فى فتنة ابن الأشعث سنة ٩٥هـ .

وأكثرهم شهرة وتعرضا لتعليم النساس ، فكان عـددهم سبعة من باب الاتفاق ، ولهذا ود كثير من العلماء لو أن أبا بكر زاد على السبعة أو نقص عنها حتى لا يقع الناس فى هذا اللبس .

وقد جمع عثمان الناس من قبل على حرف واحـد ـ كمـا قال ابن جرير ـ فكانت القراءات السبع راجعة الى هذا الحرف من الأحرف السبعة ، لا أنها هى . ولو صح هذا الرأى لكان ما خرج عن القراءات السبع غير قرآن وان ثبت عن الأئمة ووافق خط المصحف ، وهذا خطأ لم يقع فيه أحد من أرباب هذا الفن .

ثالثا ـ ما ذهب اليه ابن قتيبة والقاضى أبو الطيب وبعض العلماء : انها وجوه الاختلاف فى القراءة . قال ابن الجزرى : لازلت استشكل هذا الحديث ، وأفكر فيه ، وأمعن النظر ، من نيف وثلاثين سنة حتى فتح الله على بما يمكن أن يكون صوابا ان شاء الله ، وذلك أنى تتبعت القراءات : صحيحها وشاذها . وضعيفها ومنكرها ، فاذا هى يرجع اختلافها الى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها ... الخ ، وقد حصرها فيما يأتى :

١ ـ اختلاف الحركة فقط مع بقاء المعنى والصـورة ، مثـل : « هن أطهر لكم » ، و « يضيق صدرى » ، برفع أطهر ويضيق ، ونصبهما .

٢ ـ اختـلاف الحركة والمعنى مع بقـاء الصـورة ، مثل : « ربنا باعد بين أسفارنا » بصيغة الأمر ، و « ربنا باعد بين أسفارنا » بصيغة المـاضى .

٣ ـ اختلاف الحروف والمعنى مع بقاء الصورة ، مثل : « وانظر الى العظام كيف ننشزها » أى نرفعها ، و « ننشرها » ، اى نحييها .

٤ ـ اختلاف الصورة مع بقاء المعنى ، مثل : « كالعهن المنفوش » ، و « كالصوف المنفوش » .

٥ ـ اختلاف الصورة والمعنى ، مثل : « وطلح منضود » ، وهو شجر عظيم . والموز ، والطلع ، و « طلع منضود » وهو من النخل ما يخرج منه من الحمل .

٦ ـ اختلاف العبارة بالتقديم والتاخير ، مثل : « وجاءت سكرة الموت بالحق » ، « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

٧ — اختلاف العبارة بالزياده والنقصان ، مثل « نسع وتسعون نعجة » ، و « تسع وتسعون نعجة أنثى » ومثل : « وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين » . « وأما الغلام فكان كافرا وأبواه مؤمنين » ، ومثل : « فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم » ، و « من بعد اكراههن لهن ... » .

والذى نحا هذا النحو من العلماء لم يحمله عليه الا استمساكه بتفسير النص بحقيقة معناه . نوقع بهذا فيما يشبه الألغاز ، وما لا تتجه اليه الأذهان ، ولا يلائم حال الناس فى عصر التنزيل ولا فى غيره ، فقد رخص لهم فى القراءة على وجوه مختلفة فى وقت كان اكثرهم لا يعرف القراءة والكتابة ، فكيف تتوجه أذهانهم الى معرفة هذه الصور التى لم يهتد اليها ابن الجزرى الا بعد التفكير نيفا وثلاثين سنة ؟ ان منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم عند المسلمين أجل من أن يقصد بكلامه الى هذه الألغاز التى لا قيمة لها فى اصلاح دين ، ولا فى تهذيب خلق .

رابعا — ما قيل أن المراد بالأحرف السبعة — سبع لغات عربية ، وعدد السبعة على حقيقته ، وليس المراد أن كل كلمة فى القرآن تقرأ على سبعة أوجه ، بل اللغات السبعة متفرقة فيه ، وقد تقرأ بعض الكلمات على سبعة أوجـــه .

وقد اختلف هؤلاء فى اللغات السبعة التى نزل بها القرآن :

فقيل : هى سبع لغات من لغة مضر ، لما أثر عن عثمان رضى الله عنه من قوله : نزل القرآن بلغة مضر . وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر ، فجائز أن يكون منها لقريش ؛ ومنهـــا لكنانة ، ومنها لأسد ، ومنها لهذيل ، ومنهـــا لتيم ، ومنهـــا لضبة ، ومنهـــا لقيس .

وقيل : هى سبع لغات من لغات العرب عامة ، لا من مضر وحدها ، قالوا : وفى مضر شواذ لا تجوز قراءة القرآن بها ، مثل كشكشة قيس (أو أسد أو ربيعة) الذين يجعلون كاف المؤنث شينا ، فيقولون مثلا فى قوله تعالى : ((**قد جعل ربك تحتك سريا**)) — : ((**قد جعل ربش تحتش سريا**)) . ومثل تمتمة تميم الذين يجعلون السين تاء ، فيقولون فى الناس : النات ، وفى أكياس : أكيات . وهكذا ، ومثل عنعنتهم ، وهى قلب الهمزة عينا ، فيقولون فى أن : عن ، وفى أمان : عمان .

وقد روى عثمان أنه قال حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم فيه انتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهم .

ولا تنافي بين هذه الرواية والتي سبقتها عنه ، لاشتمال القرآن على لغات مختلفة من لغات العرب اجمعين .

وروى أن ابن عباس لم يتبين له معنى فطر — وهو معروف عند غير قريش — حتى اختصم اليه اعرابيان في بئر ، فقال أحدهما : انا فطرتها . وحينئذ فهم أن معنى الفطر في قوله تعالى : ((**فاطر السموات والأرض**)) الانشاء والابتداء . وكذلك قوله تعالى ((**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق**)) — قال ابن عباس : ما كنت أدري معناه حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك . أي احاكمك .

وقد وقع مثل هذا لعمر في قوله تعالى : ((**او ياخذهم على تخوف**)) اى على تنقص .

وقد اعترض هذا الراى من وجهين :

١ — ان لغات العرب أكثر من سبع ، فلم اقتصر على بعضها وكلهم في حاجة الى التيسير ؟ ولم كان الاقتصار على هذا البعض بعينه ؟

ويمكن أن يقال : انه اقتصر على ما يقع به التيسير للجميع ، فاختار أفصح اللغات وأسهلها منطقا ، واهمل الشواذ التي ذكرنا مثلها ، لعدم اتفاق الألسنة على استساغتها .

ولا دليل مع هذا لما ذهبوا اليه من تعيين اللغات التي عينوها ولعل في ذلك ما يصرفنا عن تفسير السبعة بالعدد الخاص الى تفسيره بالكثرة ، بيانا لليسر والسعة ، كما قال عياض ومن تبعه .

٢ — أن عمر خالف هشاما في سورة الفرقان وكلاهما قرشي . وهذا يدل على انه ليس المراد بالأحرف السبعة اللغات المختلفة .

ويمكن أن يقال : أن اتفاق عمر وهشام في القرشية لا يمنع واحدا منهما من القراءة بحرف من غير لغة قريش ما دام قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن حجر بعد ايراد هذا الراى : ((وحاصل ما ذهب اليه هؤلاء أن معنى قوله : انزل القرآن على سبعة احرف — انه انزل موسعا على

القارىء أن يقراه على سبعة أوجه ، اى يقرأ باى حرف اراد منها على البدل من صاحبه (١) ، كانه قال : اتل على هذا الشرط ، أو على هذه التوسعة ، وذلك لتسهيل قراءته ، اذ لو اخذوا بأن يقرءوه على حرف واحد لشق عليهم كنا تقدم . قال ابن قتيبة فى اول تفسير المشكل له : كان من تيسير الله أن أمر نبيه أن يقرأ كل قوم بلغتهم ، فالهذلى يقرأ : عتى حين ، يريد حتى حين ، والأسدى يقرأ تعلمون بكسر أوله ، والتميمى يهمز ، والقرشى لا يهمز . قال : ولو أراد كل فريق منهم أن يزول عن لغته وما جرى عليه لسانه طفلا وناشئا وكهلا لشق عليه غاية المشقة ، فيسر عليهم ذلك بمنه » ا هـ (٢) وفى هذا تعليل للتوسعة مقبول ، وأن لم يتعرض لبيان المراد من عدد السبعة .

خامسا ــ ما حكى ابن عبد البر اذ قال : انكر أكثر أهل العلم أن يكون معنى الأحرف اللغات ، لما تقدم من اختلاف هشام وعمر ولغتهما واحدة . قالوا : وانما المعنى سبعة أوجه من المعانى المتفقة ، بالألفاظ المختلفة ، نحو : أقبل ، وتعال ، وهلم وقد تكون هذه الأوجه من لغات مختلفة ، أو من لغة واحدة . وهو قريب من القول السابق .

---

(١) معنى « على البدل من صاحبه » ــ ان يقرأ القارىء العبارة بوجه واحد من الوجوه التى تصح فيها .. وانظر بعد هذا الى ما يفعله بعض القراء فى زمننا مما يسمونه « الجمع » . وذلك ان يقرأ القارىء الآية او بعضها باحدى الروايات ، ثم يعيد قراءتها برواية اخرى ، ثم يعيدها كذلك حتى يستنفد ما يعرف من القراءات فيها . وقد يتشبه الجاهل منهم بالعارف ، فيعيد قراءة الآية أو العبارة مرات بنفس القراءة التى لا يعرف سواها ، منحرفا بالحروف عن مخارجها ، ومعنيا بتلوين النغمات ، ليوهم السامعين أنه خبير بالقراءات ، وما هو الا لاعب بالآيات البينات . وقد يهون الخطب لو انهم وقفوا عند هذا الحد ، ولكن السخف بلغ بالجهلة منهم الى حد أن كرروا الكلمة الواحدة فى الآية ، ليعرضوا على السامعين ما ورد فيها من قراءات . فيقولون مثلا : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور تزوار تزوار تزوئر عن كهفهم ذات اليمين » وفى هذا من الاخلال بالنظم الكريم وصرف الناس عن تدبر معانيه . الى الاعجاب بصناعة قارئيه ــ ما يجب أن يتنزه عنه صادق الايمان الراغب فى هداية القرآن ومثوبة الرحمن .

(٢) راجع ص ٢٣ جـ ٩ فتح البارى .

ونستطيع بعد كل ما أوردنا أن **نقرر الحقائق الآتية :**

١ ـ ان سبب اباحة القراءة على احرف كثيرة هو التيسير ونفى الحرج عن العباد ، بدليل ما ورد فى حديث الترمذى عن أبى بن كعب . ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى جبريل فقال : انى بعثت الى امة امية : منهم العجوز ... الخ ، وليس معنى هذا أن لكل قارىء أن يبدل اية كلمة بمرادفها ، أو يعرب كلمة بما يرى من وجوه الاعراب الصحيحة فيها ، اذ لو كان الأمر كذلك لوقعت الفوضى فى التلاوة ، واختلف الناس ، بل لابد لصحة القراءة من سماعها من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو موافقته عليها . ويدل لهذا ما ورد فى الأحاديث السابقة ، ففى حديث مسلم عن ابى بن كعب : ان الله يأمرك ان تقرىء أمتك .. الخ ، وفى حديث عمر وهشام قال كل منهما : أقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا نرفض ما روى عن ابن مسعود فى طعام الأثيم وطعام الفاجر .

٢ ـ ان التوسع فى قراءة القرآن على حروف أو وجوه ـ لم تكن الا بعد الهجرة حينما كثر دخول القبائل المختلفة فى الاسلام ، لما ورد فى حديث ابن جرير عن أبى بن كعب : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عند أضاه بنى جعفر ... وهو موضع بالمدينة .

٣ ـ ان القرآن كان ينزل قبل الهجرة بلغة قريش ، ثم استمر نزوله بها بعد الهجرة ، ولهذا أنكر عمر على ابن مسعود قراءته : عتى حين ، وكتب اليه : ان القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل (١) . وروى عن عثمان أنه قال حين أمر بكتابة المصاحف : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فأكتبوه بلغة قريش ، فانه نزل بلغتهم .

٤ ـ ان كلمة القرآن فى قوله صلى الله عليه وسلم : « **انزل القرآن على سبعة احرف** » ـ تشمل ما نزل منه بعد الهجرة وما نزل قبلها ، اذ لا وجه لأن يكون التيسير على الناس فى القراءة مقصورا على بعض القرآن دون بعض .

٥ ـ واذن لا يكون معنى نزول القرآن على وجوه ـ ان جبريل كان يقرا كل آية ينزل بها على الرسول مرات بعدد هذه الوجوه ، بل معناه انه كان ينزل بلغة قريش ، قابلا لأن يقرأ بوجوه عربية اخرى .

---

(١) اخرجه ابن عبد البر من طريق أبى داود (فتح البارى ٩ ـ ٢٢) .

٦ — تبين عجز العلماء عن تفسير الحروف بما يطابق عدد السبعة تفسيرا مقبولا ، فوجب صرف العدد الى معنى الكثرة الذى شاع استعماله فيه فى لغة العرب ، وهو تفسير ملائم للمقام : ارتضاه عياض ومن تبعه ، ولا اعتراض عليه .

٧ — ويميل بنا هذا الى ترجيح ما حكاه ابن عبد البر عن اكثر اهل العلم : من ان الحروف وجوه من الأداء تتفق فيها المعانى ، وتختلف الألفاظ ، غير أنا نرى أن اختلاف الألفاظ لا يصل الى حد أن توضع كلمة مكان أخرى يتغير بها المعنى ، أو لا يظهر فيها وجه التيسير الذى شرعت القراءات من أجله .

واذا رجعنا الى ما ورد فى القرآن من القراءات المختلفة — وجدناه — بالاضافة الى سبب التوسعة — نوعين :

١ — ما يظهر فيه وجه التوسعة ، ويتحقق به التيسير ، ومنه : عتى حين ، وحتى حين ، فان من اعتاد أن ينطق عتى بالعين يصعب عليه أن يكلف نطقها بالحاء ، ومثل : « ويوم نحشرهم » ، بضم الشين وكسرها ، و « مكانا ضيقا » بتخفيف الياء وتشديدها ، فان من اعتاد النطق بأحد الوجهين فيهما يثقل عليه أن يلزم بالوجه الآخر ، وكذلك من اعتاد كسر حرف المضارعة فى مثل تعلمون — يثقل عليه أن يلزم بفتحه ، وهكذا .

٢ — ما لا يظهر فيه وجه للتيسير ، ومنه قوله تعالى : « **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده** » او عباده او عبيده ، وقوله تعالى : « **لولا أنزل اليه ملك فيكون** » او فيكون ، وقوله تعالى : « **أو تكون له جنة يأكل منها** » أو نأكل منها .

ومن هذا النوع ما لا تتناقض فيه المعانى باختلاف القراءة ، ومنه ما تتناقض . فمن الأول قوله تعالى بعد ذكر الكتاب والرسول فى سورة يونس : « **قال الذين كفروا ان هذا لساحر مبين** » ، قراه ابن كثير والكوفيون « لساحر » على أن الاشارة للرسول ، وقراه الباقون « لسحر » علىأنها للقرآن ، والمعنيان متلازمان . ومن الثانى قوله تعالى فى سورة الأنبياء : « **قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض** » قرىء « قال » بصيغة الماضى ، وقرىء « قل » بصيغة الأمر . والمسند اليه على القراءتين هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والآية على القراءة الأولى اخبار عن قول قاله ، فتكون متأخرة فى النزول عن القول ، وعلى القراءة الثانية

امر له بأن يقول ، فتكون متقدمة عليه ، والواقع هو احد الفرضين دون الآخر لا محالة ، فكيف نوفق بين القراءتين ؟

ولعل مثل هذا هو الذى حمل بعض المستشرقين على رد الخلاف فى القراءة فى كثير من المواضع الى عدم النقط والشكل فى الكتابة العربية فى عهدها الأول ، كقوله تعالى : « **ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا** » أو « **فتثبتوا** » . وقوله تعالى : « **ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** » و : « **تستكثرون** » ، وقوله تعالى : « **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** » أو : « **نشرا** » ، وقوله تعالى : « **وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه** » أو : « **وعدها اباه** » . ونحو ذلك .

ولكن علماءنا قد عنوا بوضع مقياس لقبول القراءة وصحة الاعتداد بها ، والمشهور عندهم أن شروط ذلك ثلاثة : استقامة الاعراب والمعنى ، وصحة السند ، والموافقة لرسم المصحف المأثور . والأصوليون والفقهاء لا يكتفون بصحة السند ، بل يشترط الشافعية التواتر ، ويشترط الحنفية الشهرة ، وقد نسب الصفاقسى شرط التواتر الى المحدثين والقراء كذلك (١) .

فاذا كانت القراءة بعد هذا مما يظهر فيه وجه التيسير فلا كلام فى قبولها ، واذا كانت من النوع الثانى فقد تكون اباحتها لمجاراة العرب فيما ألفوا من توجيه الهمة الى العناية بالمعنى ، ووضع العناية باللفظ فى المرتبة الثانية (٢) .

« **تنبيه** » مما أدخله الناس فى باب القراءات وليس منه ــ القراءات التفسيرية ، وتشمل كل قراءة مفسرة فيها زيادة عن المصحف ، ومن ذلك ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « **يايها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن فى قبل عدتهن** » ، وما روى عن ابن مسعود أنه قرأ : « **فصيام ثلاثة ايام متتابعات** » ، وأنه قرأ : « **للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة اشهر فان فاءوا فيهن فان الله غفور رحيم** » ، وعن سعد بن أبى وقاص أنه قرأ : « **وان كان رجل يورث كلالة او امراة وله اخ او اخت من امه** » ، وعن أبى : « **وله اخ او اخت من الأم** » ونحو ذلك .

---

(١) أصول التشريع الاسلامى للأستاذ على حسب الله ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) الموافقات للشاطبى ٢ ــ ٤٦ ، ٥٣ .

الفصل الثامن

ترجمة القرآن

الفصل الثامن

ترجمة القرآن

الترجمة : هى : التعبير عن معنى كلام فى لغة بكلام آخر من لغة اخرى ، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده .

وتنقسم الترجمة الى قسمين :

حرفية وتفسيرية .

فالترجمة الحرفية هى التى تراعى فيها محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه ، فهى تشبه وضع المرادف مكان مرادفه ، وبعض الناس يسمى هذه الترجمة ترجمة لفظية ، وبعضهم يسميها مساوية .

والترجمة التفسيرية هي التى لا تراعى فيها تلك المحاكاة ، أى محاكاة الأصل فى نظمه وترتيبه ، بل المهم فيها حسن تصوير المعانى والأغراض كاملة ، ولهذا تسمى أيضا بالترجمة المعنوية ، وسميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعانى والأغراض فيها ، جعلها تشبه التفسير وما هى بتفسير .

ولنضرب مثالا للترجمة بنوعيها ، على فرض امكانها ، فى آية من الكتاب العزيز .

قال الله تعالى : ((**ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط**)) . الاسراء ٢٩ .

فالترجمة الحرفية هى (لا تربط يدك فى عنقك ولا تجعلها ممدودة غاية المد) .

اما الترجمة التفسيرية ، فانك تعمد الى التعمق فى فهم الآية ، بالنهى عن التقتير والتبذير ، فى ابشع صورة منفرة ، ولا عليك من عدم رعاية الاصل فى نظمه وترتيبه اللفظى ، وقد قال بعض المختصين : ان الترجمة الحرفية مستحيلة ، لانها تحتاج الى مفردات وضمائر وروابط متشابهة بين اللغتين المنقول منها والمنقول اليها .

اما الترجمة التفسيرية فميسورة فيما لا يعجز عنه البشر ، والمعانى المرادة من الأصل واضحة فيها غالبا (1) .



(1) انظر علوم القرآن للزرقانى ، المبحث الثالث عشر ، فى ترجمة القرآن وحكمها تفصيلا : ٢/١٠٧ — ١٢٠ .

مقاصد القرآن

يشتمل الكتاب العزيز على ثلاث مقاصد رئيسية هى :

١ ــ هداية البشر ودعوتهم الى الايمان بالله واخلاص العبادة له ، والدخول فى دين الاسلام ، وطاعة الله تعالى واجتناب معاصيه .

٢ ــ القرآن آية تدل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو معجز بل مشتمل على فنون الاعجاز ، ومنها الاخبار بالغيب ، وسمو لفظه ومعانيه ، واشارته الى علوم حديثة لم يكن يعلمها البشر وقت نزول القرآن .

٣ ــ القرآن متعبد بتلاوته وقراءته ، وهذه التلاوة وسيلة لجمع كلمة المسلمين على لغة واحدة ، وتيسير التفاهم والترابط قال تعالى : **« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »** .

هل يمكن ترجمة القرآن ؟

اذا اردنا ان تشتمل الترجمة على اهداف القرآن ومقاصده فلن نستطيع ذلك .

لأن القرآن متعبد بتلاوته باللغة العربية ، ولا يمسه الا المطهرون ، وهو معجز تحدى الله العرب ان ياتوا بمثله ، وهو مشتمل على الهداية ، **« فترجمة القرآن »** مع اشتمال الترجمة على مقاصده الثلاثة غير ممكنة .

وقد تصدى لذلك العلماء الأقدمون ، فقرر ابن قتيبة وغيره من العلماء أن كل كلام بليغ لا يمكن ترجمته ببلاغته من لغة الى اخرى ، ذلك ان الكلام البليغ له معنيان مجتمعان : احدهما أصلى ، وهو المقصد الذى ابنى عليه الكلام وما سبق له من قصة أو حكم او عظة ، والثانى بلاغى :

وهو اشارات الكلام ومجازاته ، وما يثيره من صور بيانية ، وما يحيط به من أطياف كالتي تحيط بالصور الحسية ، وبهذا كله تعلو الرتب البلاغية ويسمو البيـان .

وبتطبيق هذه القاعدة على القرآن الكريم ، وهو فى الدرجة العليـا من البلاغة ، نجد أن ترجمته مستحيلة ، اذا أردنا أن تكون الترجمة قرآنا فيه كل خواصه البلاغية .

ولذلك قال العلماء الأقدمون بالاجماع ، انه لا يمكن ترجمة القرآن بمعانيه الأصلية ، والمعانى البيانية اللاصقة لها ، فما فيه من أوامر ونواه واخبار وقصص يمكن ترجمته ، فيترجم أصـل النهى والأمر ، ووقائع القصة ، ولكن العبارات التى سيق بها القول ، وما فيه من صور بيانية ، واشارات تعلو بالكلام الى أسمى المنازل ، حيث لا يكون له شبه ولا مثيل ، فان ذلك لا يمكن ترجمته .

ولقد قال الشاطبى فى هذا المعنى بعد أن قسم معانى الكلام البليغ الى معان أصلية ، ومعان خادمة هى ما تشير اليه المجازات والتشبيهات والاشارات البيانية ، ومطويات الكلام ومراميه البعيدة ، قال بعد هذا التقسيم : (اذا ثبت هذا لا يمكن من اعتبر هذا الوجه أن يترجم كلاما من الكلام العربى بكلام الأعاجم ، فضلا عن أن يترجم القرآن ، وينقله الى لسان غير عربى ، الا مع فرض استواء اللسانين فى اعتباره عينا ، فاذا ثبت ذلك فى اللسان المنقول اليه من لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما الى الآخر ، واثبات مثل ذلك بوجه بين عسير جدا) « ونزيد على الشاطبى أنه اذا توافق اللسانان فانه مع بعد ذلك ، لا يوجد فى اللسان الآخر من تكون عبارته كعبارة القرآن المعجز للبشر اجمعين ، الذى أن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١) .

وقد نفى ابن قتيبة امكان ترجمة القرآن على الوجه الثانى (أى الاشارة الى مطويات الكلام ومراميه البعيدة) أما الوجه الأول (أى الاشارة الى المعانى الأصلية للكلام) فيمكن ترجمة هذه المعانى ، « ومن جهة صح تفسير القرآن وبيان معناه للعامة ، ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه ، وكان ذلك جائزا باتفاق اهل الاسلام فصار هذا الاتفاق حجة على صحة الترجمة بالمعنى الأصلى (٢) .

---

(١) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ، دار الفكر العربى ص ٥٨٨ .

(٢) المعارف لابن قتيبة .

وقد نقل الشيخ محمد ابو زهرة هذا الكلام وعلق عليه بقوله :

« وبهذا يتبين ان ترجمة القرآن غير ممكنة ، ولا تسوغ ترجمة القرآن ، واعتبار هذه الترجمة قرآنا ، فان ذلك يؤدى الى أن لا يحفظ القرآن من التحريف والتبديل بل يعتريه ما اعترى التوراة والانجيل من تحريف وتبديل ، فالأناجيل ضاع أصلها العبرى ، ولم يبق الا ترجمتها اليونانية ، او بالاحرى ترجمة بعضها ، والسبب فى ذلك هو ترجمتها من العبرية ، وهكذا يكون القرآن الكريم لو سوغنا ترجمته ، ولكن الطريق مسدود ابتداء ، لان الترجمة غير ممكنة ، فكان القرآن محفوظا (**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**) (1) .

وننقل بهذه المناسبة كلمة للزركشى فى كتابه البحر المحيط اذ يقول :

« (مسألة) : لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية وغيرها ، بل يجب قراءته على هيئته التى بها الاعجاز ، لتقصير الترجمة عنه ، ولتقصير غيره من الالسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسن ، قال الله تعالى : « **بلسان عربى مبين** » . هذا لو لم يكن التحدى بنظمه وأسلوبه ، واذا لم تجز قراءته بالتفسير العربى المتحدى بنظمه ، فأحرى الا تجوز الترجمة بلسان غيره ، ومن هنا قال القفال فى فتاويه : عندى انه لا يقدر احد ان يأتى بالقرآن بالفارسية ، قيل له : فاذن لا يقدر أحد أن يفسر القرآن ، قال ليس كذلك ، لأن هناك يجوز أن يأتى ببعض مراد الله ويعجز عن البعض ، اما اذا أراد أن يقرأه بالفارسية ، فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله » .



---

(1) محمد أبو زهرة (القرآن) : ٥٨٨ .

دواعى الترجمة ..

من الباحثين من توقف فى جواز ترجمة القرآن ، ثم تذرعوا بانه لا فائدة ترجى منها ، واثاروا شبهات حولها ، اما من اجاز ترجمة معاني القرآن الكريم أو ترجمة تفسير القرآن الكريم ، فانه يقدم الأسباب الآتية .

١ ــ رفع النقاب عن جمال القرآن ومحاسنه لمن لم يستطع أن يراها بمنظار اللغة العربية من المسلمين الاعاجم وتيسير فهمه عليهم بهذا النوع من الترجمة .

٢ ــ دفع الشبهات التى لفقها اعداء الاسلام ، والصقوها بالقرآن وتفسيره كذبا وافتراء ، ثم ضللوا بها هؤلاء المسلمين الذين لا يحذقون اللسان العربى فى شكل ترجمات مزعومة للقرآن ، او مؤلفات علمية وتاريخية للطلاب .

٣ ــ تنوير غير المسلمين من الأجانب فى حقائق الاسلام وتعاليمه .

٤ ــ ازالة الحواجز والعقبات التى أقامها الخبثاء الماكرون ، للحيلولة بين الاسلام وعشاق الحق من الأمم الأجنبية .

يقول برناردشو : (لقد طبع رجال الكنيسة فى القرون الوسطى دين الاسلام بطابع أسود حالك ، اما جهلا واما تعصبا ، انهم كانوا فى الحقيقة مسوقين بعامل بغض محمد ودينه ، فعندهم أن محمدا كان عدوا للمسيح ، ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب ، وفى رأيى انه بعيد جدا من أن يكون عدوا للمسيح ، انما ينبغى أن يدعى منقذ البشرية) (١) .

٥ ــ براءة ذمتنا من واجب تبليغ القرآن بلفظه ومعناه .

* * *

---

(١) مجلة ذى مسلم رجو بلكنو الهند فى جزء مارس سنة ١٩٣٣ ، نقلا عن مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى : ١٣٩/٢ .

الحل العملى ..

لقد منع الأزهر والعلماء ترجمة القرآن ، بمعنى نقله الى لغة أجنبية مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده .

فما هو الحل العملى لابلاغ دعوة القرآن الى الأجانب ؟

السبيل الى ذلك هو الاتجاه الى أحد امرين .

الأول : بيان المعانى الأصلية التى اشتمل عليها القرآن ، مبينة بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يعرفون حقائق الاسلام ويستضيئون بنور القرآن .

الاتجاه الثانى : أن يفسر القرآن تفسيرا موجزا مختصرا موضحا لمعانى الآيات ، وأن يتولى كتابة هذا التفسير جماعة علمية معروفة بأنها من اهل الذكر ، ويذكر التفسير منسوبا اليهم ، ومسمى بأسمائهم مضافا اليها ، ويترجم ذلك التفسير على أنه ترجمة تفسير فلان وفلان ، وأن نحتاط عند النشر ذلك الاحتياط ، لكيلا يفهم أحد أن هذه الترجمة هى القرآن ، أو هى معانى القرآن ، بل يشار الى أنها معانى القرآن على ما ذكره وفهمه أولئك المفسرون (١) .

وانه لكمال الاحتياط يجب أن يكون النشر بحيث لا يفهم انه ترجمة لأى القرآن مباشرة بل يكون الطبع على النحو الآتى :

١ ــ يطبع المصحف فى وسط الصفحة باللغة العربية ، وترقم آياته بأرقام افرنجية ، ويكتب حوله تفسير كل آية مرقما برقمها الذى رقمت به الآية فيكون القرآن مكتوبا بالعربية ، والتفسير بالعربية .

---

(١) محمد أبو زهرة القرآن : ٥٩٠ وورد ذلك فى علوم القرآن للزرقانى : ٢/١٧٠ . وفى التفسير والمفسرون : ١/٢٨ ــ ٣٠ .

وان شئت نموذجا عمليا فانظر فى (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم) الذى طبعه المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة . وكتب فى مقدمته ما يفيد انه تفسير مختصر محرر كتب بالعربية تمهيدا لترجمته الى اللغات الأجنبية .

٢ ـ يكتب تفسير باللغة التى ترجم اليها التفسير مرقما بالأرقام التى رقمت بها آيات المصحف .

وهذا العمل يحقق المقاصد الآتية :

اولا : وضع تفسير موجز باللغة العربية يسهل الرجوع اليه .

ثانيا : وجود نص القرآن بالعربية وتفسيره بالعربية أمام المسلمين الأجانب لتيسير معرفتهم بها ، ثم وجود تفسير بلغتهم معتمد من لجنة علمية . وقد كتب الايرانيون تفسيرا للقرآن طبع فى هامش المصحف الشريف ، وكذلك فعل الأفغانيون والباكستانيون .

ثالثا : تصحيح ما أسموه تراجم للقرآن فى اللغات الأوربية ، وبيان وجه الخطل فيها .

جهود سابقة فى هذا الميدان

منذ اكثر من ربع قرن من الزمان اتجه الأزهر الى وضع تفسير عربى دقيق للقرآن تمهيدا لترجمته ترجمة دقيقة بواسطة لجنة فنية مختارة ، واجتمعت لجنة التفسير بضع مرات برئاسة مفتى مصر فى ذلك الوقت ووضعت شروطا للتفسير هى :

١ ـ ان يكون التفسير خاليا ما امكن من المصطلحات والمباحث العلمية ، الا ما استدعاه فهم الآية .

٢ ـ الا يتعرض فيه للنظريات العلميه .

٣ ـ اذا مست الحاجة الى التوسع فى تحقيق بعض المسائل وضعته اللجنة فى حاشية التفسير .

٤ ـ الا تخضع اللجنة الا لما تدل عليه الآية الكريمة ، فلا تتقيد بمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا مذهب معين من المذاهب الكلامية وغيرها ، ولا تتعسف فى تأويل آيات المعجزات وامور الآخرة ونحوها .

٥ ـ أن يفسر القرآن بقراءة حفص ، ولا يتعرض لتفسير قراءات اخرى الا عند الحاجة اليها .

٦ ـ ان يجتنب التكلف فى ربط الآيات والسور بعضها ببعض .

٧ ـ ان يذكر من اسباب النزول ما صح بعد البحث ، وأعان على فهم الآية .

٨ ـ عند التفسير تذكر الآية كاملة ، او الآيات اذا كانت كلها مرتبطة بموضوع واحد ، ثم تحرر معانى الكلمات فى دقة ، ثم تفسر معانى الآيات او الآيات مسلسلة فى عبارة واضحة قوية ، ويوضع سبب النزول والربط ، وما يؤخذ من الآيات فى الوضع المناسب .

٩ ـ الا يصار الى النسخ الا عند تعذر الجمع بين الآيات .

١٠ـ يوضع فى أوائل كل سورة ، ما تصل اليه اللجنة من بحثها فى السور ، أمكية هى ام مدنية ؟ وماذا فى السور المكية من آيات مدنية ، والعكس .

١١ـ توضع للتفسير مقدمة فى التعريف بالقرآن وبيان مسلكه ، فى كل ما يحتويه من فنونه ، كالدعوة الى الله ، وكالتشريع ، والقصص والجدل ، ونحو ذلك ، كما يذكر فيها منهج اللجنة فى تفسيرها .

وقد ارسلت مشيخة الأزهر رجال الى العالم الاسلامى بهذه الفكرة ، وهى كتابة تفسير محرر لمعانى القرآن تمهيدا لترجمة هذا التفسير الى اللغات الأجنبية ، ولكن لم تظفر هذه الفكرة بالظهور الى حيز الوجود .

المنتخب فى تفسير القرآن

منذ عشرين عاما مضت قام المجلس الأعلى للشئون الاسلامية التابع لوزاره الأوقاف بمصر بطبع تفسير محرر مختصر مناسب لقراء اللغة العربية ، ومناسب لأن يترجم الى اللغات الأجنبية ، وطبع هذا التفسير باللغة العربية اكثر من مرة وللآن لم يترجم الى اللغات الأجنبية .

وجاء فى مقدمة هذا التفسير بيان للباعث عليه ملخصه ما يأتى :

(أ) تبليغ هدى القرآن للناس أمر لا مناص منه ، وأن الترجمة منال لا يدرك ولا يرام ، لأن القرآن أبلغ كلام فى الوجود ، وترجمة بلاغته فوق طاقة البشر .

(ب) لذلك كان لابد من الاتجاه الى كتابة تفسير باللغة العربية ، ثم نقله الى اللغات الأوربية ، والى لغات المسلمين على اختلافها ، ليعرفوا معانى القرآن الذى يحفظه الكثيرون منهم ، ولا يدركون معناه .

ولقد حمل العلماء القائمون على هذا العمل ، العبء الذى ترددت الهيئات والجماعات الاسلامية فى حمله أمدا طويلا حتى اتهمنا بالتقصير فى حق ديننا ، وتبليغ رسالة الله .

وقد ألف من بين لجان ذلك المجلس ، لجنة التفسير للقرآن لنشره بين العرب وترجمته الى لغات غيرهم ، ووضعت اللجنة لنفسها هذا المنهاج فى التفسير .

١ ــ لا يزيد حجم التفسير على ثلاثة أمثال حجم المصحف ، ويحسن أن يكون ضعفيه .

٢ ــ يكتب المصحف بأرقام الآيات فى الصلب ، ثم يكتب تفسير كل آية بجوار رقمها .

٣ ـ تكتب مقدمة موجزة لكل سورة تشير الى ما اشتملت عليه .

٤ ـ لا يتعرض لأسباب النزول الا اذا كان معنى الآية لا يدرك تماما الا بذكر السبب .

٥ ـ يذكر معنى الآية من غير تعرض لتحليل الالفاظ لغويا .

٦ ـ لا يذكر من الأحكام الفقهية الا ما يكون فى نص الآية ، وما زاد على ذلك يذكر الضرورى منه فى الهامش ، أو فى الأصل بحسب ما يقتضيه المقـــام .

٧ ـ يختار من التفسير ما يدفع التعارض بين ظواهر الآيات .

٨ ـ بالنسبة للمتشابه يتبع ما يأتى :

(أ) ما يقبل التفسير يفسر ويؤول .

(ب) الحروف التى فى أول الســـور يكتفى بذكر حكمتهـا ، وهى التنبيه الى الاعجاز ، والتنبيه الى الاستماع .

٩ ـ الآيات التى يبدو أن فى معانيها تكرارا لآيات اخرى ، تفسر كما هى فى كل موضع ، مع بيان حكمة التكرار اذا اقتضى المقام ذلك .

١٠ـ قصص القرآن يفسر كمـا جاء فى القرآن ، مع ذكر العبرة بايجاز ، وذكر ما يحتاج اليه من تفصيل تاريخى ، وكل ذلك بالهامش .

١١ـ تفسر الآيات التى تتضمن حقائق علمية ، أو تشير اليهـا ، بما تدل عليه عباراتها واشاراتها ، وتذكر الحقائق التى تشير اليها فى الهامش .

١٢ـ يكتب المصحف بالرسم العثمانى ، وعند ترجمة التفسير ترقم للآيات فى التفسير بالأرقام غير العربية .

* * *

نموذج من المنتخب فى تفسير القرآن

من : المنتخب فى تفسير القرآن الكريم
(الآيات ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ من سورة آل عمران)

قال تعالى :

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين (٩٦) فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين (٩٧) قل يا اهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون (٩٨) ».

التفسير :

٩٦ ـ وان من اتباع ملة ابراهيم ، الاتجاه فى الصلاة الى البيت الذى بناه والحج اليه ، وقد بين الله تعالى ذلك فذكر : أن أول بيت فى القدم والشرف جعله الله متعبدا للناس لهو الذى فى مكـة ، وهو كثير الخيرات والثمرات ، واودع الله سبحانه البركة فيه ، وهو مكان هداية الناس بالحج والاتجاه فى الصلاة اليه .

٩٧ ـ وفيه دلائل واضحات على حرمته ومزيد فضله ، منها مكان ابراهيم للصلاة فيه ، ومن دخله يكون آمنا لا يتعرض له بسوء ، وحج هذا البيت واجب على المستطيع من الناس ، ومن ابى وتمرد على أمر الله وجحد دينه ، فالخسران عائد عليه ، وأن الله غنى عن الناس كلهم .

٩٨ ـ امر الله سبحانه وتعـالى رسـوله بتوبيخ اهل الـكتاب على استمرارهم على الكفر والضلال والتضليل فقال : قل لهم : يا اهل الكتاب لا وجه لكفركم ، فلأى سبب تكفرون بدلائل الله ، الدالة على نبوة محمد وصدقه ، والله مطلع على اعمالكم ومجازيكم عليها .

* * *

ملاحظات

١ ـ تلاحظ ان هذا التفسير موجز مفيد ، يعبر عن المعنى من اقصر طريق ، ويفسر الآية بالمعانى المعبرة عنها بدون تطويل ممل ولا تعرض لتفصيلات هامشية .

٢ ـ انه يكتب الآيات القرآنية بارقامها فى صدر الصفحة ، ثم يعيد كتابة رقم الآية رقم ٩٧ مثلا .

٣ ـ هذا التفسير يمكن ان يترجم الى اللغات الاخرى ، وبذلك تكمل ما بدا فيه الآخرون ، ونبدأ من حيث انتهوا ، ونثبت التكليف بالدعوة.

٤ ـ ترجمة التفسير تخرجنا من كل حرج وخلاف حول ترجمة القرآن .

٥ ـ ارشح هذا التفسير لمن يريد ان يقوم بمهمة ترجمته ، وبذلك تكمل مابدأ فيه الآخرون ، ونبدأ من حيث انتهوا ، ونثبت ان المسلمين امتهم واحدة ، دينهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وكتابهم واحد ، واهدافهم مشتركة ، وآمالهم وآلامهم مشتركة .

٦ ـ ان الغرب والشرق يتطلع الى الاسلام ودراسته ومعرفته ومن واجبنا ان نسهم فى تعريف الآخرين بديننا وان نترجم لهم تفسير القرآن ليهتدى المؤمنون ، وليعلم الباحثون ، ولتعرف الدنيا أفكار هذا الدين وهدايته وآدابه ، وما فيه من معان سامية وحكم عالية ، وروح فاضلة ، ادت مهمتها فى جمع الناس على الحق والخير ، ونشر الفضيلة والعدل فى الماضى ، ويمكن ان تقوم بذلك الدور فى الحاضر .

٧ ـ فى الحديث الشريف « **بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ** » ومن وجوه معانى الحديث : انتشر الاسلام بسرعة غريبة ، وسيعود الى النصر بقوة مفاجئة فى آخر الزمان .

ويمكن أن نركز على النقاط الآتية :

١ ــ الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة .

٢ ــ حظر علماؤنا كتابة القرآن بحروف غير عربية ، وعلى هذا عند ترجمة معانى القرآن الى اية لغة يجب أن تكتب الآيات بالحروف العربية كيلا يقع اخلال وتحريف فى لفظه ، فيتبعهما تغيير وفساد فى معناه .

٣ ــ سئلت لجنة الفتوى فى الأزهر عن كتابة القرآن بالحروف اللاتينية فأفتت بعدم جواز ذلك (١) .

٤ ــ يمكن أن نترجم المعانى الأصلية التى اشتمل عليها القرآن مبينة بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم .

٥ ــ يمكن أن نفسر القرآن تفسيرا موجزا ثم نترجم هذا التفسير (٢) .

٦ ــ تفسير القرآن بلغة أجنبية ، مع استيفاء شروط التفسير والترجمة ، اختلف العلماء فيه بين مانع ومجيز والأدلة متضافرة على جوازه (٣) كما ذكر ذلك . الشيخ عبد العظيم الزرقانى فى مناهل العرفان .

---

(١) انظر نص الفتوى فى المجلد السابع من مجلة الأزهر صفحة ٤٥ وقد نقلها الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه مناهل العرفان فى علوم القرآن ٢/١٣٤ ونص الفتوى ما يأتى :

(لا شك أن الحروف اللاتينية خالية من عدة حروف توافق العربية ، فلا تؤدى جميع ما تؤديه الحروف العربية ، فلو كتب القرآن الكريم بها على طريقة النظم العربى ــ كما يفهم من الاستفتاء ــ لوقع الاخلال والتحريف فى لفظه ، ويتبعهما تغير المعنى وفساده ، وقد قضت نصوص الشريعة بأن يصان القرآن الكريم من كل ما يعرضه للتبديل والتحريف ، وأجمع علماء الاسلام سلفا وخلفا على أن كل تصرف فى القرآن ، يؤدى الى تحريف فى لفظه أو تغيير فى معناه ممنوع منعا باتا ، ومحرم تحريما قاطعا ، وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم الى يومنا هذا كتابة القرآن بالحروف العربية) .

(٢) انظر القرآن محمد ابو زهرة : ٥٩٠ .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى : ٢/١٧٢ .

الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية

١ ـ التفسير يكون بلغة الأصل بخلاف الترجمة التفسيرية فانها تكون بلغة اخرى .

٢ ـ يمكن لقارىء التفسير ومتفهمه ان يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته ، اما قارىء الترجمة فلا يتسنى له ذلك بل كل ما يفهمه ويعتقده ان هذه الترجمة التى يقرؤها ويتفهم معناها تفسير صحيح للقرآن .



شروط الترجمة التفسيرية

أولا ـ أن تكون الترجمة على شريطة التفسير ، لا يعول عليها الا اذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة فى الشريعة الاسلامية ، فلابد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير عربى مستمد من ذلك ، أما اذا استقل برايه فى استحضار معنى القرآن ، أو اعتمد على تفسير ليس مستمدا من تلك الأصول ، فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها ، كما لا يعتد بالتفسير اذا لم يكن مستمدا من تلك المناهل معتمدا على هذه الأصول .

ثانيا ـ ان يكون المترجم بعيدا عن الميل الى عقيدة زائفة ، تخالف ما جاء به القرآن . وهذا شرط فى المفسر ايضا . فانه لو مال واحد منهما الى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره ، فاذا بالمفسر وقد فسر طبقا لهواه ، واذا بالمترجم وقد ترجم وفقا لميوله ، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهداه .

ثالثا ـ ان يكون المترجم عالما باللغتين : المترجم منها والمترجم اليها ، خبيرا بأسرارهما ، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما .

رابعا ـ ان يكتب القرآن أولا ، ثم يؤتى بعده بتفسيره . ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن .

هذه هى الشروط التى يجب مراعاتها لمن يريد ان يفسر القرآن بغير لغته ، تفسيرا يسلم من كل نقد يوجه ، وعيب يلتمس (١) .

---

(١) التفسير والمفسرون : ١/٣٠ . بتصرف واختصار ، وقد اشار الى المراجع الآتية : المدخل المنير : ٤١ ـ النهاية .
ـ مجلة نور الاسلام (الأزهر) السنة الثالثة ٥٧ ـ ٦٥ .
ـ منهج الفرقان : ٢/٧١ ـ ٩٠ .

نصوص منقولــــة ..

صدر حديثا كتاب للأستاذ الدكتور احمد ابراهيم مهنا عنوانه :

(دراسة حول ترجمة القرآن الكريم) . مطبعة دار الشعب بالقاهرة .

وقد استعرض فيه أقوال العلماء فى ترجمة القرآن الكريم وذكر ان الموضوع أثير ثلاث مرات فى مصر .

الأولى : عندما منعت مشيخة الأزهر ادخـال نسخة من ترجمـة القرآن الكريم باللغة الانكليزية الى مصر ، بل طلبت من مصلحة الجمارك احراقهـا .

الثانية : عندما قررت حكومة تركيا برئاسة مصطفى كمال اتاتورك ترجمة القرآن الكريم الى اللغة التركية .

والثالثة : عندما قررت مشيخة الأزهر الشروع فى عمل ترجمـة لمعانى القرآن الكريم بالاشتراك مع وزارة المعارف وذلك عندما تولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى .

وقد نقل عن الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين جواز نقل معانى القرآن الكريم الى اللغات الأجنبية .

ونقل مثل ذلك عن الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى ، والأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى .

الذى كتب الى رئيس الوزراء فى مصر يقترح عليه أن تتعاون وزارة المعـارف مع مشيخة الأزهر ، فى ترجمة معـانى القـرآن الى اللغـات الأجنبيـة .

وقد أحيل الاقتراح الى ورارة المعـارف المصرية فاقترحت تاليف لجنة من كبار المختصين فى اللغة العربية واللغات الأجنبية لهذه الترجمة ، وقدرت نفقات المشروع بعشرة آلاف جنيه .

وصدرت فتوى شرعية عن جماعة كبار العلماء برئاسة الاسـتاذ الاكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر وعضوية شيوخ الكليات وكبـار الأسـاتذة .

* * *

نص الفتوى ...

بسم الله الرحمن الرحيم

ما قول السادة حضرات أصحاب الفضيلة العلمــاء ، فى السؤال الآتى بعد ملاحظة المقدمات الآتية :

١ — لا شبهة فى أن القرآن الكريم اسم للنظم العربى ، الذى انزل على سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

ولا شبهة ايضا فى انه اذا عبر عن معانى القرآن الكريم ، بعد فهمها من النص العربى ، بأية لغة من اللغات لا تسمى هذه المعانى ، ولا العبارات التى تؤدى هذه المعانى قرآنا .

٢ — ومما لا محل للخلاف فيه ايضا ان الترجمة اللفظية ، بمعنى نقل المعانى مع خصائص النظم العربى المعجز مستحيلة .

٣ — وضع الناس تراجم للقرآن الكريم بلغات مختلفة ، اشتملت على اخطاء كثيرة ، واعتمد على هذه التراجم بعض المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية ، وبعض العلماء من غير المسلمين ممن يريد الوقوف على معانى القرآن الكريم .

٤ — وقد دعا هذا الى التفكير فى نقل معانى القرآن الكريم ، الى اللغات الاخرى على الوجه الآتى :

يراد — أولا — فهم معانى القرآن الكريم ، بواسطة رجال من خيرة علماء الأزهر الشريف ، بعد الرجوع لآراء ائمة المفسرين ، وصوغ هذه

المعانى بعبارات دقيقة محدودة ، ثم نقل المعانى التى فهمها العلماء الى اللغات الأخرى ، بواسطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم فى تلك اللغات ، بحيث يكون ما يفهم فى تلك اللغات من المعانى ، هو ما تؤديه العبـارات العربية التى يضعها العلماء ، فهل الاقدام على هذا العمل جائز شرعا او غير جائز ؟ هـذا مع العلم بانه سيوضع تعريف شـامل : يضمن ان الترجمة ليست قرآنا ، وليس لها خصائص القرآن ، وليست هى ترجمة كل المعانى التى فهمها العلماء ، وانه ستوضع الترجمـة وحدها بجوار النص العربى .



الفتوى[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد فقد أطلعنا على جميع ما ذكر بالاسفاء المدون بباطن هذا .

ونفيد بأن الاقدام على الترجمة على الوجه المذكور تفصيلا فى السؤال جائز شرعا . والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم .

محمود الدينارى ، عضو جماعة كبار العلماء وشيخ معهد طنطا
عبد المجيد اللبان ، شيخ كلية أصول الدين وعضو جماعة كبار العلماء .

ابراهيم حمروش ، شيخ كلية اللغه العربية وعضو جماعه كبار العلماء .

محمد مامون الشناوى ، شيخ كلية الشريعة وعضو جماعة كبار العلماء .

عبد المجيد سليم ، مفتى الديار المصرية وعضو جماعة كبار العلماء .

محمد عبد اللطيف الفحام ، وكيل الجامع الأزهر وعضو جماعة كبار العلماء .

دسوقى عبد الله البدوى ، عضو جماعة كبار العلماء .

احمد الدلبشانى : عضو جماعة كبار العلماء .

يوسف الدجوى : عضو جماعة كبار العلماء .

محمد سبيع الذهبى : عضو جماعة كبار العلماء .

عبد المعطى الشرشيمى : عضو جماعة كبار العلماء .

عبد الرحمن قراعة : عضو جماعة كبار العلماء .

احمـــــد نصر : عضو جماعة كبار العلماء .

محمد الشافعى الظواهرى : عضو جماعة كبار العلماء .

حيث ان الترجمة المرادة هى ترجمة لمعانى التفسير الذى يضعه العلماء فهى جائزة شرعا ، بشرط طبع التفسير المذكور بجوار الترجمة المذكورة والله أعلم .

عبد الرحمن عليش الحنفى
عضو جماعة كبار العلماء



رأى فضيلة الأستاذ الأكبر !!

وجهت هذا السؤال الى حضرات اصحاب الفضيلة جمـاعة كبار العلماء ، وانى أوافقهم على ما رأوه ، ولا ارى داعيا للتحفظ الذى ابداه فضيلة الشيخ عبد الرحمن عليش ، وهو طبع التفسير مع الترجمة لعدم الحاجة الى ذلك بعد مراعاة الشروط المدونة فى السؤال .

محمد مصطفى المراغى
رئيس جماعة كبار العلماء

* * *

قرار مجلس الوزراء بمصر !!

بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الجامع الأزهر ، وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية ، بشأن ترجمة القرآن الكريم .

ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة هذا العمل وصعوبته ، ومنعا لأضرار التراجم المنتشرة الآن .

رأى بجلسته المنعقدة فى ١٦ أبريل سنة ١٩٣٦م الموافقة على ترجمة معانى القرآن الكريم ، ترجمة رسمية تقوم بها مشيخة الجامع الأزهر ، بمساعدة وزارة المعارف العمومية ، وذلك وفقا لفتوى جماعة كبار العلماء وأساتذة كلية الشريعة .

* * *

اعتراض على الترجمة

وقد اعترض على المشروع أفراد من العلماء ، وبعض الباحثين ، فكتب الأستاذ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر بحثا مستفيضا عن امكان ترجمة القرآن ، استشهد فيه بأقوال ائمة المذاهب الفقهية ؛ وطمأن الذين يخافون على القرآن الكريم من ترجمة معانيه ، ونقل من كتب الفقه ما يؤيد جواز الترجمة ، بل ما يحث عليها .

تم ختم الشيخ المراغى بحثه بقوله :

(وبعد هذا يمكن القول بأن المسألة من الوضوح بحيث لا تقبل الجدل ، فان رسالة النبى صلى الله عليه وسلم رسالة عامة ، ولا سبيل الى تبليغ الرسالة ، وتبليغ ما انزل اليه ليتدبره الناس ، الا عن طريق الترجمة .

ولا أرى خطرا ما فى هذا ، لأنه متى علم الناس علما لا لبس فيه ان الترجمة ليست قرآنا ، وليس لها خصائص القرآن ، وأنها لا تحمل الاعجاز الموجود فى النظم العربى ، بل ولا تحمل معانى النظم العربى جميعها ، وانما تحمل المعانى التى فهمها المفسرون ، وجد الأمن التام ، وحصلت الطمأنينة التامة الى أن التراجم لا تأخذ قدسية القرآن العربى ، والى انه لا يمكن ان يخطر بالبال يوما ان التراجم هى القرآن المنزل من الله على رسوله الأكرم ، صلوات الله عليه) (١) .

* * *

---

(١) دراسة حول ترجمة القرآن الكريم ، د. احمد مهنا : ٧٠ . مطبوعات دار الشعب بالقاهرة .

مقترحات الدكتور أحمد مهنا ..

تقدم الدكتور احمد مهنا ببحث الى المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية (١) حول ترجمة معانى القرآن الكريم اقترح فيه ما يأتى :

١ ـ أن يتبنى مجمع البحوث الاسلامية ـ ممثلا للأزهر ـ العمل على دراسة الترجمات المختلفة ، ولنبدأ باللغة الانجليزية أولا ، لانتشارها اكثر من غيرها فى بلاد العالم ، تمهيدا لاصدار ترجمة شاملة ، تجمع محاسن الموجود ، وتستبعد الأخطار ، وتكمل النقص ، وتعرض معانى القرآن الكريم فى أسلوب واضح صحيح ، مع تصدير هذا العمل بمقدمة وافية ، تبين للقارىء ما فى الترجمات الموجودة من مآخذ ، دعت الى اصدار ترجمة جديدة .

٢ ـ أن يجند لهذا العمل كل من له دراية كافية بالثقافة الاسلامية ، بحيث يستطيع أن يميز الصحيح من الخطأ ، وما له سند مما لا سند له ، مما يذكر على أنه من تعاليم الاسلام ، وله من معرفة اللغة الانجليزية ، ما يمكنه من فهم المراد للكتاب فهما صحيحا ، والرد عليه فى أسلوب واضح سليم .

٣ ـ الا يستقل فرد من مجموعة العمل بأى جزء من اجزائه ، بل يكون العمل جماعيا ، بمعنى أن كل ما يقوم به فرد يعرض بالتفصيل على جماعة العمل متكاملة ، ولا يعتبر نهائيا الا اذا أقره الجميع (٢) .

---

(١) عقد هذا المؤتمر بالقاهرة فى الفترة من ١٤ اكتوبر الى ٨ من نوفمبر سنة ١٩٧٧م .

(٢) دراسة حول ترجمة القرآن الكريم ، د. احمد مهنا : ٩٩ ، مطبوعات دار الشعب بالقاهرة .

دعـــوة

ان المهمـه ثقيلة تتعلق بتطهير الاســلام والقرآن ممـا الصقه به المغرضون .

وعند قراء التراجم الانجليزية والفرنسية نجد ان المغرضين قـد الصقوا بالقرآن تهما باطلة .

وينبغى للمسلمين ان يتواصوا بالعمل على تنقية الاسلام من هـذه التهـم .

وان يعرضوا كتاب الله فى وضعه الصحيح هـدى ونورا . يحرك النفس للايمان به . ويدافع عن التهم الباطلة التى الصقها به الأعداء .

وهذه مسئوليات المؤســات الاسلامية فى العالم الاسلامى . وحبذا لو تكاتفت وتعاونت فى القيام بواجبات التعريف بالاســلام . وعرضـه بصورته المشرقة . والدعوة الى الله بأسلوب العصر . وصدق الله العظيم .

((ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن)) .

يقول الأستاذ محمد الخضر حسين :

(... واذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقى ولو للمعانى الأصلية لا تتيسر فى جميع آيات القرآن . وانما المتيسر الترجمة على معنى التفسير . كانت الترجمة المعنوية اقرب الى الصحة من الترجمة الحرفية . متى افاد بها المترجم معنى الآية . فى اسلوب من اساليب اللغـة الأجنبية . لا زياده فيه ولا نقصان .

فلو قامت جمعية ذات نيات صالحة ، وعقول راجحة ، وتولت نقل معانى القرآن الى بعض اللغات الأجنبية ، وهى على بينة من مقاصده ، وعلى رسوخ فى معرفة تلك اللغات ، وتحاملت الوجوه التى دخل منها الخلل فى التراجم السائرة اليوم فى أوربا ، لفتحت لدعوة الحق سبيلا كانت مقفلة ، ونشرت الحنيفة السمحة فى بلاد طافحة بالغواية قائمة (١) .

* * *

---

(١) بلاغة القرآن ، للأستاذ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر : ٢١ . المطبعة التعاونية بدمشق .

الفصل التاسع

الوحدة الموضوعية للسورة
فى القرآن الكريم

الفصل التاسع

الوحدة الموضوعية للسورة
فى القرآن

معنى كلمة سورة :

القرآن ١١٤ سورة وفى كل سورة من سور القرآن روح يسرى فى آياتها ويسيطر على مبادئها واحكامها وتوجيهاتها واسلوبها .

قال الحافظ ابن كثير :

واختلف فى معنى السور مما هى مشتقة ؟ فقيل من الابانة والارتفاع فكأن قارىء القرآن ينتقل من منزلة الى منزلة ، وقيل لشرفها وارتفاعها كسور البلدان وقيل سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءا منه ؛ ماخوذ من سؤر الاناء وهو البقية ، وعلى هذا فيكون اصلها مهموزا ، وانما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واوا لانضمام ما قبلها . وقيل لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة ، قلت ويحتمل ان يكون للجمع والاحاطة لآياتها ، كما يسمى سور البلد لاحاطته بمنازله ودوره .

وجمع السورة (سور) بفتح الواو قد يجمع على (سورات) و (سورات) (١) .

اسماء السور :

السورة قطعة من القرآن وجزء منه ، وهى سور يحيط بالآيات التى تحتويها ونلاحظ ان السورة تسمى بأغرب شىء فيها أو اهم شىء فيها .

---

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر مقدمة التفسير ١/٥٠ .

١ ـ فسوره البقرة سميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة البقرة وذلك انه قتل قتيل فى بنى اسرائيل ولم يعلم قاتله فذهب القوم الى موسى عليه السلام يطلبون منه بيان القاتل فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل بجزء منها فترد اليه الحياة ويقوم ويقول قتلنى فلان ثم يعود ميتا ((**فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون**)) .

(البقرة : ٧٣)

٢ ـ وسورة آل عمران اشتملت على قصة مريم ابنة عمران وقد حملت مريم بأمر الله وكانت ولادة عيسى أغرب ولادة فى التاريخ ، حيث خلقه الله بقدرته من غير أب وخلق حواء من غير أم .

((**ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين**)) .

(آل عمران : ٥٩ ـ ٦٠)

٣ ـ وسورة النساء اشتملت على ذكر أحكام النساء والوصية بهن واوجبت لهن الميراث وكانت المراة لا ترث فى الجاهلية . وقد بينت المحرمات من النساء والعلاقة بين الرجل والمراة وتسمى سورة النساء الكبرى تمييزا لها عن سورة النساء الصغرى وهى سورة الطلاق .

٤ ـ وسورة المائدة إشتملت على قصة المائدة فى الآيات ١١٢ ـ ١١٥ حيث طلب الحواريون من عيسى مائدة من السماء ، ليأكلوا منها وتطمئن قلوبهم بصدق عيسى فى دعوته .

((**قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ، قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا اعذبه احدا من العالمين**)) .

(سورة المائدة ١١٤ ـ ١١٥)

٥ ـ وسورة الأنعام تعرضت لذكر الأنعام وانواعها الثمانية وهى الشاة والخروف والتيس والماعز والثور والبقرة والجمل والناقة . وذلك فى الآيات ١٣٦ ـ ١٥٠ من السورة قال تعالى : ((**ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج من الضان اثنين ومن المعز اثنين ..**)) .

(سورة الأنعام ١٤٢ ـ ١٤٣)

٦ ــ وسورة الأعراف تعرضت لذكر الأعراف وهو حاجز مرتفع بين الجنة والنار عليه رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم . قال تعالى : **« وبينهمــا حجاب وعلى الأعراف رجــال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون »** .

(سورة الأعراف : ٤٦)

٧ ــ وسورة الأنفال تعرضت لذكر الأنفال وهى الغنائم ، وكان المسلمون قد اختلفوا فى طريقة توزيعها بعد غزوة بدر ، فبينت السورة أن النصر كان من عند الله ، وان الواجب يقضى بتقوى الله واصلاح ذات البين وجمع الشمل قال تعالى : **« يسالونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول واتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين »** .

(سورة الأنفال : ١)

٨ ــ وسورة التوبة ، ذكر فيها توبة الله على المؤمنين وعلى المتخلفين عن الغرو حين علم الله منهم صدق التوبة والندم الشديد .

قال تعالى :

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وظنوا أن لا ملجا من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا أن الله هو التواب الرحيم » .

(سورة التوبة ١١٧ ــ ١١٨)

٩ ــ وسورة يونس تعرضت لذكر نبى الله يونس وقد أرسله الله الى مائة الف او يزيد فآمنوا به فنجاهم الله من العذاب ومتعهم فى الدنيا الى نهاية اجلهم قال تعالى : **« فلولا كانت قرية آمنت فنفعهــا ايمــانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين »** .

(سورة يونس : ٩٨)

١٠ ـ وسورة هود ذكرت رسالة هود الى قومه فى قوله تعالى :
« والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان انتم الا مفترون » .

(سورة هود : ٥٠)

ثم وضحت رسالات الرسل الى قومهم فذكرت رسالة صالح الى ثمود ورسالة شعيب الى أهل مدين ورسالة ابراهيم ولوط وموسى الى قومهم .

١١ ـ وسورة يوسف دارت كلها تقريبا حول قصة يوسف عليه السلام ، وهكذا نجد أن الأساس العام فى تسمية السورة هو أهم شىء فيها أو أغرب شىء تحدثت عنه .

وأحيانا تطرق السورة عدة موضوعات وتختار واحدا من بينها ليكون عنوانا لها فسورة هود تناولت قصص كثير من الأنبياء أولهم نوح عليه السلام ، ولكن نوحا ذكر فى سورة مستقلة ، وثانيهم هود وبه سميت السورة ثم تحدثت عن صالح وشعيب وابراهيم ولوط وموسى عليهم السلام .

خطأ المستشرقين

وجه بعض المستشرقين نقدا الى تاليف القرآن . وقال انه جمع غير مؤتلف اشبه بقولهم « خمر لبن عسل » .

ولم يستطع ان يتبين ما فى القرآن من روابط خفية ، فالوحــدة الكبرى التى تجمع بين آيات القرآن هى الحديث عن الاسلام وما يتعلق به ، ولكن هذا الحديث كان معجزا متشابها يحس الانسان فيه بصدق العاطفة وجمال التعبير وجودة الأداء . قال تعالى : **((الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منــه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فمــا له من هــاد))** .

(سورة الزمر : ٢٣)

وفى ترابط آيات القرآن سر تحس به النفوس وتخشع له القلوب ، وقد تعجز الكلمات عن التعبير عن التأثير القرآنى وسطوته على القلوب .

راى الدكتور دراز

يرى الدكتور دراز ان القرآن يضرب به المثل فى جودة السبك واحكام السرد حين ينتقل من فن الى فن .

ويرى : « ان هذه النقطة قد غفل عنها جميع المستشرقين ، فضلا عن علماء المسلمين ، فعندما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعى بين المواد التى تناولتها السور ، لم ير فى القرآن الا أشتاتا من الأفكار المتنوعة ، عولجت بطريقة غير منظمة ، بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع الى الحاجة لتخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب . وهناك فريق آخر يرى فى الوحدة الأدبية لكل سورة — وهو مالا يستحيل نقله فى أية ترجمة — نوعا من التعويض لهذا النقص الجوهرى فى وحدة المعنى .

وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين ، رأى أن هذا العيب يرجع الى الصحابة الذين جمعوا القرآن وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوها على شكل سور .

ويعقب الدكتور محمد عبد الله دراز :

« بأن هذه التفسيرات لا تبدو صالحة للأخذ بها ، اذ من المتفق عليه أن السور كانت بالشكل الذى نقرؤها به اليوم وبتركيبها الحالى منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم » .

« ولقد اتضح أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحدودا للسورة يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة . . ولا جدال فى كتاب، فى الأدب أو فى أى مجال آخر يمكن أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو . واذا كانت السورة القرآنية من نتاج ظروف النزول ، تكون وحدتها المنطقية والادبية معجزات » (١) .

---

(١) د . محمد عبد الله دراز ؛ مدخل الى القرآن الكريم ؛ نشر دار القلم بالكويت .

واستفدت بتعريف الأستاذ محمد عبد الله السمان بالكتاب تحت عنوان : المكتبة الاسلامية ؛ بمجلة التضامن الاسلامى التى تصدرها وزارة الحج ۏالأوقاف بمكة المكرمة ، عدد جمادى الثانية سنة ١٣٩٥ هـ — يوليو ١٩٧٥ م ؛ وبخاصة تعريفه بالفصل الثالث من الباب الثانى للكتاب . وانظر تفسير سورة النساء ، للدكتور محمد عبد الله دراز ، مخطوط .

نزول القرآن منجما

لقد نزل القرآن فى ثلاث وعشرين سنة ، ثلاث عشرة سنة فى مكة وعشر سنوات فى المدينة . واستمر نزول بعض السور عشر سنين مثل سورة البقرة . ومع ذلك احتفظت بين بالتناسق والترابط بين آياتها ، والترتيب والتجانس بين موضوعاتها .

« ومع أن السورة من القرآن كانت تنزل منجمة وفى أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة . وبين أجزائها عناصر معنوية ومع هذا سبكتها واحكمت صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الاسباب على تضافرها ، أن تنال من استقامة النظم فى السور المؤلفة على هذا النهج ؟ « اما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا فى نظم سورة منه مطمعا لطامع ، بله مغمزا لغامز لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم » (١) .

---

(١) د . عبد الله شحاته ، علوم التفسير ، الهيئة العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية ، ص ١٥٠ .

كتاب النبأ العظيم

كتاب النبأ العظيم ، نظرات جديدة فى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ، من أقيم الكتب التى تحدثت عن القرآن ، فقد تحدث الكتاب عن الوحدة المعنوية للسورة وما فى القرآن من اعجاز متعدد الألوان ، فمنه الاعجاز اللغوى والاعجاز العلمى ، والاعجاز التشريعى . وبين أن أسلوب القرآن هو ملتقى نهايات الفضيلة البيانية على تباعد ما بين اطرافها ، ووضع الدليل أمام القارىء قائلا :

« أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأى يد وضع بنيانه، وعلى أى يمين صنع نظامه حتى كان كما وصفه الله ((**قرآنا عربيا غير ذى عوج**)) الزمر — ٢٨ . اعمد الى سورة من تلك السور التى تتناول أكثر من معنى واحد . وما أكثرها فى القرآن الكريم فهى جمهرته ، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ، ووطّأت أولاها أخراها ، وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة فى نظام معانيها ، أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى نجوم شتى . ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة واحدة حتى يحدثك التاريخ أنها كلها نزلت نجوما » (١) .

طبيعة وحدة السورة :

فى السورة وحدة فكرية ، نعنى أن هناك روابط بين أجزائها ، ويخطىء من يظن أن هذه الوحدة تعنى أن السورة موضوع مستقل ، أو فصل فى باب ، أو مبحث فى كتاب .

فهناك فارق كبير بين طريقة القرآن ، وطريقة التأليف عند الناس . القرآن كتاب هداية يسلك الى النفوس طريقها ، ويتخولها (٢) بالموعظة بين الحين والآخر ، ولكنه جعل لكل سورة موضوعا عليها وسمات بارزة فيها .

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ، ص ١٧٣ و ١٧٤ .

(٢) تخولتهم بالموعظة : تعهدتهم بها على فترات .

راى الاستاذ محمد المدنى

يقول استاذى المرحوم الشيخ محمد المدنى فى مقدمة كتابه (المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء) .

« ان فى كل سورة من سور القرآن الكريم روحا يسرى فى آياتها ويسيطر على مبادئها واحكامها وتوجيهاتها واسلوبها .

ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بوضع الآيات التى تنزل عليه منجمة فى مواضعها من السور وان ذلك كان عن وحى يتلقاه عليه الصلاة والسلام من جبريل عن الله رب العالمين فهل كان ذلك الا لمعنى ؟ وهل يأمر الله تعالى بوضع هذه الآيات هنا وهذه الآيات هناك الا لحكمة ؟ وقد عنى المفسرون بكثير من الجوانب المتصلة بدراسة القرآن الكريم ، وقل فيهم من عنى بهذا الجانب الذى هو دراسة الروح العام لكل سورة والغرض الذى تهدف اليه .

ومن الواضح أن سور القرآن مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص وروح يسرى فى نواحيها لا يمكن ان تعد فصولا او أبوابا مقسمة منسقة على نمط التآليف التى يؤلفها الناس ومن اراد يفهمها على ذلك فانه يكون متكلفا متسنطا محاولا أن يخرج بالقرآن عن أسلوبه الخاص الذى هو التنقل والمراوحة والتخول ببث العظة فى تضاعيف القول والوقوف عند العبرة لتجليتها ، والتوجه الى مغزاها وانتهاز الفرصة أينما واتت لدعم العقيدة السليمة والمبادىء القويمة .

ان هناك فرقا بين من يحاول ان يفعل ذلك ومن يحاول أن يجعل القارىء يلمح الروح السارى ، والبيئة المعنوية الخاصة التى تجول فيها السورة دون أن يخرج التنزيل الحكيم عن سننه وأسلوبه الذى انفرد به وكان من أهم نواحى الاعجاز فيه .

وهذه الطريقة فى الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبع الآيات اية بحسب ورودها فى السورة ، ومن تتبع جمل كل آية وكلمات كل آية واحيانا حروف كل آية أيضا ليدرس كل ذلك على نحو من التفصيل أو الاجمال أو على نحو من التطويل او الايجاز فان ذلك لا يعطى المنظر العام

ولا يساعد على تصور عظمة السورة مجتمعة الملامح منضمة التقاسيم كاملة الوضع » (١) .

ان النظرة الكاملة للسورة تبرز شخصيتها وتجعل القارىء يتعرف على فكرتها العامة ، ويتتبع موضوعاتها داخل الاطار العام المميز لها من غيرها وشتان بين صورة متكاملة متجانسةوبين اجزاء مفككة مقطعة لهذه السورة . شتان بين من يصف قصرا شامخا ببيان نوع احجاره ولبناته واخشابه وحديدة ومقابض ابوابه وبين من ينظر الى جملته كبيت كامل او كصرح عظيم .

يرى الامام ابو حامد الغزالى انه شتان بين من يقدم عبدا هدية لانسان وبين من يقطع اوصاله ليقدمها هدية . مع أن العبد فى الواقع هو مجموع هذه الأجزاء .

ويقول الغزالى : الصلاة المشتملة على الركوع والسجود وسائر الأركان بدون حضور القلب اشبه بأجزاء العبد حين تقدم هدية اما الصلاة المشتملة على الخشوع وحضور القلب فهى أشبه بالعبد الكامل حين يقدم هدية يملأ الروح والحياة والجمال (٢) .

لقد تكفل الله بحفظ كتابه ، وهذا الحفظ لا يعنى حفظ النصوص وحدها ولكنه يعنى ايضا حفظ المعنى والروح السارية فى القرآن الكريم ، وما أحوجنا أن نتعرف على روح القرآن الهادية سوره ومقاصدها وآداب آياته واحكامها .

ان هناك يقظة فكرية فى البلاد الاسلامية ، وتوجد رغبة ملحة فى ان يعود المسلمون الى القرآن وأن يتعرفوا على هديه .

وفى رأيى أن تيسير الأهداف العامة للسورة وتوضيح افكارها وسماتها يساعد القارىء على ادراك الروح العامة للآيات والاحساس بالوشائج والصلات التى تربط بين أجزاء كل سورة وهذا يسهل الحفظ لمن أراد الحفظ ويسهل الاحاطة بالمعنى الاجمالى للآيات لمن أراد القراءة والتلاوة ويقرب القرآن وييسر فهمه حتى يتعظ به المؤمنون ويهتدى به المسلمون وصدق الله العظيم : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » القمر ١٧ .

(١) محمد محمد المدنى : المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء ص ٥ – ٧ .

(٢) احياء علوم الدين كتاب الصلاة ، مبحث الخشوع فى الصلاة بتصرف .

السبع الطوال فى القرآن

هذه نماذج من أهداف السور ، تبين السمات الأساسية للسورة وتذكر الأهداف العامة لها والأغراض الرئيسية التى اشتملت عليها .

ونبدأ بأهداف سورة البقرة ثم آل عمران ثم النساء ثم المائدة ثم الأنعام ثم الأعراف ثم الأنفال وهى السور التى تلقب بالسبع الطوال .

ومن هذه الأهداف يتضح لنا أن السورة وحدة متناسقة قد تتعدد موضوعاتها ولكن هناك وشائج تربط بين هذه الموضوعات ، وهناك روح سار يسيطر على ماتثيره السورة من أفكار ومبادىء وما تذكره من قصص أو مشاهد .

وهذا يؤكد احكام الصنعة ، واعجاز الكتاب وسوره ، وروعته فلا يتسنى لأحد من البشر أن يربط بين هذه المعانى المتعددة ، أو ينسق بين الموضوعات العديدة ، انما يملك ذلك رب البشر الذى أنزل الكتاب قرآنا عربيا غير ذى عوج لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .



الأهداف العامة لسورة البقرة

سورة البقرة سورة مدنية وهى من أجمع سور القرآن الكريم وقد اشتملت على الأهداف الآتية :

١ ــ بيان أصول العقيدة وذكر أدلة التوحيد ومبدأ خلق الانسان .

٢ ــ بيان أصناف الخلق أمام هداية القرآن وذكرت أنهم أصناف ثلاثة المؤمنون والكافرون والمنافقون .

٣ ــ تعرضت السورة لتاريخ اليهود الطويل وناقشتهم فى عقيدتهم وذكرتهم بنعم الله على أسلافهم وبما أصاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين وارتكبوا صنوف العناد والتكذيب والمخالفة واقرأ فى ذلك قوله تعالى :

« يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم واوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون » .

(سورة البقره : ٤٠) .

الى آخر آية البر فى منتصف السورة تقريبا وهى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... » .

(سورة آلبقرة : ١٧٧) .

وهذا الغرض من اغراض السورة استدعاه جوار المسلمين لليهود فى المدينة .

٤ ـ التشريع الاسلامى الذى اقتضاه تكون المسلمين فى المدينة كجماعة متميزة عن غيرها فى عباداتها ومعاملاتها وعاداتها ، وقد تحدث النصف الثانى من السورة عن هذه التشريعات فذكرت الآيات أحكام القصاص وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل وذكرت الأهلة وانها جعلت ليعتمد الناس عليها فى أوقات العبادة والزراعة وغيرها . وذكرت الحج والعمرة وذكرت القتال وسببه الذى يدعو اليه وغايته التى ينتهى اليها وذكرت الخمر والميسر واليتامى وحكم مصاهرة المشركين . وذكرت حيض النساء والتطهر منه والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت البيع والربا وذكرت طرق الاستيثاق فى الدون بالكتابة والاستشهاد والرهن .

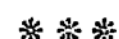
ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر :

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... » .

سورة البقرة ١٧٨ . الى آخر السورة . وكان يتخلل ذلك ـ على طريقة القرآن ـ ما يدعو المؤمنين الى التزام هذه الأحكام وعدم الاعتداء فيها من قصص ووعد ووعيد وارشاد الى سنن الله فى الكون والجماعات ثم تختم سورة البقرة ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت فى بيان أوصاف المتقين ومن ثم بتناسق البدء والختام وفى آخر سورة البقرة نجد آيتين جامعتين لمعنى الايمان وهما .

« آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤخذنا ان نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

(سورة البقرة ٢٨٥ ــ ٢٨٦) .



اهداف سورة آل عمران

سورة آل عمران سورة مدنية نزلت فى العام الثالث من الهجرة وقد اشتملت على الأهداف الآتية :

١ ــ تقرير الحق فى قضية العالم الكبرى وهى مسألة الألوهية وانزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الوحى والرسالة وبيان وحدة الدين عند الله وذلك فى الآيات الأولى من السورة .

٢ ــ تقرير العلة التى من أجلها ينصرف الناس فى كل زمان ومكان عن التوجه الى معرفة الحق والعمل على ادراكه والتمسك به وقد بينت أن هذه العلة هى غرور الناس بما لهم من اموال وجاه وسلطان .

قال تعالى : ((**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين**)) الآيات كما دعت السورة الى الصدق فى الايمان وعدم الاغترار بزخارف الحياة .

٣ ــ فى النصف الثانى من السورة نجد دروسا مستفيضة عن أسرار النصر فى غزوة بدر والهزيمة فى غزوة احد فقال تعالى :

((**ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين**)) .

(سورة آل عمران ١٣٩ والآيات التالية) .

٤ ــ التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين قال تعالى : ((**لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ...**))

(سورة آل عمران ٢٨) .

وقال سبحانه : ((**لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد**))

(سورة آل عمران ٩٦)

٥ ــ كانت السورة بلسما شافيا يأسو جراح المسلمين فى غزوة أحد ، فتحدثت عن الابتلاء والاختبار وذكرت فضل الشهداء وعاقبة الصابرين الأوفياء من الآية ١٢١ الى آخر السورة حيث يقول سبحانه فى الآية الاخيرة ((**يايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**)) .

(سورة آل عمران : ٢٠٠)

* * *

اهداف سورة النساء

سوره النساء مدنية عنيت بتوضيح معالم المجتمع الاسلامى وتبين الخطوط المكونة لصورته والمميزة لملامحه وقسماته على الوجه الذى يسعده ويرد عنه غوائل الشر وعوامل الفساد .

ويمكن ان نجعل اهداف سورة النساء فى الأمور الآتية :

١ ـ اعلان مبدا المساواة بين الناس تمهيدا لاقامة المجتمع على اساسه .

٢ ـ حقوق النساء واليتامى والسفهاء .

٣ ـ احكام الزوجية وما يتصل بها .

٤ ـ احكام المواريث .

٥ ـ التضامن الاجتماعى فى ظل التوحيد والخلق الكريم .

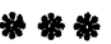
٦ ـ اساس الحكومة الاسلامية .

٧ ـ التحذير من أهل النفاق والكفر ومن الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حربا مادية ومعنوية .

٨ ـ ارسال الرسل شأن الهى وليس محمد بدعا من الرسل .

٩ ـ اقامة الحجة على من يزعمون التثليث واثبات أن الله واحد وان المسيح ما هو الا عبدالله .

١٠ـ الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة الى الناس اجمعين .



اهداف سورة المائدة

سورة المائدة سورة مدنية وهى من أواخر ما نزل من القرآن ، لم تنزل الا بعد ان قلمت اظافر الشرك وارتفع شأن المسلمين وقويت دولتهم ، ولذلك لم تتحدث السورة عن الشرك والمشركين وانما تحدثت عن امرين بارزين :

الأول : تشريع ينظم شئون المسلمين فى خاصة أنفسهم وفى معاملة من يخالطون .

الثانى : ارشادات لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق فى المزاعم التى كان يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام .

من تشريعات سورة المائدة :

١ ــ الوفاء بالعقود والمواثيق .

٢ ــ تفصيل احكام الطعام وبيان حرامه وحلاله .

٣ ــ تحريم الخمر وتحريم الميسر (القمار) .

٤ ــ بيان محظورات الاحرام فى الحج .

٥ ــ حدود المحاربين الذين يفسدون فى الأرض .

٦ ــ أحكام الأيمان وكفارتها .

٧ ــ أحكام خاصة بمعاملة اهل الكتاب منها معاملتهم بالعدل والحكم بينهم بالقسط واباحة اكل طعامهم وتزوج نسائهم وقبول شهاداتهم والعفو والصفح عنهم .

٨ ــ براءة المسيح يوم القيامة ممن جعله الها وتفويضه الأمر كله لله الحق فهو سبحانه المتفرد بالعلم والقدرة والألوهية .



أهداف سورة الأنعام

سورة الأنعام سورة مكية نزلت جملة واحدة فى السنة الرابعة من البعثة واشتملت على الأغراض الآتية :

١ ـ توحيد الله ويتصل بهذا اقامة الدليل على وحدة الألوهية بلفت الأنظار الى آثار الربوبية ، والى صفات الله الخالق المتصرف ، كما يتصل بها ابطال عقيدة الشرك ، وشبهات المشركين ، وتقرير أن العبادة والتوجيه والتحريم انما ترجع الى الله .

ونلمح ذلك فى أول آية من السورة وهى :

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » .

(سورة الأنعام : ١)

وقد بسط هذا المعنى فى الآيات التالية لهذه الآية .

٢ ـ الايمان برسوله الذى أرسله ، وكتابه الذى أنزله . وبيان وظيفة هذا الرسول ، قال تعالى :

« قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ... » .

(سورة الأنعام : ١٩)

٣ ـ اثبات البعث والجزاء لينال المحسن جزاء احسانه والمسىء جزاء اساءته وقد لونت السورة فى أدلتها لاثبات البعث ، وصورت مواقف المشركين وما سيكونون عليه فى ذلك اليوم . قال تعالى :

« ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون » .

(سورة الأنعام : ٢٢) وما بعدها .

٤ ـ ذكرت السورة طرفا من قصة أبراهيم الخليل ، وتامله فى ملكوت السموات والأرض ، ليرشد قومه عن طريق الحوار الى فساد اعتقادهم ، فقد استدرج ابراهيم قومه للتأمل فى عظمة النجم والقمر والشمس وتأليهها ، ثم رآها تنتقل من مكان الى مكان ، وتتحول من حال الى حال فتبرأ من عبادتها واتجه للخالق البارىء الذى فطر السموات والأرض ، أنظر الآيات ٧٤ الى ٨٨ من سورة الأنعام .

٥ ـ اشتمل الربع الأخير من السورة على عشر وصايا وهى النهى عن الاشراك بالله ، والأمر بالاحسان الى الوالدين والنهى عن قتل الأولاد ، وعن الزنا ، وعن قتل النفس ، ثم أمرت الآيات بالاحسان الى اليتيم ، واتمام الكيل والميزان كما أمرت بالعدل والوفاء بالعهد والاستقامة وبدات هذه الوصايا بقوله تعالى :

« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ... » .

(سورة الأنعام ! ١٥١)

* * *

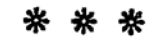
اهداف سورة الأعراف

سورة الأعراف سورة مكية وهى السورة المكية الثانية فى ترتيب المصحف وموضوع السورة الرئيسى هو الانذار .

انذار من يتولون غير الله ، ومن يستكبرون عن طاعة الله ومن ينسون الله ومن لا يشكرون نعمته ، انذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة ، ذلك فوق الخزى والهوان والنسيان .

نبدأ السورة بالانذار ، ثم تسلك بهذا المعنى سبلا شتى ، وتتصرف به تصرفات كثيرة، وترسم له صورا متعددة ونلمس به المشاعر لمسات مختلفة .

فتارة يأخذ السياق شكل القصة . قصة آدم مع ابليس ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع اقوامهم لتنتهى كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون عن امر الله . وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة ، أو مشاهد الاحتضار تتكشف فيه مصائر المكذبين المتكبرين ومصائر الطائعين لله رب العالمين ، وتتسم سورة الأعراف بتلك السمات التى أسلفنا الحديث عنها فى سورة الانعام ، وهى سمات السورة المكية عموما فى الدعوة الى رسالة الاسلام ، وبيان أصول الدعوة وهى : توحيد الله فى العبادة والتشريع وتقرير البعث والجزاء وتقرير الوحى والرسالة بوجه عام وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الالهية .



أهداف سورة الأنفال

سورة الأنفال مدنية نزلت فى العام الثانى من الهجرة ، ومن الأسباب المباشرة لنزولها معالجة شئون حدثت بين المسلمين فى غزوة بدر ، منها كراهتهم للخروج الى بدر حين دعاهم الرسول الى الخروج ، وكراهتهم للقتال حين وصلوا الى بدر وتحتم عليهم أن يقاتلوا ، ومنها اختلافهم بعد تمام النصر فى قسمة الغنائم ، ومنها اختلاف الرأى فى معاملة الأسرى ايقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم ، وفى جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون فى خاصة انفسهم ، من جهة امتثال الأمر والاخلاص والحيطة والحذر من الأعداء ، وتذكر نعم الله عليهم والآداب التى يجب مراعاتها أثناء القتال ، وفيما يتصل به من اعداد العدة والمحافظة على العقود وعلاقة بعضهم ببعض ، حتى يكونوا أهلا لما وعد الله به من النصر والتأييد .

وقد كان الصحابة يسمون سورة الأنفال بسورة بدر لما تضمنته من وصف المعركة وبيان ما صاحبها من نزول المطر ونزول الملائكة ، وقد بينت السورة أسباب النصر وصفات المؤمنين ودستور السلم والحرب ودستور الغنائم والأسرى ودستور المعاهدات والمواثيق .

الفصل العاشر

قراءة القرآن وحفظه

قال ص : « من حفظ القرآن ألبس والداه يوم القيامة تاج الكرامة نوره يغلب نور الشمس » .

رواه احمد فى مسنده

القرآن كلام الله تعالى وهو وحيه الى خلقه ورسالته الى الناس اجمعين والقرآن دستور المسلمين وامامهم وتلاوة القرآن الكريم افضـــل عبـــاده .

عن على بن ابى طالب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((**انه ستكون فتن**)) قلت ما المخرج منها يا رسول الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم .

((كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم وحكم ما بينكم وخبر ما بعدكم وهو الجد ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره اضله الله لم تسمعه الجن حتى قالت انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا ؛ من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن اتبعه هدى الى صراط مستقيم)) رواه الامام احمد فى مسنده

ان المسلمين فى حاجة الى عاطفة صادقة تربطهم بالقرآن الكريم وحب ورغبة فى تلاوة القرآن وترتيله وتفهم معانيه والعمل باحكامه فان ذلك اوسع ابواب الرحمة .

وفى الحديث الشريف ((اقرأوا القرآن فان الله يأجركم بكل حرف منه عشر حسنات لا اقول الم ، ولكن الف حرف ، ولام حرف ، وميم حـرف)) .

وفى كتب السنة الصحاح بيان فضل القرآن وتلاوته والتغنى به اى تحسين الصوت والترتيل فى خشـــوع وحنان ، وليس معناه ان يغنى بالقرآن مع الموسيقى ، بل المراد ترقيق الصوت وتحسينه فى خشـــوع حتى يكون القرآن اكثر تأثيرا .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا موسى الأشعـرى يقرأ القرآن فى ظلام الليل . وفى الصباح اخبره النبى صلى الله عليه وســلم بذلك . فقال ابو موسى يا رسول الله لو عرفت انك تسمع لحبرته لك تحبيرا اى جودته تجويدا واتقنت الأداء اتقانا .

وفى كتاب الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا فى الجزء الثامن عشر نجد طائفة من الأحاديث الشريفة ، والمجلد بالكامل يشتمل على فضل القرآن وكتابة القرآن .

ومن هذه الاحاديث التى رواها الامام حمد فى مسنده ما يأتى :

١ ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من نبى الا واوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذى اوتيته وحيا اوحى الى وانى لأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » .

ومعناه ان الله أعطى الانبياء السابقين معجزات تدعو الناس الى الايمان كناقة صالح ، وعصا موسى ، وشفاء المسيح للمرضى ؛ ولكن الله أعطى نبيه وحى السماء ليكون رسالة مستمرة الى يوم القيامة وسيكون المؤمنون بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم أكثر من اتباع اى رسول آخر يوم القيامة .

٢ ــ قال صلى الله عليه وسلم :

« الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام يارب منعته الطعام بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن يارب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه » .

فالصيام امساك عن المفطرات من الفجر الى غروب الشمس ، وهذا الصيام يأتى يوم القيامة شفيعا للصائمين ، وكذلك القرآن اذا قراه الانسان ولو بقدر يسير كل ليلة يشفع القرآن للمؤمن لأن المؤمن حرم نفسه من لذة النوم حتى يتلو القرآن .

٣ ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو ان القرآن جعل فى اهاب ثم القى فى النار ما احترق » .

اى لو جعلنا المصحف فى غلاف والقيناه فى النار فان النار لا تحرق المصحف ، وفى شرح الحديث انه كناية عن ان الله لا يعذب مؤمنا جعل القرآن فى قلبه وحفظه فى صدره لأن الانسان سيكون اهابا وغلافا للقرآن ، أى أن الله لا يعذب مؤمنا حفظ فى جوفه القرآن .

٤ ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« تعلموا كتاب الله وتعاهدوه ، وتغنوا به فوالذى نفسي بيده انه لأشد تفلتا من صاحبه من البعير عليه عقاله » .

والحـديث يطلب من المسـلم ان يستمر فى تلاوة القـرآن كل يوم والا يهمل فى تلاوته وعليه أن يقرأ بالقرآن فى الصلاة ويرتله ويتغنى به اى يقراه بصوت حسن وغن ومـد ، واذا اهمـل الانسـان تلاوة القرآن فسيضيع منه الحفظ لأن القرآن كالابل اذا أطعمتها وجدتها واذا اهملتها و فككت عقالها هربت تبحث عن المرعى فى اى مكان .

٥ ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل واطراف النهار » .

والحسد هنا بمعنى الغبطة ، وهى أن تتمنى مثل الغير مع بقاء النعمة عليه . والمعنى ان الدنيا زائلة وهناك أمران فقط يستحقان الحرص عليهما وعمل مثلهما .

الأول الاقتداء برجل اعطاه الله مالا ثم وفقه الى انفاقه فى وجوه الخير واهلاك جزء كبير منه فى الزكاة والصدقة وأنواع البر والمعروف للناس نهارا وينفذ أوامره ويلتزم بأحكامه ويحل حلاله ويحرم حرامه .

والحديث مروى فى البخارى وفى مسند الامام أحمد وله فى البخارى روايتان الرواية السابقة ورواية اخرى تقول :

« لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس » .

وقد فسر العلماء الحكمة بانها السنة المطهرة ، أو القرآن الكريم او حسن التانى للأمور ، او أنواع المعارف الاسلامية وتشمل القرآن والسنة والفقه والقضاء والاجتهاد .

قال تعالى : **« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب » .**

(سورة البقرة : ٢٦٩)

٦ ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم الرحمة وحفتهم الملائكة وغشيتهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » .

والحديث واضح ظاهر ، ويفيد ان رحمة الله تحف بقارىء القرآن وتنزل فوقه الملائكة وتغشاه السكينة والأمان والعناية الالهية ،

ويخطىء المسلمون كثيرا حين ينظرون للقرآن على أنه تعليمات مهومة أو كتاب يتلى فقط .

ولكن الحقيقة هى أن هذا الكتاب بنى أمة وانشأ دولة وربى جيلا من المسلمين وكان القرآن دستور حياتهم وقائد مسيرتهم واذا عاد المسلمون الى هدى القرآن والعمل به عادت اليهم العزة والمنعة ، واذا أعرضوا عن هديه أعرض عنهم العز والأمان .

يقول القرآن : **« قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »** .

(سورة طه : ١٢٥ ، ١٢٦)

٧ ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى أن يتغنى بالقرآن يجهر به » .

ومعناه أن الصوت الحسن مطلوب عند تلاوة القرآن والله تعالى لم يستمع الى شىء كاستماعه الى نبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن اى يجهر به ويرتله ترتيلا ويحسن تلاوته .

وقد ورد فى مسند الامام أحمد أحاديث كثيرة تحث على الترتيل والتجويد والتنغيم عند تلاوة القرآن منها قوله صلى الله عليه وسلم :

« ليس منا من لم يتغن بالقرآن » ، « زينوا القرآن بأصواتكم » « ان أبا موسى قد أعطى مزمارا من مزامير آل داود » .

وهذه الأحاديث دعوة الى التجويد وحسن الاداء وجودة النطق وتحلية الصوت حتى يؤثر فى السامعين فتلين القلوب وتقشعر الجلود قال تعالى :

« الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

(سورة الزمر : ٢٣)

وبعض الناس يبالغ فى التطريب حتى يهيم الناس معه ويعجبون به ويرسلون آهات الاستحسان ، ولكن فى الأثر :

(أفضل الناس قراءة من اذا قرأ حسبتموه يخشى الله) .

وروى الامام احمد فى مسنده :

عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ على القرآن قلت يا رسول الله اقرؤه عليك وعليك أنزل ؟ قال نعم فانى أحب أن أسمعه من غيرى .

قال ابن مسعود فقرات صدرا من سورة النساء حتى وصلت الى قوله تعالى :

« فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا »

(سورة النساء : الآية ٤١)

فاذا عينا رسول لله صلى الله عليه وسلم تذرفان بالدموع .

اننا مدعون الى قراءة القرآن وتدبره وتفهمه حسب ما يسر الله لكل انسان .

روى البخارى فى صحيحه أن على بن ابى طالب رضى الله عنه سئل هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء ؟ قال : لا .

الا فهما يؤتيه الله تعالى لرجل فى القرآن .

وروى ابو حامد الغزالى فى الاحياء فصلا كاملا فى فضل تلاوة القرآن وقراءته ومتابعة قراءته من جديد كلما أتم الانسان القرآن ويسمى هذا بالحال المرتحل ، فهو كلما اتم القرآن بدأ رحلة أخرى من اول كتاب الله :

وفى احياء علوم الدين للغزالى ، أن الامام احمد بن حنبل رأى جلال الله تعالى فى المنام ٩٩ مرة فقال فى نفسه وعزتك وجلالك لئن رايتك بعد ذلك لاسألنك .

قال الامام احمد فلما رايت جلال الله فى المنام قلت يا رب ما أفضل ما تعبدك به المتعبدون ؟ قال : بكلامى يا أحمد قلت يارب بفهم أو بغير فهم قال بفهم وبغير فهم .

* * *

ان القلب الذى لا يقرا القرآن اشبه بالبيت الخرب الذى لا عمران فيه فينبغى الا نهجر القرآن وينبغى ان يجعل كل واحد منا لنفسه وردا او جزءا من القرآن يقرؤه فى الصباح والمساء واذا قرأ الانسان جزءين من القرآن فى اليوم والليلة اتم تلاوة القرآن فى خمسة عشر يوما .

وينبغى ان نتعاهد ما حفظناه من الآيات والسور بالقراءة والحفظ مرة اخرى .

ففى الحديث الشريف يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« عرضت على ذنوب امتى فلم ار ذنبا اعظم من رجل حفظ آية من كتاب الله أو سورة من كتاب الله ثم نسيها » .

ان هذه الاحاديث الشريفة ينبغى ان تعمل عملها فى تحريك عزيمة المؤمن الى رغبة صادقة فى تلاوة قدر من القرآن وحفظ قدر من القرآن . ومتابعة ذلك باخلاص الدعاء لله تعالى فى الصلاة وعقب سماع الأذان أن ينور الله بالقرآن وجوهنا وأن يحرك به ألسنتنا وأن يرزقنا تلاوته وحفظه وأن يجمع القرآن فى قلوبنا .

وهذا الاخلاص فى الدعاء اذا انضم اليه اخذ الأسباب يسر الله للانسان التلاوة والحفظ .

دخل مهندس السجن لأسباب سياسية وسمح له بالمصحف فأقبل على القرآن تلاوة وحفظا حتى حفظه فى ستة اشهر وحكى لى من أثق به أن ابنته رغبت فى حفظ القرآن فكانت تتلوه وهى فى المطبخ تعد الطعام وتغسل الأطباق ولم تترك فرصة لقراءة القرآن الا انتهزتها حتى حفظت القرآن عن ظهر قلب واصبح القرآن على لسانها كالماء الجارى بفضل الله مع صدق الرغبة وصدق النية والعزيمة وفى الحديث الصحيح : **« انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امراة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .**

نماذج مضيئة :

دخل على فى السنة الرابعة بكلية دار العلوم سنة ١٩٥٥م . استاذ التفسير وكان يرتدى جبة واسعة وعمامة جميلة وله لحية تستدير حول ذقنه وله سمت العلماء ووقار الصالحين كان هذا الأستاذ هو الدكتور محمد عبد الله دراز .

وفسر لنا صدرا من سورة النساء ورسم لنا منهجا فى تفسير القرآن وادراك أهدافه ومراميه وكان هذا الأستاذ لا يرى الا قارئا للقرآن او كاتبا لكتاب أو ذاكرا لله تعالى وقد أثرى المكتبة الاسلامية ، وكتابه القيم (النبأ العظيم نظرات جديدة فى القرآن الكريم) من احسن ما كتب فى علوم القرآن الكريم .

الأستاذ الشيخ محمد الغزالى :

هو عالم معاصر حصل على العالمية من الأزهر الشريف وتابع الدراسة والتاليف والدعوة الى الاسلام بقلمه وخطبه وجميع ما يملك حتى حديثه العادى ومحاضراته العامة والخاصة وقد رحلت مع الأستاذ الشيخ محمد الغزالى الى لبنان الشقيق فى شهر رمضان المبارك فى السنة الميلادية ١٩٥٧م لنشر الثقافة الاسلامية بين جماهير المسلمين ، وكان الأستاذ الغزالى شابا عمره أربعون سنة وكان يلتهم العلم التهاما ولا يترك لحظة تمر الا قارئا فى كتاب ، او كاتبا لموضوع أو مسترسلا فى تلاوة القرآن ، وكان يصلى بنا اماما فى صلاة التراويح كل ليلة من ليالى رمضان فيقرأ جزءا من القرآن الكريم ، والقرآن ثلاثون جزءا فكان يختم القرآن فى شهر رمضان .

وفى ذلك الشهر صُدر له كتاب نظرات فى القرآن فى طبعته الأولى (سنة ١٩٥٧م) .

وفى آخر هذا الكتاب خاتمة ، يذكر فيها الأستاذ محمد الغزالى أنه حفظ القرآن الكريم وهو طفل فى العاشرة ، ثم يقول : (والتحقت بمعهد الاسكندرية الدينى ، وعندما تخرجت فى المعهد الدينى كنت تقريبا لا احسن التلاوة عن ظهر قلب كما كنت يوم بدأت حياتى العملية) .

ثم ادركتنى نفحة من رحمة الله ، فعزمت ان امهر فى القرآن مرة اخرى .

وظللت اكافح فى هذا السبيل نحو خمس سنين طوال كنت أقرأ « الربع » نحو عشر مرات ومع ذلك يعز على حفظه .

وكان اليأس يخامرنى . ولكنى صابرت الأيام وتحملت العناء ورجوت الخير .

وفى اثناء مطالعتى للسنة النبوية ، قرات حديثا نفعنى الله به ، رجربته فى التغلب على آفات النسيان فأفادنى .

وانى اثبته هنا لعل الله ينفع به من يريد أن يتصل بكتابه . ويكون من حفاظه .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ جاءه على رضى الله عنه فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله . تفلت هذا القرآن من صدرى فما اجدنى اقدر عليه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **((يا أبا الحسن : افلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ويثبت ما تعلمت فى صدرك ،** قال أجل يا رسول الله فعلمنى .

((قال : اذا كان ليلة الجمعة فان استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فانها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب . وقد قال أخى يعقوب لبنيه : سوف أستغفر لكم ربى . يقول حتى تأتى ليلة الجمعة)) .

((فان لم تستطع فقم فى وسطها ، فان لم تستطع فقم فى أولها)) .

((فصل أربع ركعات تقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس . والركعة الثانية بفاتحة الكتاب و ((حم)) ــ الدخان ــ وفى الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب و ((الم تنزيل)) ــ السجدة ــ وفى الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك المفصل . فاذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء على الله وصل على وأحسن وعلى سائر النبيين واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولاخوانك الذين سبقوك بالايمان)) .

((ثم قل فى آخر ذلك : اللهم ارحمنى بترك المعاصى ابدا ما أبقيتنى ، وارحمنى ان أتكلف ما لا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى)) .

« اللهم بديع السموات والأرض ياذا الجلال والاكرام والعزة التى لا ترام : اسالك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك ان تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى » .

« اللهم بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام والعزة التى لا ترام . أسالك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك ان تنور بكتابك بصرى وان تطلق به لسانى وأن تفرج به عن قلبى وان تشرح به صدرى ، وان تعمل به بدنى لانه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتينيه الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

« يا أبا الحسن فافعل ذلك ثلاث جمع او خمسا او سبعا تجاب باذن الله ، والذى بعثنى بالحق ما أخطأ مؤمنا قط » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : « فوالله ما لبث على الا خمسا او سبعا حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل ذلك المجلس فقال : يا رسول الله انى كنت فيما خلا لا آخذ الا أربع آيات أو نحوهن واذا قرأتهن على نفسى تفلتن . وأنا اليوم اتعلم اربعين آية أو نحوها واذا قرأتها على نفسى فكأنما كتاب الله بين عينى .

ولقد كنت اسمع الحديث فاذا رددته تفلت . وأنا اليوم أسمع **الأحاديث فاذا تحدثت بها لم اخرم منها حرفا .**

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « **مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن ...** » (١) .

---

(١) هذا الحديث : رواه الترمذى (رقم ٣٤٧٠) عن أحمد بن الحسن ؛ عن سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى ، عن « الوليد بن مسلم » عن ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس . وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث « الوليد » .

* ورواه « الحاكم » من طريق الترمذى وقال : « صحيح على شرط الشيخين !! » وهذا من تساهله .

* ورواه ايضا « الدارقطنى » عن طريق الوليد ايضا . وفى اسانيده كلام طويل .

* راجع « الترغيب » للمنذرى (٢/٢٦٠) ؛ وتحفة الذاكرين للشوكانى : (١٦٠) « والفوائد .. » له ؛ و « اللآلىء .. » للسيوطى : (٢/٦٦) ؛ واصله لابن الجوزى (٢/١٣٨) ، و « فضائل القرآن » لابن كثير فى آخر التفسير ص ٥٦ .

الفصل الحادي عشر

((من علوم القرآن))

١ ــ المحـــكم والمتشابه

٢ ــ العـــام والخاص

٣ ــ المطـــلق والمقيـــد

٤ ــ المنطـــوق والمفهـــوم

٥ ــ جـــدل القـــرآن

– ١ –

المحكم والمتشابه

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، فرسم للخلق العقيدة السليمة والمبادىء القويمة فى آيات بينات واضحة المعالم ، وذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم ويتبين لهم الصراط المستقيم ، وتلك الآيات هى أم الكتاب التى لا يقع الاختلاف فى فهمها سلامة لوحدة الأمة الإسلامية وصيانة لكيانها (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ٣ – فصلت) .

وقد تأتى هذه الأصول الدينية فى أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحداً ، فيشبه بعضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقض ، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن فى آياتها من العموم والاشتباه ما يفسح المجال أمام المجتهدين الراسخين فى العلم ، حتى يردوها إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول ، والجزئيات على الكليات وإن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى – وبهذا الإحكام فى الأصول والعموم فى الفروع كان الاسلام دين الإنسانية الخالد الذى يكفل لها خير الدنيا والآخرة على مر العصور والأزمان[١] .

من تفسير القرآن الكريم

فسرت الجزء الثالث من القرآن الكريم ، وهو يشمل آخر سورة البقرة وصدر سورة آل عمران ، وطبعته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨٢ م ووجدت فيه تفسيراً للآية السابقة من سورة آل عمران ، التى تتحدث عن المحكم والمتشابه ، وهذه هى الآية مع تفسيرها .

---

(١) راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الأسلام ابن تيمية عن المحكم والمتشابه والتأويل فى التدمرية وغيرها من رسائله .

قال تعالى :

(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله — إلا الله والرسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب)

المفـــردات

محكمـــات : واضحـــات

متشابهـــات : محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها فاشتبه أمرها على الناس .

زيـــغ : ميل عن الحق إلى الباطل .

ابتغاء الفتنـــة : طلبـــا لهـــا .

الراسخون فى العلم : الثابتـــون فيـــه .

الألبـــــاب : العقول الخالصة .

المعنى العام للآية :

هو الذى أنزل عليك القرآن وكان من حكمته أن جعل منه آيات محكمات محددة المعنى بينة المقاصد ، هى الأصل وإليها المرجع ، وأخر متشابهات يدق معناها على أذهان كثير من الناس، وتشتبه على الراسخين فى العلم وقد نزلت هذه المتشابهات لتبعث العلماء على العلم والنظر ودقة الفكر فى الاجتهاد ، وفى البحث فى الدين .

وشأن الزائغين عن الحق أن يتبعوا ما تشابه من القرآن ، رغبة فى إثارة الفتنة ، وهم يؤولون الآيات حسب أهوائهم ، وهذه الآيات لا يعلم تأويلها الحق إلا الله ، والذين تثبتوا فى العلم وتمكنوا منه ، وأولئك المتمكنون منه يقولون : إننا نوقن بأن ذلك من عند الله ، لا نفرق فى الإيمان بالقرآن بين

محكمه ومتشابهه ، وما يعقل ذلك إلا أصحاب العقول السليمة التى لا تخضع للهوى والشهوة .

ويتعلق بتفسير الآية ما يأتى :

١ ــ المحكم والمتشابه

المحكمات :

من أحكم الشىء بمعنى وثقه واتقنه ، والمعنى العام لهذه المادة المنع فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ، ومنه الحكم والحكمة ، وحكمة الفرس ، قيل وهى أصل المادة .

والمتشابه :

يطلق فى اللغة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً ، وعلى مايشتبه من الأمر أى يلتبس قال فى الأساس (وتشابه الشيئان ، واشتبها ، وشبهته به . وشبهته إياه واشتبهت الأمور وتشابهت : التبست لإشباه بعضها بعضاً ، وفى القرآن المحكم والمتشابه) .

٢ ــ آراء العلماء فى المحكم

(أ) هو الحلال والحرام . . . روى عن ابن عباس ومجاهد .

(ب) هو ما علم العلماء وتأويله .

(حـ) هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان .

(د) هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً .

(هـ) هو الأمر والنهى والوعد والوعيد والحلال والحرام .

(و) عن ابن مسعود : قال أنزل القرآن على خمسة أوجه :

حرام وحلال ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال ، فأحل الحلال ، وحرم الحرام ، وآمن بالمتشابه ، واعمل بالمحكم واعتبر بالأمثال .

(ز) قال ابن عباس (هن أم الكتاب) هن أصل الكتاب اللاتى يعول عليهن فى الأحكام ومجمع الحلال والحرام .

٣ ـ آراء العلماء فى المتشابه

(أ) هو ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة .

(ب) هو الحروف المقطعة فى فواتح السور كقوله (الم) ونحو ذلك .

وقد جاء فى تفسير المنار أن المفسرين قد اختلفوا فى المحكم والمتشابه على أقوال :

(أحدهما) أن المحكمات هى قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً . . . » « الأنعام ١٥١ » إلى آخر الآية والآيتين اللتين بعدها(١) والمتشابهات هى التى تشابهت على اليهود وهى أسماء حروف الهجاء المذكور فى أوائل السور .

(ثانيها) أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ .

(ثالثها) أن المحكم ما كان دليله واضحاً لائحاً كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما يحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل .

(ورابعها) أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفى ، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال(٢) .

---

(١) نص الآيات هو : (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون (١٥١) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون (١٥٢) وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

«سورة الأنعام ١٥١ ــ ١٥٣»

(٢) تفسير المنار : ٢ ــ ١٣٦ وهذه الأربعة ذكرها الرازى فى تفسيره .

٤ ـ الوقف والوصل

فى قوله تعالى :

(وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) .

للعلماء فى تفسير هذه الآية رأيان:

١ ـ رأى بعض السلف وهو الوقوف على لفظ الجلالة ، وجعل قوله « والراسخون فى العلم » كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

(أ) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله .

(ب) أن قوله « يقولون آمنا به كل من عند ربنا » ظاهر فى التسليم المحض لله تعالى ومن عرف الشيء وفهمه لايعبر عنه بما يدل على التسليم المحض .

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كأبى بن كعب وعائشة .

٢ ـ ويرى بعض آخرون الوقوف على لفظ (العلم) ، ويجعل قوله : (يقولون آمنا) كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين فى العلم ، أنا أعلم تأويله .

وردوا على أدلة الأولين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة ، والراسخون فى العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذى لا اضطراب فيه ، فالله يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم(١) ويشهد لصحة هذا الرأى أمران :

---

(١) تفسير المراغى : ٣ ـ ١٠٠ .

أحدهما : أن الله تعالى ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ، فلا ينبغى أن يكون فيه ألغاز ومعميات لا يمكن فهمها وإدراكها، فتشابهه يجب أن يرد إلى محكمه كما قال تعالى « هن أم الكتاب » : أى مرجعه عند الاشتباه .

وثانيهما : أن الله تعالى أثنى على الراسخين فى العلم بقوله : « وما يذكر إلا أولو الألباب » ففى وصفهم بأنهم أصحاب العقول الخالصة المتذكرة دليل على أنهم استعملوها فى كشف المتشابهات والتذكر بها .

الحكمة فى وجود المتشابه

(أ) امتحان قلوب المؤمنين فى التصديق به .

(ب) هو حافز للعقول إلى النظر فيه .

(جـ) البحث عن المتشابه ومحاولة فهمه من حظ الخاصة كما أن التسليم والتفويض من حظ العامة .

قال الزمخشرى : فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟

قلت : لو كان كله محكما لتعلق الناس به ، لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك ، لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به[1] .

ولما فى المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فى تقادح العلماء وإتعاب القرائح فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم ، من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجمة ، ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ولا اختلاف فيه — إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره — وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحدة ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم — ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة إيمانه . . . اهـ .

---

(١) وهو التفكر العقلى والتدبر فى الآيات .

٦ ــ زعم التناقض

زعم النصارى أن القرآن فيه تناقض حين نفى بنوة عيسى لله ، ثم أثبتها حين ذكر أنه روح منه ، وهذا زيغ منهم يبتغون به الفتنة ، فإن المراد من قوله « وروح منه » أنه صادر من الله ، فكما أن كل شيء صادر من الله بالخلق والإبداع ، فكذلك روح عيسى ، وصدق الله إذ يقول : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

سورة الإخلاص / ٣ ــ ٤ .

٧ ــ صفات الله

جاء فى القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن لله وجها ويدين وجهة هى السماء ومكانا هو العرش ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسمية والانتقال ، وآيات أخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها .

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بأنه لا تدركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى .

فرأى رجال السلف الصالح متابعة الصحابة والتابعين فى موقفهم منها .

« فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها ، وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل »(١) وقد سئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فقال : « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة »(٢) .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى تفسير سورة آل عمران :

ونشأت المشكلة : حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت

---

(١) د. عبد الله شحاته ، علوم القرآن والتفسير ، دار الاعتصام : ص٢٨٥ .

(٢) الملل والنحل : ١ ــ ١١٨ .

فى القرآن الكريم ، والتى توهم التشبيه ، كاليد والوجه والاستواء ،أو التى وردت فى الأحاديث : كالنزول والصورة ، والأصابع .

بدأت المشكلة : حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها ؛ : تأويلا لها ، أو نفياً لمعناها ، أو تفسيراً أو شرحا . . . . . . والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن تجاه كلمات الصورة واليد والنزول ، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها ، وليس معنى ذلك ، أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته : مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله — صلى الله عليه وسلم — فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده — وعلى الوجه الذى قال ، وأن لا يحاول لها تفسيراً ولا تأويلا .

وشعار السلف معروف فى هذه الكلمات وهو :

« أمروها كما جاءت » — يقول الإمام الرازى فى كتابه (أساس التقديس) : « إن هذه المتشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها ، شيء غير ظواهرها ، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها » .

إن الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة ، قاطعة الدلالة مدركة المقاصد وهى أصل هذا الكتاب .

والذين فى قلوبهم زيغ ، يتركون الأصول الواضحة ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالا لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بلبلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله ، وأما الراسخون فى العلم فيقولون فى طمأنينة وثقة «آمنا به كل من عند ربنا » أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد .

روى الإمام أحمد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سمع قوماً يتدارسون فقال : (إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به ؛ وما جهلتم فكلوه إلى عالمه)(١) .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير .. تحقيق محمد على الصابونى : ١ – ٢٢٦ .

— ٢ —

العام والخاص

للنظم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف إليها ، وقد يجتمع للحكم التشريعى خصائص تجعله عاماً يشمل كل الأفراد ، أو ينطبق على جميع الحالات ، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتى ما يبين حده أو يحصر نطاقه ، والبيان العربى فى تلوين الخطاب وبيان المقاصد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة واتساع مادتها . فإذا ورد هذا فى كلام الله المعجز كان وقعه فى النفس عنوان إعجاز تشريعى مع الإعجاز اللغوى .

تعريف العام وصيغ العموم

العام : هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر ، وله صيغ تدل عليه :

منها « كل » كقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت ١٨٥ — آل عمران) وقوله (الله خالق كل شيء ١٠٢ — الأنعام) ومثلها جميع .

ومنها المعرف بأل التى ليست للعهد كقوله (والعصر ، إن الانسان لفى خسر ١ ، ٢ — العصر) أى كل إنسان ، بدليل قوله بعد (إلا الذين آمنوا ٣ — العصر) وقوله (وأحل الله البيع ٢٧٥ — البقرة) وقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٣٨ — المائدة) .

ومنها : **النكرة فى سياق النفى والنهى** : كقوله (فلا رفث ولا فسوق ولاجدال فى الحج ١٩٧ — البقرة) وقوله (فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ٢٣ — الإسراء) فى سياق الشرط كقوله (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ٦ — براءة) .

ومنها : الذى والتى وفروعهما : كقوله (والذى قال لوالديه أف لكما ١٧ — الأحقاف) . أى كل من قال ذلك بدليل قوله بعد بصيغة الجمع (أولئك الذين حق عليهم القول ١٨ — الأحقاف) وقوله (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ١٦ — النساء) وقوله (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ٤ — الطلاق) .

وأسماء الشرط : كقوله تعالى (فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ١٥٨ — البقرة) للعموم فى العاقل ، وقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله ١٩٧ — البقرة) للعموم فى غير العاقل ، وقوله (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ١٥٠ — البقرة) للعموم فى المكان ، وقوله (أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ١١٠ — الإسراء) .

ومنها : اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره ٦٣ — النور) أى كل أمر لله ، وقوله (يوصيكم الله فى أولادكم ١١ — النساء) .

أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام :

الأول : الباقى على عمومه ، وقد قال القاضى جلال الدين البلقينى[1] :

« ومثاله عزيز ، إذما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص ، وذكر الزركشى فى « البرهان » أنه كثير فى القرآن . وأورد منه قوله تعالى (والله بكل شىء عليم ١٧٦ — النساء) وقوله (ولا يظلم ربك أحداً ٤٩ — الكهف) وقوله (حرمت عليكم أمهاتكم ٢٣ — النساء) فإنه لا خصوص فيها .

---

(١) هو عبد الرحمن بن رسلان ، أبو الفضل جلال الدين البلقينى ، كان عالماً بارعاً فى الفقه والتفسير وأصول العربية ، وله تعليق سماه : «الإفهام لما فى صحيح البخارى من الإبهام» تولى القضاء فى مصر ، وتوفى سنة ٨٢٤هـ وانظر الإتقان ، صفحة ١٦ ج٢ .

الثانى : العام المراد به الخصوص – كقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ١٧٣ – آل عمران) فالمراد بالناس الأولى نعيم ابن مسعود ، والمراد بالناس الثانية أبو سفيان لا العموم فى كل منهما ، يدل على هذا قوله تعالى بعد (إنما ذلكم الشيطان) فوقعت الإشارة بقوله (ذلكم) إلى واحد بعينه ، ولو كان المعنى به جميعاً لقال (إنما أولئكم الشيطان) وكقوله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ٣٩ – آل عمران) والمنادى جبرائيل كما فى قراءة ابن مسعود وقوله (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ١٩٩ – البقرة) والمراد بالناس ابراهيم ، أو سائر العرب غير قريش .

الثالث : العام المخصوص – وأمثلته فى القرآن كثيرة جداً وستأتى :

ومنه قوله تعالى (وكلو واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ١٨٧ – البقرة) وقوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ٩٧ – آل عمران) .

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه ، أهمها : –

١ – أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر ، لا من جهة تناول اللفظ ، ولا من جهة الحكم ، بل هو ذو أفراد استعمل فى فرد واحد منها أو أكثر .

أما العام المخصوص فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم ، فالناس فى قوله (الذين قال لهم الناس) وإن كان عاماً إلا أنه لم يرد به لفظاً وحكماً سوى فرد واحد ، أما لفظ الناس فى قوله (ولله على الناس حج البيت) فهو عام أريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد . وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة .

٢ ـ والأول مجاز قطعاً ، لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلى واستعماله فى بعض أفراده ، بخلاف الثانى فالأصح فيه أنه حقيقة ، وعليه أكثر الشافعية وكثير من الحنفية ، وجميع الحنابلة ، ونقله إمام الحرمين(١) عن جميع الفقهاء وقال الشيخ أبو حامد الغزالى : إنه مذهب الشافعى وأصحابه ، وصححه السبكى لأن تناول اللفظ للبعض الباقى بعد التخصيص كتناوله له بلا تخصيص ، وذلك التناول حقيقى اتفاقاً ، فليكن هذا التناول حقيقياً أيضاً .

٣ ـ وقرينة الأول عقلية غالباً ولا تنفك عنه ، وقرينة الثانى لفظية وقد تنفك عنه فى المخصص المنفصل .

تعريف الخاص وبيان المخصص

والخاص : **يقابل العام ،فهو الذى لايستغرق الصالح له من غير حصر .** والتخصيص : هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام ، **والمخصص : إما متصل :** وهو الذى لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل ، وإما منفصل : وهو بخلافه ، والمتصل خمسة : أحدها : الاستثناء ، كقوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا ٤ ، ٥ ـ النور) وقوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ٣٣ ـ ٣٤ ـ المائدة) .

الثانى : الصفة : كقوله تعالى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ٢٣ ـ النساء) فقوله (اللاتى دخلتم بهن) صفة لنسائكم ،

---

(١) إمام الحرمين ، هو عبد الملك بن أبى عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى الشافعى العراقى ، أبو المعالى ، كان شيخ الإمام الغزالى ، ومن أعلم أصحاب الشافعى ، توفى سنة ٤٧٨ هجرية .

والمعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها .

الثالث : الشرط : كقوله (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ١٨٠ — البقرة) فقوله (إن ترك خيراً) أى مالا ، شرط فى الوصية ، وقوله (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ٣٣ — النور) أى قدرة على الأداء ، أو أمانة وكسباً .

الرابع : الغاية : كقوله (ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله ١٩٦ — البقرة) وقوله (ولا تقربوهن حتى يطهرن ٢٢٢ — البقرة) .

الخامس : بدل البعض من الكل : كقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ٩٧ — آل عمران) فقوله (من استطاع) بدل من الناس ، فيكون وجوب الحج خاصاً بالمستطيع .

والمخصص المنفصل : ماكان فى موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس . فما خص بالقرآن كقوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ٢٢٨ — البقرة) فهو عام فى كل مطلقة حاملا كانت أو غير حامل ، مدخولا بها أو غير مدخول بها ، خص بقوله (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ٤ — الطلاق) وبقوله (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة ٤٩ — الأحزاب) .

وما خص بالحديث كقوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا ٢٧٥ — البقرة) خص من البيوع الفاسدة التى ذكرت فى الحديث ، كما فى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل » وفى الصحيحين عن ابن عمر : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع حبل الحبلة » وكان بيعاً تبتاعه الجاهلية ، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التى فى بطنها » — واللفظ للبخارى ، إلى غير ذلك من الأحاديث .

ورخص من الربا العرايا الثابتة بالسنة فإنها مباحة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فى بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو فى خمسة أوسق »(١) .

وما خص بالإجماع آية المواريث (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ١١ — النساء) خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث .

وما خص بالقياس آية الزنا (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ٢ — النور) خص منها العبد بالقياس على الأمة التى نص على تخصيصها عموم الآية فى قوله تعالى (فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ٢٥ — النساء) .

تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السنة ، ويمثلون لذلك بما روى عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميت(٢) » فهذا الحديث خص بقوله تعالى (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ٨٠ — النحل) .

ما يشمله الخطاب

اختلف فى الخطاب الخاص بالرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى (يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ١ — الأحزاب) وقوله (يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ٤١ — المائدة) هل يشمل الأمة أم لا يشملها ؟

---

(١) متفق عليه ، والعرية النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجاً فيجعل له ثمرها عامها وفى الحديث أنه رخص فى العرايا بعد نهيه عن المزابنة لأنه ربما تأذى بدخوله عليه فيحتاج إلى أن يشتريها منه بثمن فرخص له فى ذلك .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذى وحسنه .

أ ــ فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها .

ب ــ وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها .

واختلفوا أيضاً فى الخطاب من الله تعالى بيأيها الناس كقوله (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ١ــ النساء) هل يشمل الرسول أم لا ؟ والصحيح فى ذلك أنه يشمله لعمومه وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليبلغ غيره .

وقد فصل بعضهم فقال : إن اقترن الخطاب بقل لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ١٥٨ــالأعراف) وإلا شمله .

وما ورد من الخطاب مضافاً إلى الناس أو المؤمنين كقوله (يأيها الناس إنا خلقناكم مـــن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ١٣ــ الحجرات) وقوله (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ٩٠ المائدة) .

فالمختار فى الأول أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى

والمختار فى الثانى أنه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع ، وخروج العبـــد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده .

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير . وأكثر خطاب الله تعالى فى القرآن بلفظ التذكير ، والنساء يدخلن فى جملته . وقد يأتى ذكرهن بلفظ مفرد تبييناً وإيضاحاً . وهذا لا يمنع دخولهن فى اللفظ العام الصالح لهن ، كما جاء فى قوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ١٢٤ــ النساء) .

- ٣ -

المطلق والمقيد

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقاً فى فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط ، ويرد تارة أخرى متناولا له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط ، وإطلاق اللفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربى ، وهو ما يعرف فى كتاب الله المعجز « بمطلق القرآن ومقيده » .

تعريف المطلق والمقيد

والمطلق : هو ما دل على الحقيقة بلا قيد ، فهو يتناول واحداً لا بعينه من الحقيقة ، وأكثر مواضعه النكرة فى الإثبات كلفظ (رقبة) فى مثل (فتحرير رقبة) فإنه يتناول عتق إنسان مملوك – وهو شائع فى جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء – وهو نكرة فى الإثبات ، لأن المعنى : فعليه رقبة ، وكقوله عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولى » رواه أحمد والأربعة . وهو مطلق فى جنس الأولياء سواء كان رشيداً أو غير رشيد .

والمقيد : هو مادل على الحقيقة بقيد ، كالرقبة المقيدة بالإيمان فى قوله (فتحرير رقبة مؤمنة) .

أقسام المطلق والمقيد وحكم كل منها :

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيما يلى :

١ – **أن يتحد السبب والحكم :** كالصيام فى كفارة اليمين : جاء مطلقاً فى القراءة المتواترة بالمصحف (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ٨٩–المائدة) ومقيداً بالتتابع فى قراءة ابن مسعود (فصيام

ثلاثة أيام متتابعات) — فمثل هذا يحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا يوجب المتنافيين — ولهذا قال قوم بالتتابع[1] ، وخالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة — وإن كانت مشهورة — ليست حجة ، فليس هنا مقيد حتى يحمل عليه المطلق .

٢ — أن يتحد السبب ويختلف الحكم : كالأيدى فى الوضوء والتيمم . قيد غسل الأيدى فى الوضوء بأنه إلى المرافق ، قال تعالى « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ٦—المائدة) وأطلق المسح فى التيمم قال تعالى (فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ٦—المائدة) فقيل لا يحمل المطلق لاختلاف الحكم . ونقل الغزالى عن أكثر الشافعية حمل المطلق على المقيد هنا لإتحاد السبب وإن اختلف الحكم .

٣ — أن يختلف السبب ويتحد الحكم : وفى هذا صورتان :

أ — الأولى : أن يكون التقييد واحداً . كعتق الرقبة فى الكفارة ، ورد اشتراط الإيمان فى الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة فى كفارة القتل الخطأ ، قال تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ٩٢—النساء) وأطلقت فى كفارة الظهار ، قال تعالى (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ٣ — المجادلة) وفى كفارة اليمين ، قال تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ٨٩— المائدة) فقال جماعة منهم المالكية وكثير من الشافعية بحمل المطلق على المقيد ، فلا تجزئ الرقبة الكافرة فى كفارة الظهار واليمين ، وقال آخرون — وهو مذهب الأحناف — لا يحمل المطلق على المقيد ، فيجوز إعتاق الكافرة فى كفارة الظهار واليمين .

---

(١) وبه قال أبو حنيفة والثورى ، وهو أحد قولى الشافعى .

ب ــ **الثانية** : أن يكون التقييد مختلفاً ، كالكفارة بالصوم ، قيد الصوم بالتتابع فى كفارة القتل ، قال تعالى (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ٩٢ــالمائدة) وفى كفارة الظهار ، قال تعالى (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ٣ ــ المجادلة) وجاء تقييده بالتفريق فى صوم المتمتع بالحج . قال تعالى (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ١٨٦ــالبقرة) ثم جاء الصوم مطلقاً دون تقييد بالتتابع أو التفريق فى كفارة اليمين قال تعالى (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ٨٩ــالمائدة) وفى قضاء رمضان قال تعالى (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ١٨٤ــالبقرة) فالمطلق فى هذا لا يحمل على المقيد . لأن القيد مختلف فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح .

٤ ــ **أن يختلف السبب ويختلف الحكم** :ــ كاليد فى الوضوء . والسرقة قيدت فى الوضوء إلى المرافق ، وأطلقت فى السرقة . قال تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٣٨ــالمائدة) فلا يحمل المطلق على المقيد للاختلاف سبباً وحكماً ، وليس فى هذا شئ من التعارض .

— ٤ —

المنطوق والمفهوم

دلالة الألفاظ على المعانى قد يكون مأخذها من منطوق الكلام الملفوظ به نصاً أو احتمالا بتقدير أو غير تقدير ، وقد يكون مأخذها من مفهوم الكلام سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه — وهذا هو ما يسمى : بالمنطوق والمفهوم .

تعريف المنطوق وأقسامه

المنطوق : هو ما دل عليه اللفظ فى محل النطق — أى أن دلالته تكون من مادة الحروف التى ينطق بها .

ومنه : النص ، والظاهر ، والمؤول :

فالنص : هو ما يفيد بنفسه معنى صريحاً لا يحتمل غيره . كقوله تعالى (فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ١٩٦—البقرة) فإن وصف عشرة بكاملة قطع احتمال العشرة لما دونها مجازاً . وهذا هو الغرض من النص — وقد نقل عن قوم أنهم قالوا بندرة النص جدا فى الكتاب والسنة ، وبالغ إمام الحرمين فى الرد عليهم فقال : « لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على القطع مع انحسام جهات التأويل والاحتمال ، وهذا وإن عز حصوله بوضع الصيغ ردا إلى اللغة ، فما أكثره مع القرائن الحالية والمقالية » .

والظاهر : هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره إحتمالا مرجوحاً ، فهو يشترك مع النص فى أن دلالته فى محل النطق ، ويختلف عنه فى أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره ، والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق

مع احتمال غيره احتمالا مرجوحاً كقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد ١٧٣ــالبقرة) فإن الباغى يطلق على الجاهل . ويطلق على الظالم ، ولكن إطلاقه على الظالم أظهر وأغلب فهو إطلاق راجح ، والأول مرجوح ، وكقوله (ولا تقربوهن حتى يطهرن ٢٢٢ ــ البقرة) فانقطاع الحيض يقال فيه طهر ، والوضوء والغسل يقال فيهما طهر ، ودلالة الطهر على الثانى أظهر ، فهى دلالة راجحة ، والأرلى مرجوحة .

والمؤول: هو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح ، فهو يخالف الظاهر فى أن الظاهر يحمل على المعنى الراجح حيث لا دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح ، أما المؤول فإنه يحمل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح . وإن كان كل منهما يدل عليه اللفظ فى محل النطق ، كقوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ٢٤ــالإسراء) فإنه محمول على الخضوع والتواضع وحسن معاملة الوالدين . لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة .

دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة

قد تتوقف صحة دلالة اللفظ على إضمار ، وتسمى بدلالة الاقتضاء ، وقد لا تتوقف على إضمار ويدل اللفظ على ما يقصد به قصداً أولياً ، وتسمى دلالة الإشارة :

فالأول : كقوله تعالى (فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ١٨٤ــالبقرة) . أى فأفطر فعدة . لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر فى سفره ، أما إذا صام فى سفره فلا موجب للقضاء خلافاً للظاهرية ، وكقوله تعالى (حرمت عليكم أمهاتكم ٢٣ــالنساء) فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه ، أى وطء أمهاتكم ، لأن التحريم لا يضاف إلى الأعيان ، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء ، وهذا النوع يقرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وهو من باب إيجاز القصر فى البلاغة ــ وسمى اقتضاء الكلام شيئاً زائداً على اللفظ .

والثانى : وهو دلالة الإشارة — كقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ١٨٧—البقرة) فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنباً — لأنه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل ، وهذا يستلزم الإصباح على جنابة ، وإباحة سبب الشئ نفسه ، فإباحة الجماع إلى آخر جزء من الليل لا يتسع معه الغسل قبل الفجر إباحة للإصباح على جنابة .

وهاتان الدلالتان — الاقتضاء والإشارة — أخذا من المنطوق أيضاً ، فهما من أقسام المنطوق ، فالمنطوق على هذا يشمل ١ — النص ، ٢ — والظاهر ٣ — والمؤول ٤ — والاقتضاء ٥ — والإشارة .

تعريف المفهوم وأقسامه

المفهوم : — هو ما دل عليه اللفظ لا فى محل النطق — وهو قسمان ١ — مفهوم موافقة ٢ — مفهوم مخالفة .

١ — **فمفهوم الموافقة :** هو ما يوافق حكمه المنطوق — وهو نوعان :

أ — **النوع الأول : فحوى الخطاب :** — وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق ، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالى (فلا تقل لهما أف ٢٣—الإسراء) لأن منطوق الآية تحريم التأفيف ، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى لأنهما أشد .

ب — **النوع الثانى : لحن الخطاب :** وهو ما ثبت الحكم فيه للمفهوم كثبوته للمنطوق على السواء — كدلالة قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ١٠—النساء) على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأى نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل فى الإتلاف .

وتسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن المسكوت عنه يوافق المنطوق فى الحكم وإن زاد عليه فى النوع الأول ، وساواه فى الثانى .

٢ ــ مفهوم المخالفة : هو ما يخالف حكمه المنطوق ــ وهو أنواع : ــ

أ ــ مفهوم صفة : والمراد بها الصفة المعنوية ، كالمشتق : فى قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ٦ــالحجرات) فمفهوم التعبير بفاسق أن غير الفاسق لا يجب التثبت فى خبره ، ومعنى هذا أنه يجب قبول خبر الواحد العدل . وكالحال : ــ فى قوله (يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم ٩٥ــالمائدة) فهو يدل على انتفاء الحكم فى المخطئ ، لأن تخصيص العمد بوجوب الجزاء به يدل على نفى وجوب الجزاء فى قتل الصيد خطأ . وكالعدد : ــ فى قوله (الحج أشهر معلومات ١٩٧ــالبقرة) مفهومه أن الإحرام بالحج فى غير أشهره لا يصح ، وقوله (فاجلدوهم ثمانين جلدة ٤ ــ النور) مفهومه ألا يجلد أقل أو أكثر .

ب : مفهوم شرط : ــ كقوله تعالى (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن ٦ــالطلاق) فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن .

حـ : مفهوم غاية : ــكقوله تعالى (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ٢٣٠ــالبقرة) فمفهوم هذا أنها تحل للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح .

د : مفهوم حصر : ــ كقوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين ــ ٥ الفاتحة) مفهومه أن غيره سبحانه لا يعبد ولا يستعان به ، ولذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة والاستعانة .

الاختلاف فى الاحتجاج به

اختلف فى الاحتجاج بهذه المفاهيم ، والأصح فى ذلك أنها حجة بشروط منها : ــ

ا – ألا يكون المذكور خرج مخرج الغالب – فلا مفهوم للحجور فى قوله تعالى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم ٢٣–النساء) ، لأن الغالب كون الربائب فى حجور الأزواج .

ب – ومنها ألا يكون المذكور لبيان الواقع – فلا مفهوم لقوله (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ١١٧ – المؤمنون) لأن الواقع أن أى إله لا برهان عليه ، وقوله (لا برهان له به) صفة لازمة جئ بها للتوكيد والتهكم بمدعى إله مع الله لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان– ومثله قوله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ٣٣ – النور) فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم ترد التحصن ، وإنما قال (إن أردن تحصناً) لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن . وعن جابر بن عبد الله قال : « كان عبد الله بن أبى يقول لجارية له : اذهبى فابغينا شيئاً ، وكانت كارهة ، فأنزل الله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) وعن جابر أيضاً : « أن جارية لعبد الله بن أبى ، يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة . فكان يريدهما على الزنى . فشكتا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله (ولا تكرهوا فتياتكم) الآية(١) .

(١) أخرجه مسلم وغيره .

— ٥ —

جــدل القرآن

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يحتاج إلى برهان على ثبوتها ، أو دليل على صحتها . ولكن المكابرة كثيراً ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق ، وتزينها فى مرآة العقل ، فهى فى حاجة إلى مقارعتها بالحجة ، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت . والقرآن الكريم — وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة — وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله . فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم فى أسلوب مقنع ، واستدلال ملزم ، وجدل محكم .

تعريف الجدل

الجدل والجدال : — المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لألزام الخصم ، أصله من جدلت الحبل : أى أحكمت فتله ، فالكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه .

وقد ذكره الله فى القرآن على أنه من طبيعة الإنسان فى قوله (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا ٥٤ — الكهف) أى خصومة ومنازعة .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التى تلين عريكتهم فى قوله (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ١٢٥ — النحل) .

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة فى قوله (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ٤٦ — العنكبوت) .

ومثل هذا من قبيل المناظرة التى تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ، وهى الطريقة التى يشتمل عليها جدل القرآن فى هداية الكافرين وإلزام المعاندين . بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة ، قال تعالى (ويجادل الذين كفروا بالباطل ٥٦ — الكهف) .

طريقة القرآن فى المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التى حاج بها خصومه فى صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع فى أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لايحتاج إلى عمل عقل أو كثير بحث .

ولم يسلك القرآن فى الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية فى المقدمات والنتائج التى يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلى على الجزئى فى قياس الشمول ، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر فى قياس التمثيل ، أو الاستدلال بالجزئى على الكلى فى قياس الاستقراء .

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون .

(ب) ولأن الاعتماد فى الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكرى عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة(١) .

(ج) ولأن ترك الجلى من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفى نوع من من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة ، وهو على طريقة المناطقة ليس سليما من كل وجه ، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة فى القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية : قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه (الرد على المنطقيين) : « وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التى يسمونها براهين على إثبات الصانع

---

(١) مناع القطان : مباحث فى علوم القرآن .

سبحانه وتعالى أيدل شيء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلى لايمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإنا إذا قلنا : هذا محدث ، وكل محدث فلا بد له من محدث . أو ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق . . . لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » . . . وقال : « فبرهانهم لايدل على شيء معين بخصوصه لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلى ، والكلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله » . . . وقال : « وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات فى كتابه ، كقوله : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار — إلى قوله — لقوم يعقلون ١٦٤ — البقرة) وقوله (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، لقوم يتفكرون) وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التى هى آية النهار ... وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ١٢ — الإسراء) فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه ، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه .

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولى أو تمثيلى ، بل هى مستلزمة لمدلولها ، عيناً ، والعلم بها مستلزم بالمدلول ، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها ، وهذا النوع من الاستدلال بدهى يستوى فى إدراكه كل العقول .

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه فى ألوهيته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر — وهذا النوع كثير فى القرآن .

فمنه قوله تعالى (يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون — إلى قوله — فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ٢١ ، ٢٢ — البقرة) وقوله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم — إلى قوله — لآيات لقوم يعقلون ١٦٣—١٦٤ — البقرة) .

(ب) ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد ، ولهذا صور مختلفة :

١ — منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التى يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود الخالق فى مثل قوله تعالى (أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون — إلى قوله — سبحان الله عما يشركون ٣٥—٤٣ — الطور) .

٢ — الاستدلال بالمبدأ على المعاد . كقوله تعالى (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ١٥—ق) وقوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ٣٦—٤٠ ، القيامة) وقوله (فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ٥ : ٨ — الطارق) — ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإثبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى ٣٩ — فصلت) .

٣ — إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها — كقوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها

وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ٩١ — الأنعام) رداً على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ) .

٤ — السبر والتقسيم — بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم ، كقوله تعالى (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين — إلى قوله — إن الله لا يهدى القوم الظالمين ١٤٢—١٤٤ — الأنعام) .

٥ — إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد — كقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ١٠٠—١٠١ ، الأنعام) فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شئ واحد ، وأن التولد إنما يكون من اثنين ، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضاً فإنه خلق كل شئ ، وخلقه لكل شئ يناقض أن يتولد عنه شئ ، وهو بكل شئ عليم ، وعلمه بكل شئ يستلزم أن يكون فاعلا بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع ، فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التى يتولد عنها الأشياء بلا شعور — كالحار والبارد ، فلا يجوز إضافة الولد إليه(١) .

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمناظرة الأنبياء مع أممهم ، أو فريق المؤمنين مع المنافقين .

انظر إلى جدال ابراهيم مع قومه حين كسر الأصنام وناقشهم فى عبادتها وانتصر عليهم فى الجدال فألقوه فى النار فجعلها الله برداً وسلاماً عليه وقصته مع النمروذ فى الآية ٢٥٨ من سورة البقرة حيث يقول سبحانه (ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى

(١) هذه الفقرة (*) من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهى رائعة فى الاستدلال .

ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) .

والقرآن يلمس شغاف القلوب ، ويحركها للإيمان بالله ، ويسوق الأدلة التاريخية والعقلية والعاطفية والنفسية على صحة الإيمان بالله ، ويسلك كل سبيل لإقناع العقل وهداية القلب(١)،وفي سورة إبراهيم نجد نقاشاً بين الرسل وبين الكافرين ، وفي سورة البقرة نجد أدلة ملموسة على لسان العزير حين أماته الله مائة عام ثم بعثه ليكون دليلا على قدرته سبحانه على البعث والإحياء .

إن القرآن سلك كل طريق لإقناع الإنسان .

فمن ذلك عرضه لمشاهد الكون وآثار الحياة وحركة الليل والنهار والشمس والقمر

ومن ذلك عرضه قصص المرسلين وجدالهم مع قومهم كما نشاهده في قصة نوح مع قومه(٢) .

وقصة ابراهيم مع أبيه ، وقصة موسى مع فرعون حيث يقول سبحانه : (قال : فمن ربكما يا موسى ؟ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ، الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجامن نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى) سورة طه ٤٩ــ٥٤ .

---

(١) انظرا لآيات ٧٤ – ٨٧ من سورة الأنعام .

والآيات ٨٣ – ١١٣ من سورة الصافات وفيها يقول سبحانه : (فراغ إلى آلهتهم فقال .ألا تأكلون ، مالكم لا تنطقون ، فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فأقبلوا إليه يزفون ، قال أتعبدون ماتنحتون ، والله خلقكم وماتعملون ، قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ، فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين) .

(٢) قال تعالى في سورة نوح :

(افقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً مالكم لاترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) سورة نوح ١٠ – ٢٠ .

الفصـــل الثــانى عشر

النسخ فى القرآن الكريم

أ – تعريف النسخ

ب – من رسالة الدكتوراه :

النسخ عند مقاتل بن سليمان

الآيات المنسوخة عند مقاتل بن سليمان

جـ – ما لابد منه فى النسخ

مالا يقبل النسخ

د – النسخ بين منكريه ومثبتيه

هـ – الخضرى والنسخ

١ – ترتيب السور

٢ – من كتاب تاريخ القرآن للزنجانى

٣ – حفظ الله للقرآن

الترتيب التاريخى لابن عباس

٤ – علماؤنا وترتيب القرآن

أ ــ النسخ

النسخ لغة الإزالة يقال نسخت الشمس الظل أى أزالته ونسخت الريح أثر المشى أى أزالته ونسخ المشيب الشباب إذا أزاله والإزالة هى الإعـــدام ولهذا يقال زال عنه المرض والألم وزالت النعمة عن فلان ويراد بذلك الانعدام فى هذه الأشياء كلها .

وقيل النسخ لغة النقل والتحويل .

قال السجستانى من أهل اللغة والنسخ أن يحول ما فى الخلية من عسل ونحل إلى الأخرى ومن ذلك تناسخ المواريث أى انتقالها من قوم إلى قوم .

وقيل النسخ مشترك بين هذين المعنيين .

وقيل هو حقيقة فى الإزالة مجاز فى النقل .

أما النسخ اصطلاحاً فهو خطاب الشارع الرافع لحكم ثابت بخطاب شرعى سابق فالخطاب الرافع لابد وأن يكون متراخياً عن الخطاب الأول .

إثبات النسخ :

لم يخالف فى إثبات النسخ من أرباب الشرائع سوى اليهود كما لم يخالف فى إثباته أحد من المسلمين سوى أبى مسلم الأصفهانى فقد منع وقوعه فى القرآن وجوزه عقلا .

وقد احتج أبو مسلم على عدم وقوع النسخ فى القرآن بقوله تعالى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (١) فلو نسخ بعض القرآن لتطرق إليه البطلان وهذا محال لإخبار الله تعالى أنه لا يأتيه الباطل .

---

(١) سورة فصلت آية ٤٢ .

ويحتج على أبى مسلم فيما زعم بما يأتى .

(ا) قال تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) (١) .

(ب) قال تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) (٢) فإن هذه الآية من حيث الحكم وهو تقديم الصدقة حين مناجاة الرسول قد نسخ بقوله تعالى (فإذ لم تفعلوا وتاب عليكم) .

(ج) إن الصحابة والسلف أجمعوا على أن شريعة محمد ناسخة لجميع الشرائع السابقة وأجمعوا كذلك على نسخ التوجه إلى بيت المقدس باستقبال الكعبة وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان .

وكما احتج على أبى مسلم فيما زعم احتج على اليهود بما ورد فى التوراة من أن الله تعالى أمر آدم أن يزوج بناته من بنيه وقد حرم ذلك فى شريعة من بعده وما ورد فيها من أن الله أمر ابراهيم بذبح ابنه ثم قال له لا تذبح .

وعلى ضوء هذه الحجج الدامغة التى تثبت النسخ وتقره لا يسعنا إلا أن نقول بوقوعه وعدم اعتبار آراء المنكرين له لقيام الحجج والبراهين عليهم .

حكمة النسخ :

شرع الله النسخ مراعاة لمصالح الناس التى تعتبر المقصود الأول فى تشريع الأحكام فقد يشرع الله الحكم مراعياً فى ذلك مصلحة الناس ثم لا تلبث أن تزول تلك المصلحة فيكون المناسب والحالة هذه نسخ هذا الحكم لزوال المصلحة التى شرع من أجلها فقد روى أن وفوداً من المسلمين قدمت إلى المدينة فى أيام عيد الأضحى . فقصد الرسول صلى الله عليه وسلم التوسعة

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٦ .

(٢) سورة المجادلة آية ١٢ .

عليهم والمبالغة فى إكرامهم فنهى المسلمين عن ادخار لحوم الأضاحى ، فلما رجعت هذه الوفود إلى بلادهم أباح الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين الادخار بعد أن كان ممنوعاً لزوال المصلحة التى كان المنع لأجلها . قال صلى الله عليه وسلم « كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى من أجل الدافة التى دفت فكلوا وادخروا » .

ومن ذلك ما روى أن الصلاة شرعت أولا ركعتين فى الغداة وركعتين فى العشى رحمة بالناس لأنهم كانوا حديثى عهد بالإسلام فلما تمكن الإسلام من نفوسهم وتربع على عرش قلوبهم وتذوقوا حلاوته اقتضت المصلحة نسخ ذلك بفرض خمس صلوات فى أوقات مخصوصة بركعات محددة .

ب — من رسالة الدكتوراه

كانت رسالتى للدكتوراه بعنوان :

(مقاتل بن سليمان ومنهجه فى تفسير القرآن الكريم مع تحقيق تفسيره الكبير) وكان مقاتل بن سليمان من المفسرين المتقدمين الذين أكثروا من دعاوى النسخ فى القرآن الكريم ، ولذلك بحثت فى فصل من فصول الرسالة موضوع : (النسخ عند مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى سنة ١٥٠ هـ) وأرجوا أن أقدم لك جانباً من هذا الموضوع فى الفقرة التالية

١ ــ النسخ عند مقاتل بن سليمان البلخي
المتوفى سنة ١٥٠هـ

تمهيد :

كان الصحابة والتابعون وتابعوهم يستعملون النسخ بازاء المعنى اللغوى الذى هو إزالة شئ بشئ ــ لا بازاء مصطلح الأصوليين(١).

« فيطلقون النسخ على تقييد المطلق وعلى تخصيص العام وعلى بيان المبهم والمجمل ، كما يطلقونه على رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متأخر عنه»(٢).

فلما جاء الإمام الشافعى (١٥٠ــ٢٠٤هـ) حرر معنى النسخ وميزه عن تقييد المطلق وتخصيص العام واعتبرهما من أنواع البيان (٣) .

ومضى الأصوليون والمؤلفون فى الناسخ والمنسوخ على نهج الشافعى ، فعنى معظمهم ببيان الفروق بين النسخ وكل من التخصيص والتقييد والتفسير والتفصيل .

هذا أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ــ٣١٠هـ) يشير فى تفسيره(٤) (إلى أنه لا ناسخ من أى القرآن وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ما نفى حكما ثابتاً ألزم العباد فرضه ، غير محتمل بظاهره وباطنه غير ذلك . فأما إذا احتمل غير ذلك ــ من أن يكون بمعنى الاستثناء أو الخصوص والعموم ، أو المجمل والمفسر ــ فمن الناسخ والمنسوخ بمعزل .. ولا منسوخ إلا الحكم الذى قد كان ثبت حكمه وفرضه) .

---

(١) النسخ فى القرآن : د. مصطفى زيد ١ ــ ١١٠ فقرة ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق وقد نقله عن الموافقات للشاطبى ٣ ــ ٧٥ .

(٣) د. مصطفى ١ ــ ٧٤ نقلا عن كتاب الشافعى لمحمد أبو زهرة : ١٤٩ .

(٤) ٢ ــ ٤٣٥ بتحقيق محمود محمد شاكر . وقد نقله د. مصطفى زيد فى كتابه النسخ فى القرآن ١ ــ ٧٩ بعد أن صوب النص .

٢ ـ الآيات المنسوخة عند مقاتل بن سليمان

عدد الآيات المنسوخة عند مقاتل ٤٤ آية ، منها ست عشرة آية منسوخة بآية السيف ـ أو ما فى حكمها ـ وثمان وعشرون آية منسوخة بآيات أخرى. وعند تفسير هذه الآيات يتضح أن تعريف النسخ لا ينطبق الا على ثلاث آيات منها ، أما الباقى فليس فيه إلا تخصيص العام (١) ، أو تفسير المبهم ، وما إليهما ومنه آيات هى فى حقيقتها أخبار ، والأخبار لا تقبل النسخ ، ومنه آيات لا تعارض بينها وبين ناسخها .

٢ ـ وإذا أمعنا النظر فى الآيات التى ادعى مقاتل أنها منسوخة وجدنا كثيراً منها لا ينطبق عليه تعريف النسخ عند الأصوليين ، وعذر مقاتل واضح فى ذلك ، فقد جاء فى عصر مبكر كان النسخ يطلق فيه على التخصيص والتقييد وبيان المبهم وتفصيل المجمل .

(فقد كان الصحابة والتابعون يرون أن النسخ هو مطلق التغيير الذى

---

(١) التخصيص هو قصر العام على بعض أفراده (أو آحاده أو مسمياته) والتخصيص يكون بمخصصات لفظية هى بدل البعض ، والاستثناء ، والصفة ، والشرط ، والغاية . كما يكون بالعقل والحس الواقعى والعادة والعرف .

(النسخ فى القرآن الكريم ١ ـ ١١٣ فقرة ١٦٨ ، ١٦٩ ،
وأصول التشريع الأسلامى : على حسب الله ١٨٨ ـ ١٩٥)
والفرق بين التخصيص والنسخ :

١ ـ أن النسخ إزالة الحكم المنسوخ ، أما التخصيص فهو قصر الحكم على بعض أفراده كقصر ايجاب الحج على المستطيع .

٢ ـ أن النسخ لايكون إلا بدليل متراخ عن المنسوخ أما التخصيص فيكون بالسابق واللاحق والمقارن .

٣ ـ أن النسخ لايقع فى الأخبار ، بخلاف التخصيص فانه يكون فى الأخبار وفى غيرها .
(النسخ فى القرآن ١ ـ ١٢٥) ، وقد ساق عشر فروق بين النسخ والتخصيص . وانظر (مناهل العرفان : ٢ ـ ٨٢) .

يطرأ على بعض الأحكام فيرفعها ليحل غيرها محلها أو يخصص ما فيها من عموم أو يقيد ما فيها من اطلاق) .

٣ ـ ويكفى أن نعرف أن ست عشرة آية منسوخة عنده بآية السيف وليس فى هذه الآيات نسخ ، بل هى مما أمر به لسبب ثم زال سببه .

فالله أمر المسلمين بالصبر وعدم القتال ، فى أيام ضعفهم وقلة عددهم ، لعلة الضعف والقلة ، ثم أمرهم بالجهاد فى أيام قوتهم وكثرتهم ، لعلة القوة والكثرة .

وأنت خبير بأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً ، وأن انتفاء الحكم لانتفاء علته لا يعد نسخاً ، بدليل أن وجوب الصبر والتحمل عند الضعف والقلة لا يزال قائماً إلى اليوم ، وأن وجوب الجهاد والدفاع عند القوة والكثرة لايزال قائماً كذلك إلى اليوم .

وما أحكم الزركشى فى تعليقه على هذا الموضوع بقوله : (وبهذا التحقيق تبين ضعف ما لهج به كثير من المفسرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف ، وليست كذلك بل هى من المنسأ ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما ، لعلة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله أبداً) .

٤ ـ وقد جاء فى كتاب (النسخ فى القرآن) أن آية السيف تأمر بقتل المشركين حيث وجدوا ، وبأسر من لم يقتل منهم ، وبحصارهم وتضييق الخناق عليهم . لكن من هم هؤلاء المشركون ؟ .

يقول الدكتور مصطفى زيد :

(إن الآية السابقة واللاحقة تحدد أنهم فريق خاص من المشركين . كان

---

(١) النسخ فى القرآن الكريم : ١ ـ ٧٣ .

بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فنقضوه ، وظاهروا عليه أعداءه . وقد برئ الله ورسوله منهم ، وآذنهم بالحرب إن لم يتوبوا عن كفرهم ، ويؤمنوا بالله رباً واحداً ، وبمحمد نبياً ورسولا .

(وهؤلاء المشركون أعداء الإسلام ونبيه ليسوا هم كل المشركين ، بدليل قوله جل ثناؤه قبل آية السيف : (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين [1]) .

(فليس قتال المشركين غاية فى ذاته ، بل هو وسيلة لتأديب أئمة الكفر الذين طعنوا فى دين الله ، وصدوا الناس عن سبيله ، ونقضوا عهودهم مع رسول الله ، وظاهروا عليه أعداءه ، ونكثوا أيمانهم ، وهموا باخراج الرسول ، وبدأوا المؤمنين بالقتال فى بدر [2]) .

فقتالهم مقصود به كسر شوكتهم ، وإزالة جبروتهم وطغيانهم من طريق الدعوة الإسلامية ، حتى تستطيع أن تصل إلى آذان العرب جميعاً .

(وإنما شرع القتال فى الإسلام لتأمين الدعاة إليه ، ولضمان الحرية التى تكفل لهم إبلاغ دعوته ، ودرء الشبه عن عقيدته ، بالمنطق السليم والحجة المقنعة . ومن أجل هذا خص أئمة الكفر بالأمر بقتالهم ، لأنهم يحولون بالقوة بين الدعاة والشعوب التى يجب أن تدعى .

فإذا ما هيئت للدعاة وسائل الدعوة فى أمن وحرية فلا حرب ولا قتال [3]) .

٥ ــ وهكذا يتضح أن الآيات التى ادعى مقاتل أنها منسوخة بآية السيف

---

(١) سورة التوبة الآية (٤)

(٢) النسخ فى القرآن الكريم للدكتور مصطفى زيد : ٢ – ٥٠٤ – ٥٠٦ .

(٣) النسخ فى القرآن ، للدكتور مصطفى زيد : ٢ – ٥٠٧ . بتصرف .

ليست من النسخ فى شئ ، بل هى من (المنسأ)(١)الذى دار مع سببه وجوداً وعدما .

ويلحق بهذا القسم كل ما أمر به لسبب ، ثم زال حكمه لزوال علته . كالأمر بالمغفرة للذين لا يرجون لقاء الله . ثم نسخه بايجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٢) . وكالنهى عن ادخار لحوم الأضاحى من أجل الدافة(٣)، ثم ورود(٤) الاذن فيه فلم يعد منسوخاً ، بل من باب زوال الحكم لزوال علته . حتى لو فجأ أهل ناحية جماعة مضرورون تعلق بأهلها النهى) (٥).

٧ — لقد قلنا إن عدد الآيات المنسوخة عند مقاتل (٤٤) أربع وأربعون آية .

ويمكننا أن نقسم هذه الآيات إلى ستة أقسام :

(١) القسم الأول آيات منسوخة بآية السيف(٦) وعددها ١٦ آية .

(٢) القسم الثانى آيات ليس فيها إلا تخصيص العام وعددها ٥ آيات .

---

(١) الانساء هو التأخير والتأجيل .

قال تعالى : (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) .

وانظر : أصول التشريع الأسلامى — على حسب الله : ٣١٦ ط ٣

ومعنى الأنساء تأخير الأمر بالقتال إلى وقت الحاجة . وانظر الزركشى فى البرهان ٢ — ٤٢ ، والسيوطى فى الأتقان ٢ — ٢١ .

(٢) البرهان ٢ — ٤٢ .

(٣) وردت فى كتاب الأختيار شرح المختار باب الأضحية (من أجل الدافة) أى المجاعة . وانظر أيضا النسخ فى القرآن ١ — ١٢٩ فقرة ١٩٨ ، فقد وردت بلفظ الدافة.

(٤) فى البرهان ثم ورد . وهى عطف على المصدر فالأنسب الأتيان بها بصيغة المصدر .

(٥) البرهان للزركشى ٢ — ٤٢ ، وقد حرفت فيه كلمة الدافة إلى الرأفة مع أنها « الدافة » فى نص الحديث الصحيح .

(٦) ألحقنا بهذا القسم مافى حكمه مما أمر به لسبب ثم زال حكمه لزوال سببه ، كالتوارث على الهجرة ثم التوارث على مطلق القرابة — كما فى الآية ٦ من سورة الأحزاب المنسوخة عند مقاتل بآخر آية فى سورة الأنفال .

(٣) القسم الثالث آيات ليس فيها إلا تفسير المبهم وعددها آيتان .

(٤) القسم الرابع آيات لا تعارض بينها وبين ناسخها وعددها ١٣ آية .

(٥) القسم الخامس آيات هى فى حقيقتها أخبار وعددها ٥ آيات .

(٦) القسم السادس آيات هى من المنسوخ حقيقة وعددها ٣ آيات .

جـ - مالا بد منه فى النسخ

لابد فى تحقيق النسخ من أمور أربعة .

١ - أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً .

٢ - أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعياً .

٣ - أن يكون هذا الدليل الرافع متراخيا عن دليل الحكم الأول غير متصل به .

٤ - أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقى .

مالايقبل النسخ

العقائد والدعوة إلى الإيمان أمور أساسية فى كل دين ، وكذلك الفضائل والدعوة إلى مكارم الأخلاق أصول أساسية فى حياة الناس وفى رسالات السماء فليست كل الأحكام قابلة للنسخ ، وفى كتب الأصول إن مما لايقبل النسخ الأمور الآتية :

١ - الأحكام الأصلية كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وسائر أصول العقائد والعبادات . وكذلك لايقبل النسخ الفضائل والرذائل التى لاتختلف باختلاف الأزمان والأحوال والأشخاص ، كالعدل والأمانة وبر الوالدين ، والظلم والخيانة وعقوق الوالدين .

٢ - لايقبل النسخ الأحكام الفرعية التى نص الشارع على تأبيدها كالجهاد فقد قال رسول الله (ص) (الجهاد ماض إلى يوم القيامة) .

أما الأحكام الجزئية التى لم ينص الشارع على تأبيدها فتقبل النسخ فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لابعد وفاته .

٣ ـ لايقبل النسخ النصوص التى دلت على وقائع وأخبرت عن حادثات حدثت فإنها أخبار والأخبار لاتقبل النسخ ، ومثال ذلك ما قصه الله فى القرآن عن رسل الله تعالى كإبراهيم ونوح وموسى وعيسى ، وما قصه عن أحداث حدثت كقصة سد مأرب وقصة أصحاب الكهف ، وقصة قارون ، فكل هذه أخبار قصها القرآن للعظة والعبرة ، وبيان عاقبة الإيمان والعمل الصالح ونهاية الكفر والبطر ، وعاقبة الترف والفساد .

قال تعالى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (سورة يوسف الآية ١١١)

هـ ـ النسخ بين منكريه ومثبتيه

من العلماء من أنكر النسخ وهم عدد محدود منهم أبو مسلم الأصفهانى وقد نقل كلامه فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير .

ومنهم الأستاذ الجليل الشيخ محمد الغزالى حيث عقد باباً حول النسخ فى كتابه (نظرات فى القرآن) رأى أنه لا نسخ وإنما هناك تدرج فى التشريع . فقد حرم الله الخمر على مراحل وحرم الله الربا على مراحل ...

ومن العلماء من أثبت النسخ بل منهم من توسع فيه حتى عد فى القرآن ٢١٢ موضعاً حدث فيها النسخ .

وعند التأمل تجد أن اسم النسخ لا ينطبق عليها .

فالقدامى كانوا يطلقون النسخ على تخصيص العام وتقييد المطلق بل جعلوا التدرج فى التشريع من النسخ .

فجميع الآيات التى تأمر بالصبر والاحتمال فى مكة منسوخة عندهم بآية السيف أو آيات الجهاد .

والأنصاف يقتضينا أن نذكر أنه لانسخ ولا تعارض فنحن مدعوون إلى الصبر والاحتمال فى كل وقت ، ونحن مدعوون إلى الجهاد فى سبيل الله فى كل مناسبة تستدعى ذلك الجهاد .

إن هناك آيات محدودة (ثلاث آيات) ينطبق عليها تعريف النسخ عند جمهور علماء المسلمين ، ومع هذا تجد من بعض العلماء من يرى أنها غير منسوخه ، وأن القرآن الكريم ليس فيه نسخ ولا تعارض ، ولست متعصبا لإثبات النسخ ، وإن كنت أرى أنه وارد وواقع فى القرآن ، وهو دليل على خصوبة الشريعة ونموها وواقعيتها .

والخلاف بين الطرفين ليس كبيراً عند التحقيق فمن أنكر النسخ أدخله تحت مسمى آخر أو استخدم التأويل للجمع بين المتعارضين ، ومن أثبت النسخ كان واقعياً فى إطلاق الأسم على مسماه .

ومن العلماء الأجلاء الأستاذ الشيخ محمد الخضرى ، الذى ظهر مع فجر النهضه العلمية وألف كتبا فى أصول الفقه وتاريخ التشريع وتاريخ الأمم الاسلامية ومن الخير أن نتعرف على منهجه فى مناقشة ثلاث آيات ذهب الجمهور الى أنها منسوخة .

هـ ـ الخضرى والنسخ

يقول الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضرى :

« هنا مسألة يجب التنبيه لها ، وإرخاء القلم حتى يبلغ الغاية من بيانها . وهى هل من آيات القرآن ما بطل التكليف به لحلول تكليف آخر محله ؟ أو بعبارة أخرى هل من آيات القرآن ماهو منسوخ فلا يجب العمل به ؟ إن هذه مسألة خطيرة وعلى المتكلم فيها أن يقدم الحجة القاطعة أمام مايريد أن يقوله بعد أن ثبت أن القرآن حجة قاطعة يجب الاستمساك بنصوصة كلها والعمل بها

قال : وإنى أزيد المسألة إيضاحاً ، ولعلى أنال من الله توفيقا . ثم شرع الأستاذ بطريق الإحصاء الواقعى ، لا بطريق الجدل النظرى يثبت أن آيات القرآن جميعاً محكمة . وأنه ما من آية قيل بنسخها إلا كان القول بإعمالها أبين فى العين وأرجح لدى الموازنه . والاستقراء دليل لا يتحمل لجاجة . فليجتهد من يشاء فى إثبات إمكان النسخ، فالإمكان شيء ووقوعه فى الكتاب العزير شئ آخر ، شئ لم يحدث ، لأن كل آية ظن نسخها يستبين لدى التأمل أنها نافذة الحكم ... وصدق الله العظيم :

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (١) » .

* * *

قال : النسخ فى اصطلاح الفقهاء يطلق على معنيين :

الأول : إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق ، ومثاله ماورد فى حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » .

فالنص الأول : يطلب الكف عن الزيارة ، والنص الثانى : يرفع ذلك النهى ويحل محله الإباحة أو الطلب .

الثانى : رفع عموم نص سابق أو تقييد مطلقه ، ومثاله قوله تعالى فى سورة البقرة :

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء (٢) » .

ثم فى سورة الأحزاب :

« إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها (٣) » .

---

(١) سورة فصلت ٤٢ .
(٢) البقرة : ٢٢٨ .
(٣) الأحزاب : ١٤٩ .

فإن النص الأول عام ينتظم المدخول بها وغيرها ، والنص الثانى : يعطى غير المدخول بها حكما خاصاً بها . وكذلك قوله تعالى فى سورة النور :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة (1) »

ثم قال عقب ذلك :

« والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين (2) »

فإن النص الأول عام ينتظم جميع القاذفين أزواجاً كانوا أم غير أزواج ، والنص الثانى جعل للأزواج حكما خاصا بهم حيث جعل أيمانهم الخمس قائمة مقام الشهداء الأربعة ، وجعل للمرأة حق الخلاص من حد الزنا بأيمانها الخمس . ومثال تقييد المطلق قوله تعالى فى سورة المائدة : « **حرمت عليكم الميتة والدم** (3) » ؛ وقال فى آية أخرى فى سورة الأنعام : « **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا** (4) » فالنص الأول مطلق للدم المحرم . والثانى مقيد له بالدم المسفوح .

هذا النوع الثانى موجود فى القرآن بدون نزاع ، سواء كنا نعلم من تاريخ التنزيل أن العام والمطلق سابقان فى التنزيل على الخاص والمقيد أم متأخران عنه ، وسواء كان المتأخر متصلا أو متراخياً ، وسواء سرنا مع بعض الفقهاء الذين يطلقون على المتراخى من الخاص والمقيد أنه ناسخ للعام والمطلق ، أم سرنا مع من يسميه تخصيصاً وتقييداً لأن الأسماء لا تهمنا بعد الاتفاق على وجود المسميات . ويكفى أن نقول إن العام والمطلق لم ينلهما الإبطال ، فإن العام لا يزال دليلا فيما عدا مادل الخاص على خروجه من

(1 ، 2) النور : 4 — 6 .

(3) المائدة : 3 .

(4) الأنعام : 145 .

دائرة الحكم السابق ، ويرجع ذلك إلى الأصل الذى قررناه فى التشريع الإسلامى ، وهو التدرج فى التشريع والتنزيل ، بحيث إذا أكمل الدين يؤخذ العام وما خصصه كأنهما نص واحد عامه كالمستثنى منه وخاصه كالمستثنى : ومن أجل ذلك لم يكن مما اهتم به القرآن الدلالة على السابق من النصين واللاحق منهما ، ولا مما اهتم الأصحاب بمعرفته ، لأن جملة الكتاب كما قدمنا شئ واحد .

أما النوع الأول ، وهو وجود نص من القرآن أبطل حكمه ، أو بتحسين فى العبارة : انتهى أمد حكمه ولم يعد بقاؤه ، إلا بصفة أنه ذكر يتلى فهو محل النظر .

* * *

إن إبطال نص لاحق لنص سابق موقوف على أحد أمرين :

أولها : أن ينص اللاحق على أنه ناسخ للسابق .

ثانيها : أن يكون بين النصين تناقض بحيث لا يمكن الجمع بينهما . فهل فى نصوص القرآن شئ من ذلك ؟

أما الأمر الأول فليس فى القرآن شئ منه ؛ اللهم إلا فى ثلاثة مواضع يمكن أن نؤيد قبل بحثها رأى الجمهور القائلين بأن فى القرآن منسوخاً . قال تعالى فى سورة الأنفال :

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفرو ابأنهم قوم لا يفقهون » (الأنفال ٦٥)

ثم قال فى الآية التى تليها :

« الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » (الأنفال ٦٦)

النص فى هاتين الآيتين خبر والغرض منه الإنشاء ، فإن الله تعالى يقول فى هذه السورة :

« يأيها الذين آمنوا إذ لقيتم فئة فاثبتوا » الأنفال ٤٥ وقد أراد أن يضع حداً لهذا الأمر المطلق فإنه يوجب الثبات فى جميع الأحوال أيا كان عدد المسلمين وعدد من يقاتلهم ، فأولى الآيتين تحدد ما يجب الثبات أمامه بعشرة الأمثال ولم يأت فى ذلك بالأمر الصريح كما جاء قبله « اثبتوا » بل جاء به على صورة الخبر لأن المراد بعث الحمية فى أنفسهم ، وإلهاب الغيرة فى صدورهم .

ثم جاءت الآية الثانية معنونة بعنوان التخفيف إذ علم الله فيهم ضعفاً ، والمراد بالعلم هنا الظهور يعنى أنه قد ظهر فيهم ضعف لم يكن ، لأنه لو كان سابقاً لكان الله قد علمه موجوداً ولم يكن محل للتشريع السابق ، فهذا الضعف الحادث هو الذى اقتضى التخفيف .

فإذا قلنا : إن نسبة الآية الثانية للأولى هى نسبة النص المخفف ، لعارض مع بقاء حكم النص الأول عند زوال العارض ، كان حكمها حكم العزيمة مع الرخصة فإذا لم يكن بفئة هذا الضعف الذى ذكره الله سبباً للتخفيف ، كان عليها أن تثبت لعشرة أمثالها .

ويؤيد هذا الرأى أن العشرين المذكورة فى النص الأول موصوفة بالصابرين وكذلك المائة موصوفة بكونها صابرة ، فمتى وجدت صفة الصبر ثبت الحكم الأول ، والصبر من لوازمه المتقدمة عليه القوة المادية وقوة القلب المعنوية . وإذا قلنا . إن النص الثانى عام فى جميع الأحوال كان الأول منسوخ الحكم وهذا بعيد .

* * *

ويقرب من هاتين الآيتين قوله تعالى فى سورة المزمل :

« يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا إن لك فى النهار سبحاً طويلا » سورة المزمل ١–٧ .

ثم قال فى آخر السورة :

« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » سورة المزمل ٢٠

الآية الأولى نص صريح فى طلب قيام جزء من الليل قريب من نصفه ، وبينت السبب فى هذا الإيجاب . والخطاب فيها موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم والنص الثانى دال على أن الرسول كان يقوم بهذا التكليف ، وكذلك طائفة من الذين معه ، ثم ذكر أن هناك سبباً يقتضى التخفيف عن الأصحاب وهو علم الله بأن سيكون منهم الأصناف الثلاثة الذين ذكرهم . ومن أجل ذلك كان التكليف مقصوراً على قراءة ما تيسر من القرآن ، فإذا كان النص الأول قاصراً على النبى صلى الله عليه وسلم ، والأصحاب إنما قاموا بقيام الليل اقتداء به صلى الله عليه وسلم والتخفيف قاصراً عليهم للأسباب المذكورة ، لم يكن النص الأول منسوخاً ، بل حكمه باق بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا رأى ابن عباس ، وإن قلنا : إن الأول عام ، والتخفيف عام كان النص الأول منسوخاً وهو بعيد .

الثالث : قوله تعالى فى سورة المجادلة :

« يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » (١) .

ثم قال فى السورة نفسها :

« أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ، فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله »(٢) .

(١ ، ٢) المجادلة : ١٢ ١٣ .

فالآية الأولى : تحتم تقديم الصدقات بين يدى النجوى ، والثانية : ترفع ذلك التحتيم من غير تصريح بالرفع ، هذا ما يمكن تطبيقه على الأول وهو إعلام النص اللاحق بإلغاء النص السابق ، وقد علمت أن هذه النصوص الثلاثة غير معينة لإفادة النسخ .

أما الطريق الثانى : وهو الالتجاء إلى النسخ لوجود نصين متناقضين ولامجال لتأويل أحدهما ، فمن العسير أن نرى فى كتاب الله ما هو كذلك . وقد أفضنا القول فى بيان الآيات التى قيل : إنها منسوخة وإجابة ما نعى ذلك من العلماء فى كتابنا الموسوم بأصول الفقه ، فارجع إليه إن شئت ، ومن سلف العلماء الذين منعوا أن يكون فى القرآن منسوخ أبو مسلم الأصفهانى المفسر الكبير ، وقد رأينا أقواله فى تفسير الرازى ، ويظهر من خلال كلام الرازى أنه ميال لرأى أبى مسلم فى ذلك » (١) .

١ – ترتيب السور

تاريخ النزول وسببه : أصلان عظيمان فى تبيان الأحكام ، واستكمال الصورة الشرعية على أوضاعها الصحيحة ، وترتيبها العتيد .

ونحن نعلم أن ترتيب المصحف على نسقه القائم – وإن تم بتوقيف الرسول ، واجتماع أصحابه – يخالف ترتيب نزوله حسب الوقائع والأزمان .

كانت الطائفة من الآيات تنزل ، فيأمر الرسول كتبة الوحى أن يضعوها فى المكان الذى يذكر فيه كذا وكذا ، وربما يكون نزل قبلها بسنين ..

وما دام هذا الترتيب قد وقع بإشراف الرسول نفسه ، فلا بد أن يكون ذلك كى تتفق صورة المصحف مع الأصل الثابت لها فى السماء .

وطبيعى أن تكثر الروايات عن أول ما نزل ، وعن آخر ما نزل ، وعن السبب فى نزول آية ما ، وعن مكان نزولها .. وللأقدمين بحوث فى ذلك مستفيضة لا يتسع المجال هنا لشرحها ، ولا لنقدها .

---

(١) نقلا عن كتاب نظرات فى القرآن للاستاذ محمد الغزالى ص ٢٥٢ – ٢٥٧ ط ٢ .

ونحن نذكر الترتيب الآتى للسور وفق مجئ الوحى بها للرسول عليه الصلاة والسلام . وإن كانت لنا عليه ملاحظات .

فأول ما نزل من القرآن بمكة (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، ثم نون والقلم ، ثم ياأيها المزمل . ثم المدثر ، ثم تبت يدا أبى لهب وتب ، ثم إذا الشمس كورت ، ثم سبح اسم ربك الأعلى ، ثم والليل إذا يغشى ، ثم والفجر ، ثم والضحى ، ثم ألم نشرح ، ثم والعصر ، ثم والعاديات ، ثم إنا أعطيناك الكوثر ، ثم ألهاكم التكاثر ، ثم أرأيت الذى ، ثم قل ياأيها الكافرون ، ثم الفيل ، ثم قل هو الله أحد ، ثم والنجم ، ثم عبس ، ثم سورة القدر ، ثم سورة البروج ، ثم التين ، ثم لإ يلاف قريش ، ثم القارعة ثم القيامة ، ثم الهمزة ، ثم المرسلات ثم ق ، ثم سورة البلد ، ثم الطارق ، ثم اقتربت الساعة ، ثم ص ، ثم الأعراف ، ثم الجن ، ثم يس ، ثم الفرقان، ثم فاطر ، ثم مريم ، ثم طه ، ثم الواقعة ، ثم الشعراء ، ثم النمل ، ثم القصص ثم سورة بنى إسرائيل ، ثم يونس ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الحجر ، ثم الأنعام ، ثم والصافات ، ثم لقمان ، ثم سبأ ، ثم الزمر ، ثم المؤمن ، ثم السجدة ، ثم حم عسق ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف ثم الذاريات ، ثم الغاشية ، ثم الكهف ، ثم النحل ، ثم نوح ، ثم إبراهيم، ثم الأنبياء ، ثم قد أفلح المؤمنون ، ثم تنزيل السجدة ، ثم الطور ، ثم الملك ، ثم الحاقة ، ثم سأل سائل ، ثم عم يتساءلون ، ثم النازعات ، ثم إذا السماء انفطرت ، ثم إذا السماء انشقت ، ثم الروم ، ثم العنكبوت) .

واختلفوا فى آخر ما نزل بمكة ، فقال ابن عباس : العنكبوت ، وقال الضحاك وعطاء : المؤمنون ، وقال مجاهد : ويل للمطففين ، فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة ثلاث وثمانون سورة ، على ما استقرت عليه روايات الثقات .

وأما ما نزل بالمدينة فإحدى وثلاثون سورة ، فأول ما نزل بها سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء،

ثم إذا زلزلت الأرض ، ثم الحديد ، ثم سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم الرعد ، ثم سورة الرحمن ، ثم هل أتى على الإنسان ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم الفلق ، ثم الناس ، ثم إذا جاء نصر الله والفتح ، ثم النور ، ثم الحج ، ثم إذا جاءك المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم التحريم ، ثم الصف ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الفتح ، ثم التوبة ، ثم المائدة .

* * *

على أننا نلاحظ أن السور لم تنزل بهذا الترتيب كاملة ، فقد تلحق بها آيات نزلت فى أمكنة وأزمنة أخرى .

فالآية الأخيرة من سورة المزمل مدنية ، وإن كانت السورة مكية ، ومع الفاصل الزمنى ، واختلاف الأسلوب طولا وقصراً ، فإن المعنى الذى عرضت له هذه الآية متصل بصدر السورة .

٢ ــ من كتاب تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى

ترتيب نزول القرآن

على النظم الذى ذكره ابن النديم بإسناده عن محمد بن نعمان بن بن‌شير نذكر قوله لأنه سند قديم يعتمد عليه ولأن بين ما ذكره من الترتيب والترتيب المذكور فى كتاب إبراهيم بن عمر البقاعى وكتاب أبى القاسم عمر بن محمد ابن عبد الكافى كما نقله « الأستاذ نولد كه Noldeke » عنه اختلاف يسير قال : أول ما نزل من القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم فى مكةوهو :

١	اقرأ باسم ربك الذى خلق إلى قوله علم الإنسان ما لا يعلم ..	٥	وروى عن مجاهد قال نزلت تبت يد أبى لهب .. .. ..
٢	ثم ن والقلم..	٦	ثم إذا الشمس كورت ....
٣	«يا أيها المزمل وآخرها بطريق مكة	٧	« سبح اسم ربك الأعلى ..
٤	« المدثر	٨	« ألم نشرح لك صدرك ..

٩	« والعصر..	٣٣	« ق والقرآن .. ..
١٠	« والفجر	٣٤	« لا أقسم بهذا البلد .. ..
١١	ثم الضحى	٣٥	« الرحمن .. ..
١٢	« والليل	٣٦	« قل أوحى .. ..
١٣	« والعاديات ضبحاً	٣٧	« يس .. ..
١٤	« إنا أعطيناك الكوثر	٣٨	« المص .. ..
١٥	« ألهيكم التكاثر	٣٩	« تبارك الذى نزل القرآن
١٦	« أرأيت الذى	٤٠	« الملائكة .. ..
١٧	« قل ياأيها الكافرون	٤١	« الحمد لله فاطر .. .. ..
١٨	« ألم تر كيف فعل ربك	٤٢	« مريم.. .. ..
	بأصحاب الفيل	٤٣	« طه .. ..
١٩	ثم قل هو الله أحد	٤٤	ثم إذا وقعت .. ..
٢٠	« قل أعوذ برب الفلق.. ..	٤٥	« طسم الشعراء .. .. ..
٢١	« قل أعوذ برب الناس ويقال	٤٦	« طس .. ..
	إنها مدنية	٤٧	« طسم الآخرة .. .. ..
٢٢	ثم والنجم	٤٨	« بنى اسرائيل .. .. ..
٢٣	« عبس وتولى	٤٩	« هود .. ..
٢٤	« إنا أنزلناه	٥٠	« يوسف .. ..
٢٥	« والشمس وضحيها	٥١	« يونس .. ..
٢٦	« والسماء ذات البروج.. ..	٥٢	« الحجر .. ..
٢٧	« والتين والزيتون	٥٣	« الصافات .. ..
٢٨	« لإيلاف قريش	٥٤	« لقمان : آخرها مدنى.. ..
٢٩	« القارعة	٥٥	قد أفلح المؤمنون .. .. ..
٣٠	« لا أقسم بيوم القيامة ..	٥٦	« سبأ .. ..
٣١	« ويل لكل همزة لمزة ..	٥٧	« الأنبياء .. ..
٣٢	« المرسلات	٥٨	« الزمر .. ..

٥٩	« حم المؤمن	٧٥	« تبارك الذى بيده الملك..
٦٠	« حم السجدة	٧٦	« الحاقة .. ..
٦١	« حمعسق	٧٧	« سأل سائل .. ..
٦٢	« حم الزخرف	٧٨	عم يتساءلون .. ..
٦٣	« حم الدخان	٧٩	ثم النازعات .. ..
٦٤	« حم الشريعة	٨٠	« إذا السماء انفطرت .. ..
٦٥	« حم الأحقاف : فيها آى مدنية	٨١	« إذا السماء انشقت .. ..
٦٦	« الذاريات	٨٢	« الروم .. ..
٦٧	ثم هل أتاك حديث الغاشية..	٨٣	« العنكبوت .. ..
٦٨	« الكهف : آخرها مدنى ..	٨٤	« ويل للمطففين ويقال إنها مدنية
٦٩	« الأنعام : فيها آى مدنية ..	٨٥	« اقتربت الساعة وانشق القمر
٦٠	« النحل : آخرها مدنى ..	٨٦	« والسماء والطارق.. .. ..
٧١	« نوح	٨٧	قال حدثنى الثورى عن فراس
٧٢	« إبراهيم		عن الشعبى قال : نزلت النحل
٦٣	« السجدة		بمكة إلا هؤلاء الآيات : وإن
٧٤	« الطور		عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به

وقال وحدث ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس ، قال : نزلت بمكة خمس وثمانون سورة ونزل بالمدنية ثمان وعشرون سورة .

٨٨	البقرة	٩٤	« إذا زلزلت .. ..
٨٩	ثم الأنفال	٩٥	« الحديد .. ..
٩٠	« الأعراف	٩٦	ثم الذين كفروا .. ..
٩١	« آل عمران	٩٧	« الرعد .. ..
٩٢	« الممتحنة	٩٨	« هل أتى على الإنسان .. ..
٩٣	« النساء	٩٩	« يا أيها النبى إذا طلقتم النساء

١٠٠	« لم يكن الذين كفروا ..	١٠٨	ثم التغابن .. ..
١٠١	« الحشر	١٠٩	« الحواريين .. ..
١٠٢	« إذا جاء نصر الله والفتح	١١٠	« الفتح .. ..
١٠٣	« النور	١١١	« المائدة .. ..
١٠٤	ثم الحج	١١٢	« ياأيها النبي لم تحرم .. ..
١٠٥	« المنافقون	١١٣	« الجمعة .. ..
١٠٦	« المجادلة	١١٤	« التوبة .. ..
١٠٧	« الحجرات		يقال نزلت المعوذتان بالمدنية

(إنتهى)

قد علم مما سبق أن القرآن كتب فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين يديه فى جرائد النخل والأكتاف والحرير . وخرج الحاكم بسنده على شرط الشيخين عن زيد ابن ثابت ، قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مواضعها ، ولكن الصحف المكتوبة كانت متفرقة ، ولأجل ذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم لعلى عليه السلام بجمعه ، وحذر من تضييعه ، كما يدل عليه رواية على بن إبراهيم القمى ، وكان القرآن محفوظاً فى صدور الرجال ، وحفظته جماعة من الصحابة كله حسب ما سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم . وقتل فى وقعة بئر معونة فى (سنة ٤ هـ) جماعة تقرب عدتهم من سبعين رجلا يقال لهم القراء (١) .

(١) تاريخ القرآن : أبي عبد الله الزنجانى ص ٣٦ – ٣٩ نشر مؤسسة الحلبى ١٤ ش جواد حسنى .

٣ ــ حفظ القرآن

يسر الله للقرآن وسائل الحفظ فى الصدور والكتب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عهد الخلفاء الراشدين وفى سائر العصور إلى يومنا هذا ، وإلى يوم الدين .

وهناك آراء ثلاثة فى ترتيب سور القرآن .

الرأى الأول أن ترتيب السور توقيفى .

الرأى الثانى أن ترتيب السور كان باجتّهاد الصحابة .

الرأى الثالث : أن ترتيب السور كان بعضه توقيفيا وبعضه كان باجتّهاد الصحابة .

ونحن نستبعد الرأى الثانى (الذى يرى أن ترتيب القرآن كان باجتّهاد الصحابة) .

ونرى أن ترتيب معظم سور القرآن كان توقيفيا تلقاه المسلمون عن رسول الله وتلقاه الرسول عن جبريل عن الله عز وجل وبعض سور القرآن رتب باجتّهاد الصحابة وهو اجتّهاد مأذون فيه لأنهم رتبوا القرآن على نحو ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ أمامهم نحو ربع القرآن فى ليلة واحدة .

والأمة الإسلامية تلقت هذا الترتيب بالقبول .

وفيما يلى الترتيب التاريخى كما رواه ابن عباس رضى الله عنه وأرضاه .

السور المكية

الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف
١ — إقرأ (العلق)	(٩٦)
٢ — ن	(٦٨)
٣ — المزمل	(٧٣)
٤ — المدثر	(٧٤)
٥ — تبت	(١١١)
٦ — الشمس	(٨١)
٧ — الأعلى	(٨٧)
٨ — الليـــل	(٩٢)
٩ — الفجر	(٨٩)
١٠ — الضحى	(٩٣)
١١ — ألم نشرح	(٩٤)
١٢ — العصر	(١٠٣)
١٣ — العاديات	(١٠٠)
١٤ — الكوثر	(١٠٨)
١٥ — التكاثر	(١٠٢)
١٦ — الماعون	(١٠٧)
١٧ — الكافرون	(١٠٩)
١٨ — الفيل	(١٠٥)
١٩ — الفلق	(١١٣)
٢٠ — الناس	(١١٤)
٢١ — الإخلاص	(١١٢)
٢٢ — النجم	(٥٣)
٢٣ — عبس	(٨٠)
٢٤ — القدر	(٩٧)
٢٥ — الضحى	(٩١)
٢٦ — البروج	(٨٥)
٢٧ — التين	(٩٥)
٢٨ — قريش	(١٠٦)
٢٩ — القارعـــة	(١٠١)
٣٠ — القيامة	(٧٥)
٣١ — الهمزة	(١٠٤)
٣٢ — المرسلات	(٧٧)
٣٣ — ق	(٥٠)
٣٤ — البلد	(٩٠)
٣٥ — الطارق	(٨٦)
٣٦ — الساعة	(٥٤)
٣٧ — ص	(٣٨)
٣٨ — الأعراف	(٧)
٣٩ — الجن	(٧٢)
٤٠ — يس	(٣٦)
٤١ — الفرقان	(٢٥)
٤٢ — الملائكة	(٣٥)
٤٣ — مريم	(١٩)
٤٤ — طــه	(٢٠)
٤٥ — الواقعة	(٥٦)
٤٦ — الشعراء	(٢٦)
٤٧ — النمــل	(٢٧)
٤٨ — القصص	(٢٨)

السور المكية

الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف
٤٩ ــ بنى اسرائيل	(١٧)
٥٠ ــ يونس	(١٠)
٥١ ــ هــود	(١١)
٥٢ ــ يوسف	(١٢)
٥٣ ــ الحجر	(١٥)
٥٤ ــ الأنعام	(٦)
٥٥ ــ الصافات	(٢٧)
٥٦ ــ لقمان	(٣١)
٥٧ ــ سبأ	(٣٤)
٥٨ ــ الزمر	(٣٩)
٥٩ ــ المؤمنون	(٤٠)
٦٠ ــ السجدة	(٤١)
٦١ ــ الشورى	(٤٢)
٦٢ ــ الزخرف	(٤٣)
٦٣ ــ الدخان	(٤٤)
٦٤ ــ الجاثية	(٤٥)
٦٥ ــ الأحقاف	(٤٦)
٦٦ ــ الذاريات	(٥١)
٦٧ ــ الغاشية	(٨٨)
٦٨ ــ الكهف	(١٨)
٦٩ ــ النحل	(١٦)
٧٠ ــ نوح	(٧١)
٧١ ــ ابراهيم	(١٤)
٧٢ ــ الأنبياء	(٢١)
٧٣ ــ المؤمنون	(٢٣)
٧٤ ــ السجدة	(٢٢)
٧٥ ــ الطور	(٥٢)
٧٦ ــ تبارك	(٦٧)
٧٧ ــ الحاقة	(٦٩)
٧٨ ــ المعارج	(٧٠)
٧٩ ــ النبأ	(٧٨)
٨٠ ــ النازعات	(٧٩)
٨١ ــ الانفطار	(٨٢)
٨٢ ــ الانشقاق	(٨٤)
٨٣ ــ الروم	(٣٠)
٨٤ ــ العنكبوت	(٢٩)
٨٥ ــ المطففين	(٨٣)
٨٦ ــ البقرة	(٢)

السور المدنية

الترتيب التاريخى لابن عباس	رقم السورة فى المصحف
٨٧ ـ الأنفال	(٨)
٨٨ ـ آل عمران	(٣)
٨٩ ـ الأحزاب	(٣٣)
٩٠ ـ الممتحنة	(٦٠)
٩١ ـ النساء	(٤)
٩٢ ـ الزلزلة	(٩٩)
٩٣ ـ الحديد	(٥٧)
٩٤ ـ القتال (محمد)	(٤٧)
٩٥ ـ الرعـــد	(١٣)
٩٦ ـ الرحمن	(٥٥)
٩٧ ـ الإنسان	(٧٦)
٩٨ ـ الطلاق	(٦٥)
٩٩ ـ البينـــة	(٩٨)
١٠٠ ـ الحشر	(٥٩)
١٠١ ـ النصر	(١١٠)
١٠٢ ـ النور	(٢٤)
١٠٣ ـ الحج	(٢٢)
١٠٤ ـ المنافقون	(٦٣)
١٠٥ ـ المجادلة	(٥٨)
١٠٦ ـ الحجرات	(٤٩)
١٠٧ ـ التحريم	(٦٦)
١٠٨ ـ الجمعة	(٦٢)
١٠٩ ـ التغابن	(٨٤)
١١٠ ـ الصف	(٦١)
١١١ ـ الفتح	(٤٨)
١١٢ ـ المـــائدة	(٥)
١١٣ ـ براءة	(٩)

وكان هذا الترتيب هو الذى سار عليه المستشرق نولدكة (١) .

وقد حاول أن يستنبط القواعد التى سار عليها هذا الترتيب فوجد أن الأحداث التاريخية حسب تتابعها علامات فى طريق الترتيب . فإنه جعل بدر والخندق وصلح الحديبية وأشباهها من المعارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها . وجعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابى دليلا آخر لتاريخ آياته (٢) .

(١) ص ٥٨ ، ج ١ « تاريخ القرآن » لنولدكه .

(٢) بحث جديد عن القرآن : محمد صبيح .

٤ ـ علماؤنا وترتيب القرآن

كان أستاذى المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز يرفض أن يكون القرآن المكى متميزا بطابع خطابى كما يرى نودلكه .

والحق أن علماءنا قد بينوا لنا سمات المكى والمدنى وإذا رجعنا إلى أبواب المكى والمدنى فى كتب علوم القرآن مثل كتاب البرهان فى علوم القرآن للذركشى ، والاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، ومقدمات كتب التفسير مثل مقدمة تفسير الطبرى وابن كثير وغيرهم رأينا فيها مايكفى ويشفى .

وفى صدر هذا الكتاب مبحث عن كتابة القرآن الكريم ، وعن ترتيب الآيات والسور فى القرآن الكريم ، وعن القرآن فى مكة المكرمة والمدينة المنورة . آمل أن يكون فيه بيان كاف لهذه الموضوعات .

وهناك ملاحظة ظاهرة على الترتيب التاريخى لابن عباس هى أن سور القرآن فى هذا الترتيب ١١٣ سورة ونلاحظ أن ترتيب سور القرآن فى مصحف أبى بن كعب جاء على أن عدد السور ١٠٥ سورة ، وقد جعل أبى بن كعب سورة الفيل وسورة الأئتلاف واحدة كما أن ترتيب القرآن فى مصحف عبد الله بن مسعود تم على أن عدد سور القرآن ١٠٨ سورة أما رواية الشهر ستانى عن ترتيب مصحف عبد الله بن عباس فتفيد أن عدد السور ١١٤ سورة ، كما ذكر الشهر ستانى أن ترتيب السور فى مصحف جعفر الصادق يفيد أن عددها ١١٣ سورة [١] .

. . . . .

ولكن المصحف الإمام أى مصحف عثمان الذى تلقته الأمة بالقبول وكتب على ملأ من المسلمين يفيد أن عدد سور القرآن ١١٤ سورة وهى

---

(١) تاريخ القرآن لأبى عبد الله الزنجانى ص ٥٨ .

محفوظة ومكتوبة فى المصحف المطبوع المتداول بين المسلمين ، وهذا أمر أجمعت عليه الأمة ، وأصبح معلوماً من الدين بالضرورة ، وحفظ القرآن على مدار العصور الإسلامية المتوالية بهذه الصفة المتواترة ، وصدق الله عظيم .

(إنا نحن نزلنـــا الذكر وإنا لـــه لحـــافظون) (١) .

---

(١) هذا المعنى وجدته بعد تأليف الكتاب ، فى كلام القاضى : (أبو بكر الباقلانى) فى كتابه إعجاز القرآن فى فصل خاص عن (كلام النبى وأمور تتصل بالإعجاز) .

الفصل الثالث عشر

الاجتهاد

الاجتهاد مصدر من مصادر التشريع الاسلامى .

والاجتهاد فى اللغة بذل الجهد واستفراغ الوسع فى تحقيق أمر لا يكون إلا بكلفة ومشقة ، ولهذا يقال اجتهد فى حمل قنطار من القطن ، أو مائة رطل من الحديد ، ولا يقال اجتهد فى حمل عصاه أو قلمه .

قال فى القاموس : الجهد بالفتح والضم : الطاقة والمشقة ، واجهد جهدك أى ابلغ غايتك ، وجهد بفتح الهاء جد واجتهد . . والتجاهد بذل الوسع كالاجتهاد ، وهكذا ترجع المعانى اللغوية للاجتهاد إلى بذل الطاقة والوسع ، وتحمل المشقة والكلفة ليبلغ المجتهد مجهوده ويصل إلى غايته .

وقد عرف العلماء الاجتهاد : بأنه ملكة يقتدر بها على استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية .

وعرفه الأصوليون : بأنه بذل الفقيه جهده العقلى فى استنباط حكم شرعى من دليله على وجه يحس فيه العجز عن المزيد .

وعرفه الامام الغزالى : بأنه بذل المجتهد وسعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة .

نشأة الاجتهاد :

حث القرآن المسلمين على التأمل والتدبر ، واستخدام العقل والفكر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم الفكر والنظر فى مصلحة الدعوة الاسلامية والأمة الاسلامية ، وكان لايرى إلا مجتهدا فى أمر من الأمور ، قد هجر الاسترخاء ، وضياع الوقت فى غير ما طائل .

وقد حث القرآن على التفقه فى الدين والاجتهاد فى معرفة الأحكام ومقاصد الشريعة وغاياتها .

قال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) سورة التوبة /١٢٢ .

وقال عز شأنه : (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) سورة النساء / ٨٣ .

والاستنباط والاستثمار عين الاجتهاد ، ولذلك سمي المجتهد مستنبطا ومستثمرا ، لأنه يبذل جهده العقلى فى استنباط الاحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية .

وقد روى معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – لما بعثه إلى اليمن – سأله : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فان لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلو ، أى لا أقصر ، قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى وقال : الحمد الله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله(١) .

المانعون للاجتهاد :

ذهب الشيعة والنظام وجماعة من معتزلة بغداد والظاهرية إلى أن الاجتهاد ممنوع شرعا ، ومنهم من بالغ فزعم أنه ممنوع عقلا ، واستدلوا بما يأتى :

١ – نصوص الكتاب والسنة كافية فى تعرف ما يحتاج إليه الانسان ، قال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) النحل / ٨٩ .

٢ – نصوص القرآن والسنة تدل على عدم الاعتداد بالرأى . قال تعالى : (فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) ، ولم يقل فردوه إلى آرائكم . وقال سبحانه (أنا أنزلنا إليك الكتاب لتحكم بين الناس بما أراك الله) النساء / ١٠٥ ، ولم يقل بما رأيت أنت .

المثبتون للاجتهاد :

ذهب جمهور المسلمين إلى أن الاجتهاد جائز عقلا وشرعا وعندما تدعو إليه الحاجة يكون واجبا .

---

(١) انظر : سنن ابى داود جـ ٢ ص ١١٦ .

وهو قول السلف من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وأكثر الفقهاء والمتكلمين .

واستدل المثبتون للاجتهاد بالكتاب والسنة والعقل .

١ ـ أما الكتاب فقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) سورة النساء / ٥٩ .

فان المراد بطاعة الله ورسوله اتباع ما علم من نصوص الكتاب والسنة أما الرد إلى الله ورسوله عند التنازع فالمراد منه الرجوع إلى ما شرع الله ورسوله بالبحث عما قد يكون خافيا أو غائبا عن البال من النصوص ، أو بتطبيق القواعد العامة ، بالحاق الشبيه بشبيهه ، أو التوجه إلى تحقيق المقاصد التى اعتبرها الشارع ، فكل هذارد إلى الله ورسوله ولو كان المراد بالرد عند التنازع هو المراد بما تقدمه من طاعة الله ورسوله لكان الكلام تكرارا خاليا من الفائدة ، وهو ما ينبو عنه أسلوب القرآن الكريم .

٢ ـ وأما السنة فحديث معاذ بن جبل ، وفيه يقول معاذ : « . . أجتهد رأيى ولا آلو » .

ومنها ما روى سعيد بن المسيب عن على رضى الله عنهما أنه قال : قلت يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه منك سنة ؟ قال : اجمعوا له العالمين ، أو قال : العابدين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد . ومنها ما روى من اجتهاد الرسول وأمره أصحابه بالاجتهاد واقراره من اجتهد منهم على اجتهاده .

٣ ـ وأما العقل ، فقد جعل الله الاسلام خاتم الأديان ، وجعل شريعته صالحة لكل زمان وكل مكان ، ونصوص الشريعة من الكتاب والسنة محدودة وحوادث الناس ووسائلهم إلى مقاصدهم متجددة وغير محدودة ، ولا يمكن أن تفى النصوص المحدودة بأحكام الحوادث المتجددة غير المحدودة

والجزئيات التى لا حصر لها إلا إذا كان مجال لتعرف أحكام الحوادث الطارئة ، بالاجتهاد فى قياسها على نظائرها ، أو توجيهها إلى تحقيق المصالح التى ترمى إليها الشريعة ، وبغير هذا تفقد الشريعة مرونتها وصلاحيتها لكل زمان وكل مكان .

وأما قوله تعالى (لتحكم بين الناس بما أراك الله) ، فالمراد به لتحكم بينهم بما بصرك الله به وعلمك إياه ، وقد يكون منه بذل الجهد لمعرفة الحكم فيما لا نص فيه .

الاجتهاد فى الصدر الأول :

أ ـ قال الأشاعرة ، وكثير من المعتزلة ، ليس للرسول أن يجتهد لأن الوحى أقوى من الاجتهاد لجواز الخطأ فى الاجتهاد دون الوحى ، ومتى أمكن الاعتماد على الأقوى لم يجز العدول عنه إلى الأضعف . ولقوله تعالى فى أول سورة النجم : (والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى) ، فقد نفى الله عنه أن يصدر كلامه عن هوى ، وقصر ما يصدر عنه على كونه وحيا يوحى ، ولو كان له أن يجتهد ما كان كل كلامه صادرا عن الوحى . وقد انتظر الرسول الوحى للاجابة عن سؤال وجه إليه فى كثير من المسائل .

ب ـ وقال جمهور الأصوليين للرسول أن يجتهد واستدلوا بما يأتى :

١ ـ منع الاجتهاد إضعاف للمدارك الانسانية وتعطيل للعقول البشرية والاجتهاد يشحذ الاذهان ويقوم المدارك ويحرك العقول إلى التفكير المستقيم وتحرى الرأى السديد ، فلا ينبغى أن يمنع منه الأنبياء ، كما لم يخرجهم الله من دائرة التكاليف التى تهذب النفوس وتقوى العزائم .

٢ ـ قال تعالى : (فاعتبروا يا أولى الابصار) ، ونحوه من الأدلة التى تأمر بالاعتبار وقياس الأشباه على الاشباه ، ورعاية المصلحة ، فان تلك الادلة تشمل الرسول وغيره ، بل هو صلى الله عليه وسلم أولى.

بجواز الاجتهاد لأنه أدرى بوجوه التماثل والتشابه ، وأعلم بمقاصد الشريعة .

٣ – من الناحية العملية كان صلى الله عليه وسلم يجتهد ويأمر بالاجتهاد ويقر أصحابه على اجتهادهم .

٤ – أما قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى) فالمراد به القرآن الكريم ، ولو كانت الآية عامة لكان كل كلامه وحيا لايحتمل الخطأ ، وقد شهد القرآن بغير هذا حين عاتبه على أخطاء وقع فيها ، فلا تكون الآية مانعة من اجتهاده صلى الله عليه وسلم .

٥ – وأما انتظار الوحى فانما كان منه فيما ليس مجالا للاجتهاد أو فيما أشكل وجه الحكم فيه ، مما لا يعرف إلا بالوحى ، فأما ما يعرف حكمه بالاجتهاد من غير إشكال ، فانه لا يتوقف فيه ويعرف هذا من تتبع أقضيته وأحكامه صلى الله عليه وسلم (١) .

٦ – وأما كون الاعتماد على الاجتهاد أضعف ، ويجب اهماله عند التمكن من الاعتماد على الوحى ، فيرده أن الله أراد لعقول عباده أن تتحرك وأن تجتهد ، فالعقل أثر من آثار الله : والوحى أثر من آثار الله ، وآثار الله لا تعارض بينها ولا تضارب . ثم إن الوحى ليس خاضعا لإرادته فلا يكون فى مقدروه (٢) .

قال تعالى : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) .

على أن الرسول لو اجتهد وأخطأ فان الوحى كفيل برده إلى الصواب ويكون اجتهاده حينئذ ملحقا بالوحى ، ولهذا سماه الحنفية « الوحى الباطن »

---

(١) انظر : جـ ٣ ، ٤ من زاد المعاد لابن القيم .

(٢) راجع تفسير القرطبى لقوله تعالى : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه)سورة طه /١٤٤ .

والخلاصة أن من الاحكام مالا يعرف إلا بالوحى ، وفى هذا يقضى الرسول بما نزل ، أو ينتظر الوحى ، ومنها مايعرف بالاجتهاد فان وجد فيه نصا قضى به والا اجتهد ، فان أصاب فبها وإلا نزل الوحى بتسديده إلى الصواب .

وقد مضى الخلفاء الراشدون على التماس الأحكام فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان لم يجدوا فيهما ، اجتهدوا واستشاروا (١) .

أمثلة من اجتهاد الرسول :

١ – اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسرى بدر فوافق على قبول الفداء ، وكان رأيا عاتبه الله عليه فى قوله : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم) الانفال / ٦٧ .

وكان رأى عمر قتل هؤلاء الاسرى عقوبة لهم وقطعا لشوكة الكفر والعناد ، وإزاحة لطواغيت الفساد والشرك .

وكان رأى أبى بكر الصفح عنهم وقبول الفداء ليكون عونا للمسلمين واستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ، فمنهم من اختار ما قاله أبو بكر ومنهم من اختار ما قاله عمر .

ونظر عليه الصلاة والسلام فوجد أن أكثر الصحابة يؤيدون رأى أبى بكر فقال : « إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من المـــاء ، ويقسى قلوب أقوام حتى تكون أقسى من الحجارة ، وإن مثل أبى بكر كمثل إبراهيم حين قال : (واغفر لأبى إنه كان من الضالين) .

وإن مثل عمر كمثل نوح حين قال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) .

ثم وافق الرسول على رأى أبى بكر ، لأن الأكثرية معه ، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان من طبعه الرأفة والرحمة .

---

(١) انظر : اجتهاد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اعلام الموقعين ١/٢٤٤ .

ولكن الله أرشد المسلمين إلى حقيقة وضعهم ، فهم فى بداية الدعوة وقوى الكفر تريد أن تعصف بهم . فيجب أن يقطعوا دابر المشركين وأن يضعفوا قوة الشرك ، ولا يباح قبول الفداء إلا بعد تكرر النصر واشتداد قوة الدولة ، والإثخان فى الأرض ، أى الإكثار من القتل والنصر والسيطرة والتمكن . ولما نزلت الآيات تعاتب على قبول الفداء بكى الرسول هو وأبو بكر ، وقال لقد عرض على عذاب السماء أقرب من هذه الشجرة ، ولو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر .

قال تعالى فى شأن أسرى بدر : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، واتقوا الله إن الله غفور رحيم . يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم) سورة الأنفال ٦٨-٧١ .

٢ - قصة عبد الله ابن أم مكتوم :

وذلك أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال يا رسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم شغله بالقوم ، فكره رسول الله قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه . فنزلت سورة عبس تلوم الرسول على إعراضه عن الأعمى وتصحح القيم الإنسانية ، وتضع الأسس الإسلامية لأقدار الناس وأوزانهم ، وتؤكد أن قيمة الإنسان بعمله وسلوكه ومقدار إتباعه لهدى السماء . قال تعالى : (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى) سورة عبس : ١-١٠ .

وبعد نزول هذه الآيات ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم

عبد الله ابن أم مكتوم ويقول إذا رآه : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويقول هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين .

٣ - وقد عد من اجتهاده قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على إبنة أختها فإنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » . فإنه قياس منه على ما نص عليه القرآن من حرمة الجمع بين الأختين . ومن اجتهاده قوله صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » فإن وضع هذه القاعدة مبنى على قياس ما لم ينص عليه منها على ما نص عليه .

ويؤيد هذا ما روت أم سلمة رضى الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنى أقضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى » .

اجتهاد الصحابة أمام الرسول (ص) :

حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فى بنى قريظة فحكم فيهم باجتهاده فأقر الرسول حكمه وقال ، والذى نفسى بيده لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

وقال (ص) لعمرو بن العاص فى بعض القضايا : احكم فقال : اجتهد وأنت حاضر ؟ قال : نعم إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر .

وروى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلين خرجا فى سفر ، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما وصليا ، ثم وجدا الماء فى الوقت فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة ، ولم يعد الآخر ، ولما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال للذى لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » . وقال للذى توضأ وأعاد : « لك الأجر مرتين » فأقر كلا منهما على اجتهاده فى موضع لا نص فيه[1] .

---

(١) سبل السلام ٩٧/١ ، نيل الاوطار ٣٣٥/١ .

وفى غزوة الأحزاب ، نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم فلما رحل الأحزاب عن المدينة خاسرين ، قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « من كان سميعاً مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » ، فخرج المسلمون سراعاً ، وأدركتهم صلاة العصر فى الطريق فقال بعضهم : لقد نهينا عن الصلاة حتى نصل بنى قريظة فصلوا هناك ليلا ، وقال الآخرون : لم يرد الرسول منا تأخير الصلاة حتى نأتى بنى قريظة ، وإنما أراد سرعة النهوض ، فصلوا بالطريق ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك لم يوجه إلى أحد منهم لوما ، فقد اجتهد كل من الفريقين مع وجود النص »[1] ، فعمل فريق بلفظه ومنطوقه وعمل الفريق الآخر بمغزاه ، وأقر الرسول صلى الله عليه وسلم كلا منهما على اجتهاده .

وفى غزوة ذات السلاسل سنة ثمان من الهجرة - احتلم أمير الجيش عمرو ابن العاص فى ليلة باردة ، وخشى على نفسه الهلاك من الماء ، فتيمم وصلى الصبح بأصحابه ، وعلم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عمرو ، صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فقال : لقد خفت البرد وسمعت الله تعالى يقول : (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا .

وهذا إقرار منه صلى الله عليه وسلم لاجتهاد أصحابه ، وتدريب لهم على الفهم والاستنباط وسعة الأفق وجلاء البصيرة ، وحسن المعرفة بأهداف القرآن والسنة ، وحسن الإدراك لأهداف الشريعة ومقاصدها .

اجتهاد أبى بكر الصديق « رضى الله عنه » :

كان أول ما واجه المسلمين - عقب وفاة رسول الله - من الأحداث التى لم يكن لها نظير فى عهده مسألة المرتدين ، الذين منعوا الزكاة مع إقرارهم بالإسلام ، وإقامتهم الصلاة ، وقد رأى أبو بكر رضى الله عنه أن يقاتلهم حتى يؤدوا ما كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) زاد المعاد ٢/٢٢١ ، نيل الأوطار ١/٢٤٠

فقال له عمر : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » .

فقال أبو بكر : ألم يقل إلا بحقها ؟ فمن حقها إيتاء الزكاة كما أن من حقها إقامة الصلاة ، ووافقه الحاضرون على ذلك ثم اتجه أبو بكر إلى حرب المرتدين فنصره الله عليهم .

ثم عرضت مسألة جمع القرآن فى مصحف حين تهافت الناس فى قتال المرتدين وقتل من القراء خلق كثير ، وخشى عمر أن يضيع القرآن بموت حفظته ، فاقترح عمر على أبى بكر أن يكتب القرآن جميعه فى مصحف واحد ، وكان قبل ذلك مكتوباً على الرقاع والعظام والكاغد وما تيسر للناس الكتابة عليه .

حديث البخارى :

روى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل إلى أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر (أى اشتد) يوم اليمامة بالناس وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن يجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن .

قال أبو بكر : قلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال هو والله خير فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ورأيت الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم . فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال

أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر . قال : فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال . . فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر (١) .

فكتابة القرآن تمت بمشورة عمر وموافقة أبى بكر وألفت لجنة من الحفاظ الموثوق بهم برئاسة زيد بن ثابت ، وتمت كتابة المصحف كله فى كتاب واحد .

وقد تردد أبو بكر فى الموافقة على أمر لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقنعه عمر فاقتنع بأهمية الموضوع وضرورته لحفظ القرآن من أن يضيع منه شئ بموت القراء ، وهو اجتهاد محمود كان له أثره الباقى الخالد .

قال على : « أعظم الناس أجرا فى المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يسوى فى العطاء بين المهاجرين والأنصار ويرى أن المال بلاغ يتبلغ به الناس فى الدنيا ، أما سبق الإيمان فمثوبة الناس عليه من الله تعالى .

فلما تولى عمر الخلافة زاد العطاء لأهل السبق فى الإيمان ولأصحاب النبى وزوجاته ، وقال لا أسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل معه .

اجتهاد عمر بن الخطاب « رضى الله عنه » :

امتاز عمر بمعرفة أهداف الشريعة ومقاصدها ، وفى الحديث الشريف : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

فكان عمر شديدا فى الحق ، قويا فى دين الله ، حريصا على مصلحة

---

(١) القرآن والتفسير للدكتور عبد الله شحاتة ، ص ٤١ .

المسلمين ، وفى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وزيره ومستشاره ومؤنسه ، وكان الوحى ينزل مؤيدا رأى عمر فى عدد من الوقائع :

١ – من ذلك مشورته بقتل أسرى بـــدر .

٢ – رغبته فى تحريم الخمر ودعاؤه : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فإنها تفسد العقل والدين . فأنزل الله تحريمها .

٣ – رغبته فى احتجاب زوجات الرسول حيث قال : يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر ، فلو أمرتهن فاحتجبن . فأنزل الله تعالى : (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) الأحزاب / ٥٣ .

٤ – وفى أوائل سورة المؤمنون تحدث القرآن عن مراحل خلق الجنين . ولمـــا سمع عمر الآية قال : (فتبارك الله أحسن الخالقين) وتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وقال : إن الله ختم الآية بما نطقت به يا عمر . والآيات هى : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما تم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)

خلافة عمـــر :

مكث أبو بكر فى الخلافة سنتين قضى معظم خلافته فى حروب الردة وتثبيت دعائم الدولة ، والمحافظة على قوة الأمة ، وكان أبو بكر سهلا محببا ، وكان عمر بجواره كالسيف المسلول .

فلما توفى أبو بكر وولى عمر الخلافة واستقر فيها عشر سنوات تفجرت فيها ينابيع حكمته وعبقريته . وظهر فيها صدق ايمانه وقوة يقينه وسعة أفقه وحسن فهمه لدينه وأخلاصه فى عمله وحرصه على التمسك بالحق والعدل .

وفى صحيح البخارى حديث يشير إلى خلافة أبى بكر وأن مدتها ستكون

قصيرة ، وإلى خلافة عمر ، وأنها ستكون طويلة وفيها خير وبركة ونعمة على المسلمين .

ففى خلافة عمر اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وفتحت البلاد ومصرت الأمصار وخضعت للمسلمين أمم ذوات مدنيات قديمة كالفرس والروم . وقد واجه عمر هذه الفتوحات برأيه السديد ، واجتهاده المتجدد وفكره المتبصر ، ولم يقتصر على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، بل اجتهد فى تعرف المصلحة التى يرمى إليها النص من كتاب الله ومن السنة ، واسترشد بهذه المصلحة فى أحكامه ، أى أنه كان يعمل بروح الشريعة لا بمنطوقها فقط .

أمثلة من اجتهاد عمر :

١ ـ أباح القرآن زواج المسلم من المسيحية أو اليهودية فقال تعالى : (والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) المائدة / ٥ . ولما فتح المسلمون المدائن تزوج حذيفة بن اليمان بامرأة من أهل الكتاب فكتب إليه عمر أن خل سبيلها . فكتب إليه حذيفة لن أخلى سبيلها حتى تخبرنى أحلال هى أم حرام : فكتب إليه عمر : « أعزم عليك ألا تضع كتابى هذا حتى تخلى سبيلها فان فى نساء الأعاجم خلابة فاذا أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » .

وفى رواية أخرى : « إنى أخاف أن يقتدى بك المسلمون ، فيختاروا نساء أهل الذمة لجمالهن ، وكفى بذلك فتنة لنساء المؤمنين » . فالجندى المسلم هنا يناقش الخليفة ، والخليفة يوضح الحكمة ، فزواج الكتابية حلال ، ولكن إذا ترتب عليه مفسدة أبيح منعه ، فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح . أو هو من باب تقييد المباح لحاجة الناس إلى ذلك . قال محمد صاحب أبى حنيفة : وبهذا نأخذ وإن كنا لا نراه حراما .

٢ ـ روى ابن عباس أن الطلاق الثلاث دفعة واحدة كان يعد طلقة واحدة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة

عمر . ثم وجد عمر أن الناس أكثروا منه مخالفين بذلك شرع الله ، فقال : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؟ فأمضاه عليهم تأديبا للمطلقين ، وزجرا لغيرهم .

٣ — أمر الله تعالى بقطع يد السارق والسارقة فى قوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) المـــائدة / ٣٨ . وحلت بالمسلمين أيام عمر مجاعة فكثر السراق ، فأوقف عمر اقامة الحد عليهم ، إذ وجد أن المصلحة المرجوة من العقوبة لا تتحقق مع مجاعة تلجىء الناس إلى أكل الحرام .

٤ — سرق غلمان لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مزينة وأكلوها ، وأقرو بذلك أمام عمر رضى الله عنه ، فأمر بقطع أيديهم ، ثم عاد فأمر بردهم ، وقال لعبد الرحمن بن حاطب : أما والله إنكم لتستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله لكان له حلالا ، فلن أقطع أيديهم ، إذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك : إدفع للمزنى ضعف قيمة الناقة . وكانت قيمتها أربعمائة ، فدفع له ثمانمائة .

٥ — جعل الله للمؤلفة قلوبهم نصيبا مفروضا من الزكاة فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) سورة التوبة / ٦٠ . ولم يقف عمر أمام هذا النص جامدا ، بل فهم أن المقصود به اعزاز الاسلام وتكثير سواد المسلمين حينما يحتاجون إلى ما يقويهم ويعزهم ، وقد عز الاسلام ، وكثر المسلمون حتى أصبح الاعطاء على هذا الوجه ذلة وخنوعا فمنعه عمر وهو لا يريد إلا العزة التى أرادها الاسلام للمسلمين .

٦ — لمـــا فتح الله على المسلمين العراق والشام عنوة ، كانت ظواهر النصوص تقتضى أن تقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغزاة الفاتحين ، والخمس فقط للمصالح المنصوص عليها فى قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من

شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)
وقد طالب الغزاة بذلك فعلا . وأيدهم كثيرون . ولكن عمر رضى الله عنه رأى بثاقب فكره وبعيد نظره أن يطبق ذلك على ما غنموه من الأموال المنقولة ، فأما الأرض فرأى أن تبقى فى يد زارعيها نظير مال يدفعونه كل سنة للدولة لتنفق منه على الجيوش المرابطة على حدود العراق والشام وغيرهما من أقطار الدولة . وعلى اليتامى والمساكين وابن السبيل من هذه البلاد كلها ، وقال : إذا لم أفعل ذلك فمن أين آتى بالمال الذى أحافظ به على هذه الحدود ؟ وقد تفتح بلاد أخرى ليس فيها ما فى العراق والشام فيكون أهلها عبئا علينا ، فمن أين نأتى بالمال الذى نعول به فقراءهم ، فوافقوه على ذلك .

٧ ــ كان عمر يتعسس بالليل ، ويتفقد الرعية ، ويتعرف أخبار الناس وسمع ليلة بكاء طفل فقال لأمه سكتى طفلك وقبيل الفجر سمع نفس الطفل يبكى ، فقال لأمه إنك أم سوء ، فقالت الأم إننى أعلله على الفطام فيأبى على إلا رضاعا ، لأن عمر لايفرض العطاء إلا لمن بلغ الفطام ، فذهب عمر يصلى الفجر وما يستبينون صلاته من غلبة البكاء . وبعد الصلاة قال يا ويح عمر كم قتل من أولاد المسلمين . ثم أمر مناديا ينادى فى الناس ألا تعجلوا أولادكم على الفطام . فإنا نفرض لكل مولود فى الاسلام عطاء .

٨ ــ وبينما عمر يتعسس بالليل سمع بعض نساء المدينة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... هل من سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح دعى بنصر بن حجاج فرآه جميلا وسيما فأمر بقص شعره فزاد جمالا ، فأمر بأن يعمم فزاد جمالا ، فأمر باخراجه من المدينة وقاية للنساء من الافتتان به .

صفات المجتهد :

للمجتهد فى الشريعة الاسلامية صفات معينة لابد من التحلى بها حتى يكون صاحبها أهلا لمنصب الاجتهاد .

ومنصب الاجتهاد من أسمى المناصب الدينية والدنيوية لأن صاحبه يتكلم مبينا حكم الله تعالى .

(أ) فينبغى للمجتهد أن يقصد بعمله وجه الله ، وأن يخلص لله فى طلب الحقيقة ومن أخلص لله ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

(ب) وينبغى ألا يسارع إلى الفتوى بدون علم لأن ذلك افتراء على الله وافتيات على الشرع ، قال تعالى : (ولا تقولوا لمـا تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) سورة النحل / ١١٦ .

(ج) ينبغى أن يتمتع المجتهد بالعلم والحلم والوقار والسكينة ، فالعلم يعرف المرء رشده ، والحلم كسوة العلم وجماله ، والوقار والسكينة من ثمرات العلم .

(د) معرفة الناس ، فان الجاهل بأحوالهم يفسد بالفتوى أكثر مما يصلح إذ يروج عنده مكرهم وخداعهم حين يتمثل له الظالم بصورة المظلوم والمبطل بصررة المحق ، وقد ورد فى صحف السابقين : « ينبغى للعاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شانه » .

شروط الاجتهاد :

١ — العلم بالقرآن الكريم ، وما جاء فيه من أحكام . ولا يشترط أن يكون المجتهد حافظا لجميع القرآن ، بل يكفى أن يكون قادرا على جمع ما يرتبط بموضوع بحثه .

٢ — الاحاطة بالسنة النبوية المطهرة ، وليس معنى ذلك أن يكون حافظا لكافة الأحاديث ، ولا أن يكون حافظالا حاديث الأحكام جميعها ، ويكفى أن يكون عالما بمراجعها وبمواضع الاحاديث فى كتب السنة المعتمدة وأن يكون عارفا بما قاله المختصون فى الحديث من صحة أو ضعف وما قالوه فى رجاله من جرح أو تعديل .

٣ ــ العلم بمقاصد الشريعة الاسلامية ، وأحوال الناس وما جرى عليه عرفهم ، وما يحقق مصالحهم الدنيوية والاخروية والقدرة على معرفة علل الأحكام ، وقياس الاشباه على الأشباه ، وليستطيع فهم الوقائع واستنباط الأحكام الملائمة لمقاصد الشارع والمحققة لمصالح العباد المعتبرة .

٤ ــ معرفة قواعد اللغة العربية ، وطرق دلالتها على معانيها مما يلزم لفهم نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية .

٥ ــ معرفة مواقع الاجماع ، بحيث يعرف أن المسألة محل الاجتهاد لم يكن فيها اجماع سابق على خلاف رأيه ، ولا يلزمه حفظ جميع مواقع الاجماع .

٦ ــ الإحاطة بالناسخ والمنسوخ من القرآن الكريم والسنة النبوية ، وما يلحق بذلك من علوم القرآن والحديث .

٧ ــ أن يكون المجتهد عدلا مجتنبا للمعاصي القادحة فى العدالة حتى يتقبل الناس منه الاجتهاد والفتوى

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
الفصل الثانى عشر :	٣٦٧ -- ٣٩٦
« النسخ فى القرآن الكريم »	
ــ تعريف النسخ	٣٦٩
ــ النسخ عند مقاتل بن سليمان	٣٧٢
ــ ما لابد منه فى النسخ	٣٧٧
ــ مالا يقبل النسخ	٣٧٧
ــ النسخ بين منكريه ومثبتيه	٣٧٨
ــ الخضرى والنسخ	٣٧٩
الفصل الثالث عشر :	٣٩٧ — ٤١٣
« الاجتهـــاد »	
ــ نشأة الاجتهـــاد	٣٩٧
ــ الاجتهاد فى الصدر الأول	٤٠٠
ــ أمثلة من اجتهادات الرسول	٤٠٢
ــ اجتهاد الصحابة أمام الرسول	٤٠٤
ــ صفات المجتهـــد	٤١١
ــ شروط الاجتهاد	٤١٢
الفهـــرس	٤١٤

تم الطبع بالمراقبة العامة لمطبعة
جامعة القاهرة والكتاب الجامعى
المراقب العام
البرنس حموده حسين
١٩٨٥/٩/٢١

رقم الايداع : ١٩٨٥/٥٢١٩

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٨٤/٤٧٥/١٠٠٠)